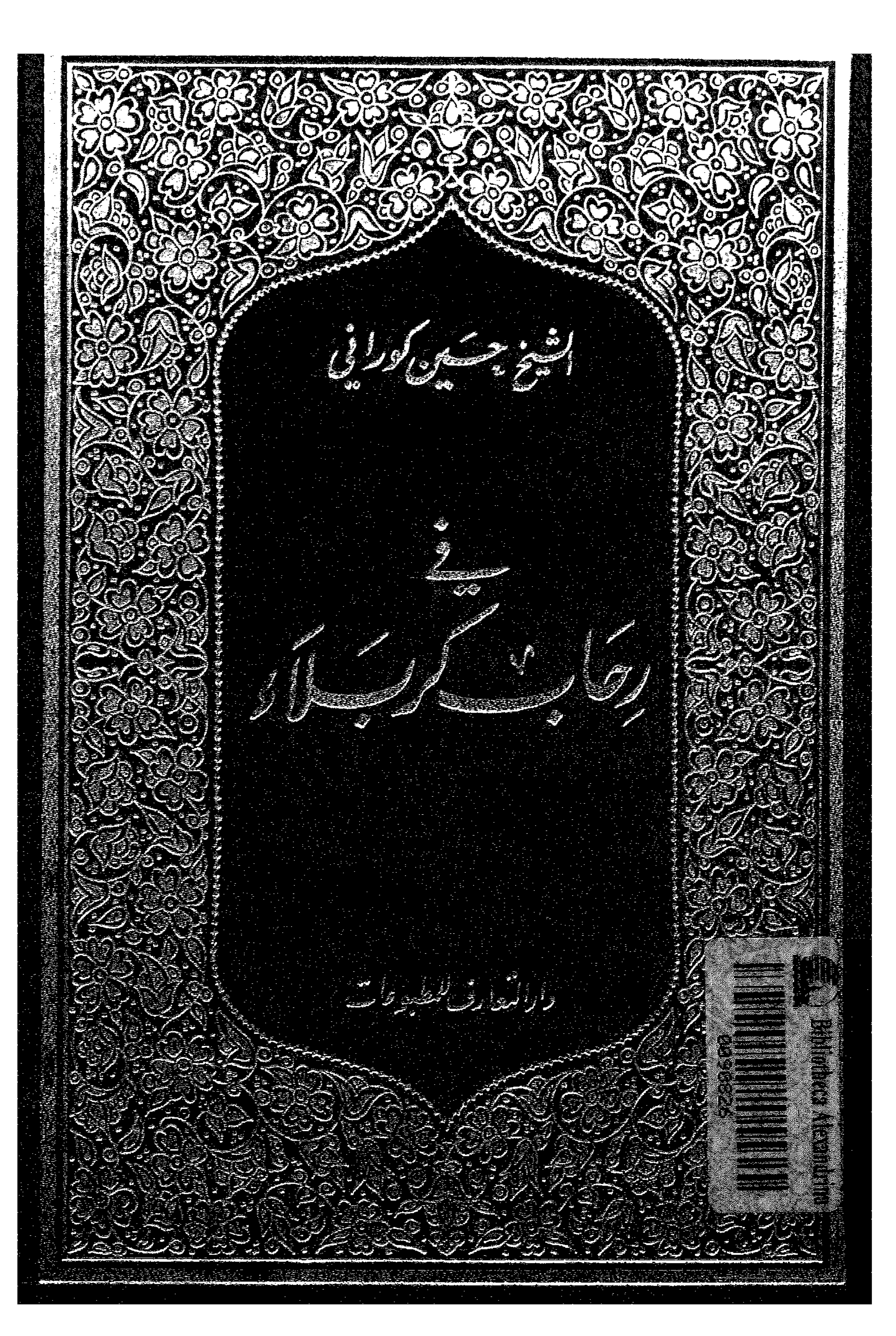
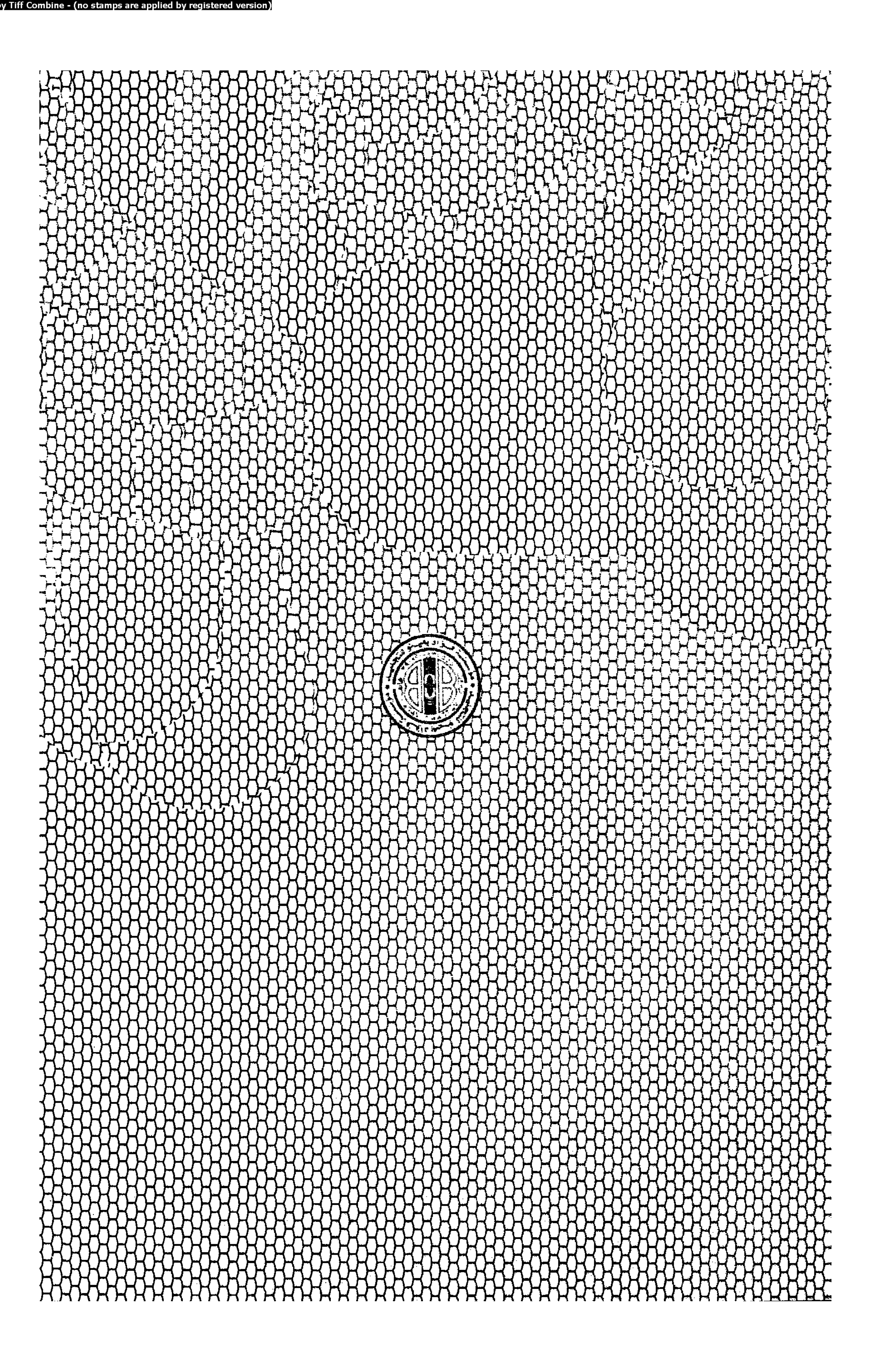

الشيخ حسين كوراني
في
رحاب كربلاء
دار التعارف للمطبوعات
Bibliotheca Alexandrina





في رحاب كربلاء



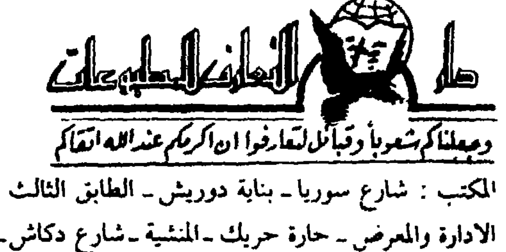
الشيخ حسين كوراني



دار التعارف للمطبوعات
بيروت لبنان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



المكتب : شارع سوريا - بناية دوريش - الطابق الثالث

الادارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية الحسنين

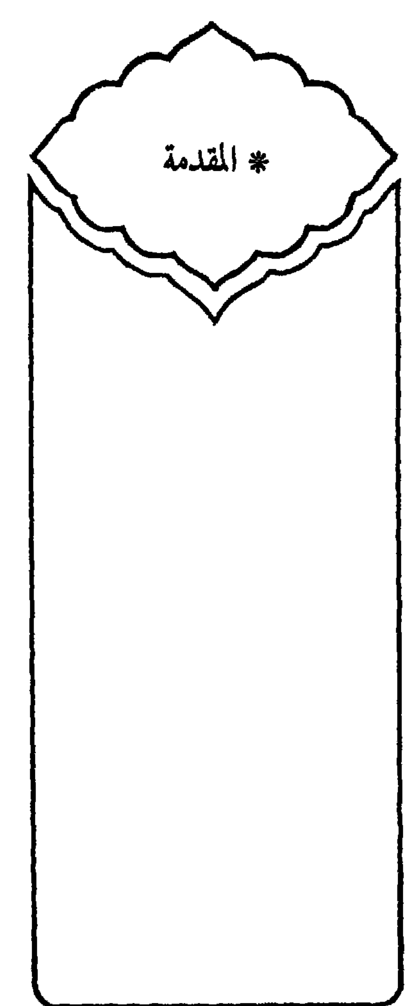
تلفون - ٨٣٧٨٥٧

ص. ب ٨٦٠١ - ١١

* الإهداء . . .

* إلى روح الشهيد الجليل
* حبيب بن مظاهر
* أهدي ثواب هذا القليل ...





* المقدمة

بين يدي القارىء الكريم ، حلقات قدمتها في شهري محرم وصفر عام ١٤١٠ هـ ، في برنامج إذاعي باسم « في محراب كربلاء » بثته « إذاعة النور » في بيروت .

والمحاور التي تحاول هذه الحلقات التركيز عليها هي كما يلي :

* **أولاً** : الترابط بين طاعة الله تعالى ، وبين التسديد للموقف الكربلائي ، والشهادة الحقيقية . . . وكذلك الترابط بين الذنب والمعصية ، وبين الخذلان ، والتخاذل والموقف الكوفي .

* **ثانياً** : التشيع المبدئي الذي لا ينفصل عن الإستعداد التام للشهادة عندما يدعو داعي الجهاد والتحذير من التشيع المصلحي ، الطائفي ، الذي ينسجم حتى مع تقديم رأس « الإمام » من أجل الفضة والذهب . . .

* ثالثاً : المسلم مجاهد . . . والإسلام انتماء وموقف ، ومن « لا يتدخل في السياسة » فإسلامه ناقص . . . وقد يصل به ذلك إلى الخروج من الإسلام « من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم » وعلى هذا الأساس فلا مجال للحياد عندما تدور المواجهة بين المجاهدين والطاغوت . . . لا يمكن للمسلم أن يجعل عنوان موقفه « ما لنا وللدخول بين السلاطين » أو « إن لي صبيةً وأخاف عليهم » بل لا بد وأن يكون عنوان موقفه « أفلا نروح إلى الآخرة ؟ »

وتأتي الإطلالة على هذه المحاور في مطاوي هذه الحلقات من منطلق أن القاعدة التي تصلح لإحتضان المواقف الكربلائية هي قاعدة حب الله تعالى التي يتفرع منها حب رسول الله وأهل البيت عليهم السلام . أما قاعدة الإعتقاد بالله والرسول وأهل البيت ـ مجرد الإعتقاد ـ فرغم أنها مطلوبة إلا أنها ليست القيمة العليا ، وشتان ما بين الحب والإعتقاد « وهل الدين إلا الحب ؟ » .

أما القاعدة التي تنتظم في إطارها المواقف الكوفية فهي « حب الدنيا » الذي يجتمع مع الإعتقاد بالله . . . ولا ينسجم أبداً مع حب الله . . . فحب الله وحب الدنيا كالليل والنهار لا يجتمعان . . . ومن غلب عليه أحد الحبين انتظمت مواقفه في سلك ما أحب . . .

* * *

وكلما اشتدت حلقة الحصار على أمة المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم ، كلما ازداد إلحاح الحاجة إلى الخشوع في محراب كربلاء . . .

وأمتنا اليوم على مشارف مرحلة شرسة من صراع الكفر ضدها ، لم يسبق لها مثيل ، خصوصاً في هذا المنطقة من العالم الإسلامي فلسطين وما حولها ، حيث يتدفق سيل الغزو اليهودي العرم ، لإقامة « إسرائيل الكبرى » على أنقاض الإسلام والقرآن . . .

وما يزال التحدي في بداياته ، إلا أن إرهاصاته تكشف عن طبيعة مجرياته المستقبلية . . . ورغم أن المسلم يجب أن يثق بوعد الله ، وأن هذه الحملات اليهودية لن يكون مصيرها مختلفاً عن مصير الحملات الصليبية ، إلا أن سرعة تحقيق ذلك مرتبط بجهد الأمة ، بتوفيق الله تعالى للأبدال منها والمجاهدين الذين

وتـدوا في الأرض أقدامهم ، وأعـاروا الله جماجمهم وتعلقت قلوبهم بـرضوان الله تعالى . . .

وعندما يستشري الإحباط . . . تصبح روح كربلاء ضرورة حياتية ، تجعلنا ندرك بعمق معنى ﴿ **فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ ومعنى أن العزة والقوة لله جميعاً . . .

﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾

* * *

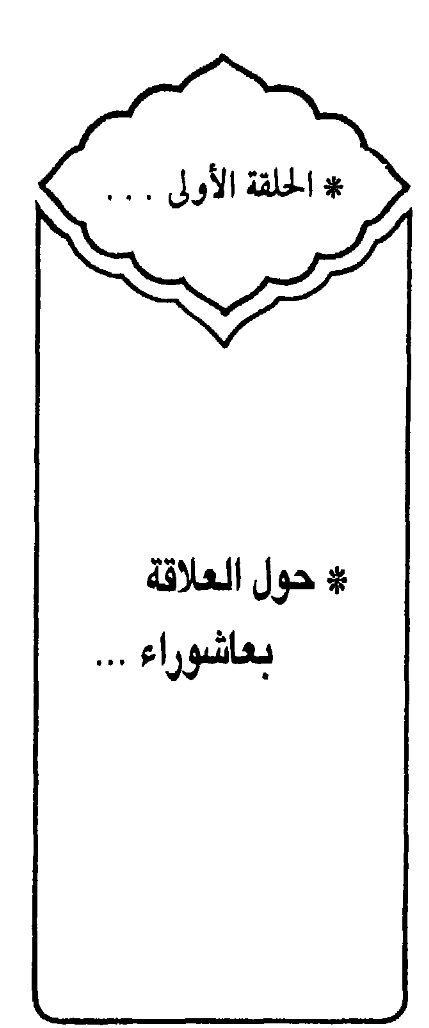
أشير ـ في الختام ـ إلى أني قد أعدت النظر في هذه الحلقات بعد أن تكرمت إدارة إذاعة النور بتسهيل مهمة أحد الإخوة المجاهدين العاملين فيها لإفراغ المادة من أشرطة التسجيل وصياغة ما احتاج إلى ذلك مما كان باللهجة العامية ، فأبقيت على أسلوبها « أسلوب الحديث » وأثبت المصادر ليسهل الرجوع إليها ، مع بعض الإضافات التي كان لا بد منها . . .

أسأل الله تعالى لكل من ساهم في تقديم المادة للطبـع ، وطبعها ، جـزيل الثواب وأن يرزقنا جميعاً شفاعة الحسين ويحشرنا مع جد الحسين وأبيه وأمه وأخيه والمعصومين من بنيه صلوات الله عليهم أجمعين . إنه ولي الإحسان والنعم .

حسين كوراني

بيروت ٢٠ ذ .ح ١٤١١ هـ





*** مدرسة حفظ الإسلام :**

عاشوراء مدرسة حفظ الإسلام ،
إذا لاحظنا موقع عاشوراء الجهادي
ولاحظنا أن الإسلام لا يمكن أن يستمر بدون روح الجهاد والإستشهاد .
نجد أن عاشوراء أرست خطاً جهادياً مميّزاً .

في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بالإمكان إرساء مثل هذا الخط ، لأنه لم يقع خلاف حول الإسلام داخل الأمة ، وفي زمن أمير المؤمنين سلام الله عليه كان الوضع بشكل أو بآخر باسم الإسلام ، كذلك في زمن الإمام الحسن عليه السلام ، في زمن الإمام الحسين عليه السلام بداية الخروج على الإسلام بشكل سافر جداً لم يكن من قبل كذلك ، في زمنه عليه السلام بداية الإنحراف الكبير في الأمة وموت إرادتها الإسلامية جاء استشهاد الإمام سلام الله عليه ـ كما يعبر

الشهيد الصدر رضوان الله عليه ـ ليهزّ ضمير الأمة وليرسي أسس هذا الخط . خط « يزيد رجل فاسق شارب للخمر ومثلي لا يبايع مثله » طبعاً عظمة عاشوراء تتجلّى في مجالات عديدة منها : الجهد الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه ، الجهاد الذي جاهدوه ، ومنها ـ وهو الأهم ـ النية الحقيقية التي حملت الإمام عليه السلام وبعض أصحابه على الإستشهاد وأقول « بعض » بناء على رواية تقول : « . . . كان الحسين صلوات الله عليه وبعض من معه من خصائصه » كلما اشتد الأمر « تشرق ألوانهم وتهدأ جوارحهم وتسكن نفوسهم . . . »[1] .

طبعاً ليس المراد أن الآخرين من شهداء كربلاء ليسوا عظماء ، الجميع عظماء ، إلا أن الإمام سلام الله عليه هو سيد الشهداء وبعض من كان معه ، كانوا في مرتبة سامية جداً .

وكل تحرّك جاء بعد عاشوراء بإتجاه التأكيد على حاكمية الإسلام هو بشكل أو بآخر يستمدّ روحه من كربلاء ومن عاشوراء .

*** كيف يجب أن تكون العلاقة بعاشوراء :**

البحث حول كيفية العلاقة المطلوبة بعاشوراء يجعلني أقف عند درجة تفاعلنا مع الحقائق الإيمانية والإسلامية بشكل عام . مثلاً ، نجد أن في أوساطنا اهتماماً بعاشوراء ، لكن يا ترى هل هذا هو الإهتمام الطبيعي والمطلوب ؟ . . . لدى محاولة الإجابة عن هذا السؤال ننظر إلى المسلمين في العراق كيف يتعاطون مع عاشوراء ، نجد أن هناك تعاطياً بدرجة أرقى[2] مما نتعاطى به نحن مع عاشوراء . ونجد أن المؤمنين في إيران يتعاطون بدرجة أرقى من المؤمنين في العراق ، كذلك نجد أن المؤمنين في باكستان يتعاطون مع عاشوراء بدرجة عاطفية أقوى . إذن عندما نجد أنماطاً من التعاطي ، لا نستطيع أن نقيّم ما ينبغي على أساس الممارسات ، بل نرجع إلى نصوصنا وإلى آراء العلماء والمراجع ، الذين يسلّم لهم علمهم ويعتقد بمعرفتهم ، نجد أن مسألة كربلاء هي شيء آخر ، الكون كلّه يهتم بعاشوراء ، الأرض السماء ، الجماد ، الحيوان ، الملائكة ،

---

(١) معاني الأخبار ـ باب معنى الموت ـ .

(٢) المقصود : أقوى وأشد تفاعلاً .

الأنبياء ، إذن ليس هناك حدّ للتفاعل مع عاشوراء ، نحن يبدو أننا صنعنا سقفاً معيناً وتصورنا أن هذا غاية ما يمكن . فمثلاً قد يتصور بعض الناس أن المهم أن يبكي الإنسان على الإمام الحسين عليه السلام البكاء المعقول بشكل محدود ، أما اللطم مثلاً فليس ضرورياً كما قد يقال ! .

نحن نرى أن الروايات تتحدث عن بكاء الملائكة والجن والحيوان وما ورد في كتاب « كامل الزيارات » يكفي في هذا المجال ، هذا الأمر يجعلنا ندرك أننا مقصّرون جداً في إحياء عاشوراء والإهتمام بها ، خصوصاً عندما نلتفت إلى أن عاشوراء هي مستشفى لكل الأمراض (القلبية والعقلية والجسدية والروحية) فكما يحرم العطشان نفسه من ماء عذب زلال ، لأنه لا يفهم أن هذا الماء يروي غليله ، كذلك نحرم أنفسنا من معين عاشوراء عندما نتعامل معها بحدود معينة ، العلاقة مع عاشوراء ينبغي أن تكون علاقة اهتمام مميّز . بداية السعي نحو الإهتمام بعاشوراء والإرتقاء في العلاقة ، أن نعلم أن الناس أعداء ما جهلوا ، فإذا كنّا نجهل حقيقة معينة لا نستطيع أن نتفاعل معها ، عندما أجهل المميزات الإيجابية لشخص ولا أعرف ملكاته الأخلاقية . فلِمَ أُحبّه ؟ ولِمَ أتفاعل معه ؟! نحن مدعوون لمعرفة الإمام الحسين عليه السلام ومعرفة عاشوراء . ينبغي أن نعرف اهتمام الأنبياء بعاشوراء ، واهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكل خاص وبكاءه المتوالي على الإمام بمجرد أن يعلم أنه سيستشهد ، كذلك المعصومين جميعاً ، يجب أن نطلّع على ما يقوله العلماء ، مثلاً نجد أن عالماً كبيراً يحترمه كبار العلماء ، نجده مستعداً لأن ينخرط في صفوف اللطم على سيد الشهداء فيسأل لم تفعل ذلك ؟ فيقول : لقد رأيت الإمام المنتظر في موكب اللطم ولم أتمالك نفسي أن لا ألطم[1] . عندما نعرف هذه الحقائق بطبيعة الحال سوف يكون تفاعلنا مع عاشوراء من نمط آخر .

ومن هنا أضع بين يدي الخطباء الحسينيين وجهة نظر وهي أن لا نقرر مسبقاً أن لا يعرض على المنبر إلا ما ينسجم مع (عقولنا) ، فمثلاً ينظر أحدنا إلى رواية ويقول : هل يقبلها العقل أم لا ؟ فيرى أنها لا تقبل فيتركها ، ليس هذا هو

---

(١) تفصيل ذلك في كتاب « ملاقات بإمام زمان » فارسي ، والعالم المذكور هو المرجع الكبير السيد بحر العلوم قدس سره .

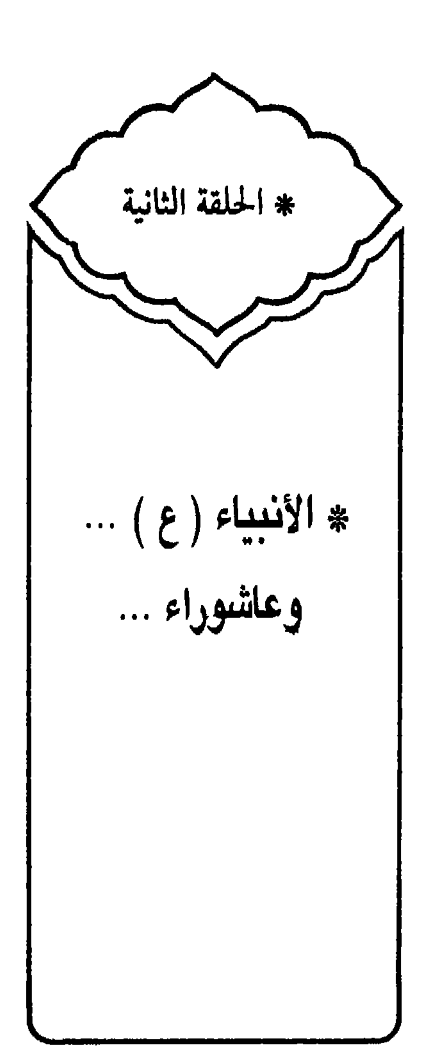
المقياس ، المقياس أن هذه الرواية صحيحة أو غير صحيحة ، فإذا كانت صحيحة ، تعرض كما هي ، وإذا رأينا أن الرواية مستغربة فلنتذكّر أن خطاب النملة لنبي الله سليمان ولقومها عندما مرّ عليه السلام بوادي النمل أشد غرابة ، وإذا كان من الصعب على الخطيب أن يعرف إذا كانت الرواية صحيحة أم لا ، فعلى الأقل يعتمد كتب العلماء الكبار الذين تسالم العلماء على احترام مقامهم وينقل عنهم الروايات التي يذكرونها ككتاب « كامل الزيارات » ، و « بحار الأنوار » حيث يمكن الإعتماد على هذين الكتابين وأمثالهما في الموارد التي صرح المؤلفون الأجلاء بآرائهم وصحة ما نقلوه .

وإذا خرجنا من قيد الروايات المستغربة بالإعتماد على آراء العلماء في صحة هذه الروايات يمكن أن نرفع كثيراً من مستوى علاقتنا وعلاقة الآخرين بأهل البيت عليهم السلام .

* المرحلة الثانية في تطوير علاقتنا بعاشوراء تكون عبر برنامج مطالعات نعرف من خلاله عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام وموقعهم من الرسالات السماوية المتعددة التي ختمت بالإسلام . فنقرأ حول سيرتهم عليهم السلام ونركز على سيرة الإمام الحسين سلام الله عليه حتى نصل إلى معرفة دقيقة بالإمام وندرك خصوصيات موقفه .

إن الفرق كبير بين فهمنا للإمام الحسين عليه السلام باعتبار أنه الإمام المعروف حتى عند الأنبياء المتقدمين . . . وأنه صاحب المصيبة التي أبكتهم . . . وبين فهمنا له عليه السلام بمعزل عن هذا البعد الشديد الصلة بمعرفة شخصيته صلوات الله عليه . . .

* * *



*** بعض ما ورد عن الأنبياء عليهم السلام بخصوص عاشوراء :**

خلاصة ما ورد من روايات حول علاقة الأنبياء عليهم السلام بعاشوراء ، خصوصاً أولي العزم ، أنهم كانوا يبكون على الإمام الحسين عليه السلام ، واهتموا كثيراً بعاشوراء وهم الآن مع أنهم في جوار الله في عالمهم الأخروي يأتون إلى زيارة الإمام عليه السلام وهذه الحقيقة قد تثير تساؤلات بأن الإمام الحسين عليه السلام من العظمة بحيث أن النبي إبراهيم عليه السلام والأنبياء الآخرين يبكون عليه ويحملون همّ استشهاده منذ ذلك الوقت ؟؟! هنا ينبغي أن يكون واضحاً لكل شخص أن رسالات الله عزَّ وجلّ هي في الحقيقة رسالة واحدة والناس جميعاً عائلة بشرية واحدة وكبيرة ، المعبود سبحانه وتعالى واحد ، . . . هذه العائلة البشرية الكبيرة صفوتها وخيرتها ، هم

المعصومون ، وخير المعصومين وأفضلهم ـ بدون جدال ـ هو رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم . والنبي أي نبي لا يطلعه الله على الماضي فقط بل يطلعه على ما سيأتي ، خصوصاً من مراحل الرسالة التي سيحملها هو ، إذن من الـطبيعي أن نجد أن الأنبياء يعرفون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل هناك تأكيد في تفسير الآيات والروايات وآراء العلماء على أن الأنبياء جميعاً أخـذ منهم ميثاق الإعـتراف بنبـوة محمد صـلى الله عليه وآلـه وسلم ، آل النبي صلى الله عليـه وآلـه وسلم . موقعهـم أيضاً مميّز ومعرفة الأنبياء بهم أمـر طبيعي جداً ، لـذلك نجـد أن الأنبياء يعرفون كربلاء ولا غرابة في ذلك ، خصوصاً إذا عرفنا أن خير الرسالات الإسلام وخير الشهادات في سبيل الله والدفاع عن الإسلام ؛ هي شهـادة الإمام الحسـين سلام الله عليه ، فالنموذج الإيماني الأرقى في مجال الإستشهاد وتقديم الأنفس وكل ما يمكن تقديمه في سبيل الدفاع عن هذه الرسالة قـدّمه الإمـام الحسين سـلام الله عليه ، لذلك فأفضل الشهادات هي شهادة الإمام الحسين ، خصوصاً إذا عرفنا أن النبي (كل نبي) يعرف الآخرة كما يعرف الدنيا ، والإمام الحسين في الآخرة لـه موقع مميّز ، إضافة إلى شفاعة السيدة الزهراء عليها السلام لمحبي ولدها الحسـين وأنها تقف في المحشر فتطالب بالإنتقام من قتلة الإمام الحسين ، وأن الإمام يرى في المحشر جسداً بلا رأس كما كان في كربلاء ، فالنبي إذا نظر إلى الآخرة يرى أمامه الإمام الحسين عليه السلام وإذا نظر إلى الدنيـا أيضاً يـرى أمامـه الإمام الحسـين عليه السلام فمن الطبيعي إذن أن يكون الأنبياء على علاقة مميزة بالإمام سلام الله عليه .

وإذا جئنا إلى النصوص التي تتحدث عن عاشوراء في سيرة الأنبياء نجد أن لدينا عدداً كبيراً من هذه النصوص ، فمثلاً نجد في كتـاب « كامـل الزيـارات » ثلاثة أبواب باب بعنوان « علم الأنبياء بشهادة الإمام الحسين عليه السلام » وباب آخر بعنوان « لعن الأنبياء لقاتل الإمام سـلام الله عليه » والبـاب الثالث بعنـوان « زيارة الأنبياء له » والمقصود بهذه الأبواب علم الأنبياء بشهادة الإمام ولعنهم لقاتله قبل استشهاده وزيارتهم له بعد استشهاده .

ومما ورد في علاقة الأنبياء عليهم السلام بالإمام الحسين ما نجده في كتـاب

البحـار[1] حيث يقول «وروى صـاحب الدر الثمـين في تفسـير قـولـه تعـالى ﴿فتلقى آدم من ربّـه كلمات﴾ أنه رأى سـاق العرش وأسـماء النبي والأئمة عليهم السـلام، فلقنه جبرئيل ، قل يا حميد بحق محمد ـ يا عالي بحق علي ، يا فاطر بحق فاطمة يا محسن بحق الحسن والحسين ومنك الإحسان ، فلما ذكر الحسين سالت دموعه وخشع قلبه وقال : يا أخي جبرئيل ، في ذكـر الخامس ينكسر قلبي وتسيـل عبرتي ، ـ أن أي شخص يكـون قلبه سليـماً يتأثـر بذكـر الإمـام الحسـين عليـه السـلام ، فـالنبي آدم عليه السلام باعتبار سلامة قلبه ورقته تأثر بذكر الإمـام وسالت عـبرته ـ قـال جبرئيل : ولدك هذا يصـاب بمصيبة تصغـر عندهـا المصائب . فقـال : يا أخي ومـا هو؟ قال : يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين ، ولو تـراه يا آدم وهو يقول واعطشاه واقلة ناصراه ، حتى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان ، فلا يجيبه أحد إلا بالسيـوف وشرب الحتوف ، إلى آخـر النص الذي يختم بعبـارة فبكى آدم بكاء الثكلى » .

* ونجد في الروايات ما يتعلق بالنبي نوح عليه السلام أيضاً ، يقول النص أنه عندما ورد إلى كربلاء وكان يطوف الأرض في السفينة وصل إلى كربلاء فتداخله الخـوف « وروي أن نوحـاً لما ركب في السفينـة طافت بـه جميع الـدنيا فلمّا مـرّت بكربلاء أخذته الأرض وخاف نوح الغرق فدعا ربّه وقال : إلهي طفت جميع الدنيا وما أصابني فزع مثلما أصابني في هذه الأرض فنزل جبرئيل وقال : يا نوح في هذا الموضع يقتل الحسين سبط محمّد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وابن خاتم الأوصياء فقال: ومن القـاتل لـه يا جـبرئيل؟ قـال: قاتله لعـين سبع سـماوات وسبع أرضـين فلعنه نـوح أربع مـرّات فسارت السفينـة حتى بلغت الجودي واستقـرّت عليه »[2] .

* وفي هـذا المجال نتـذكّر قصّـة بقايـا سفينة نـوح التي اكتشفها العلماء في الإتحاد السوفياتي ومنها قطعة خشب كبيرة لا تزال سليمة كتب عليها « إلهي بحق هذه الأسماء التي خلقت الدنيا لأجلها ، محمد ، فاطمة ، إيليا ، شبّر ، وشبير » .

* أيضاً نجد نصّاً عن خليل الله إبراهيم عليه السلام خلاصتـه أنه عنـدما

---

(١) ج ٤٤/٢٤٥ .

(٢) بحار الأنوار ٤٤/٢٤٣ .

أراد أن يذبح ابنه إسماعيل بعدما جاءه الأمر بذلك ، جاءه المنع والنهي وهنا تألم إبراهيم لأنه لو ذبح ابنه لكان نال هو وابنه من الثواب ما حرما منه عندما جاءه النهي عن ذبحه ، وبما أنه عليه السلام يريد الخير لابنه ولنفسه والخير في امتثال أمر الله بالذبح أكثر من الخير في امتثال أمر الله بعدم الذبح فلذلك تألم . . .

عند ذلك جاءه النداء « يا إبراهيم من أحب خلقي إليك فيقول : رسولك محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال : ابنك أحب إليك أم ابنه أحب إليك ، قال : ابنه أحب إلي ، قال تعالى : فأيهما يؤلمك أكثر ، أن تذبح ابنك بيدك أو يذبح بعض من يدعون أنهم من أمّة محمد ، ابن محمد رسولي قال : يا رب بل ذبح ابنه بيد أعدائه ، أشد إيلاماً لنفسي ، فأخبره الله تعالى بشهادة الإمام الحسين عليه لسلام وأن بعض من يدّعون الإسلام سوف يقتلونه ، فبكى إبراهيم وجزع على الإمام الحسين ، فأوحى الله تعالى إليه أنّه عوّضه ذلك الثواب الذي تصوّر أنه حرم منه ، ببكائه على الإمام وجزعه عليه[1] .

* في هذا السياق نجد نصّاً عن نبي الله إسماعيل عليه السلام (وهو غير إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كما تنص على ذلك رواية صريحة عن الإمام الصادق عليه السلام)[2] وخلاصة قصّته أنه بعث إلى قوم فأخذ وعذّب عذاباً شديداً ، فأوحى الله تعالى إليه ، ما حاجتك . قال : يا رب لي بالحسين عليه السلام أسوة، وعدّة روايات عن نبي الله إسماعيل بعضها يوضح أنه عرض عليه أن ينتقم الله تعالى له فقال: لي بالحسين أسوة، وأريد أن أكرّ مع الحسين، وهذا حديث عن الرجعة بمعنى أنه طلب أن يرجع إلى الدنيا مع الإمام الحسين عليه السلام .

* أيضاً نجد أن نبي الله موسى عليه السلام اهتّم بكربلاء اهتماماً كبيراً . تقول الرواية في البحار نقلاً عن كتاب كامل الزيارات : أول من لعن قاتل الحسين بن علي عليهما السلام إبراهيم عليه السلام ، لعنه وأمر ولده بذلك ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ؛ ثم لعنه موسى بن عمران وأمر أمته بذلك ثم لعنه

---

(١) المصدر السابق / ٢٢٥ .

(٢) نفس المصدر / ٢٣٧ .

داود وأمر بني إسرائيل بذلك ثم لعنه عيسى وأكثر أن قال : يا بني إسرائيل العنوا قاتله وإن أدركتم أيامه فلا تجلسوا عنه ، فإن الشهيد معه كالشهيد مع الأنبياء مقبل غير مدبر وكأني أنظر إلى بقعته وما من نبي إلا وقد زار كربلاء ووقف عليها وقال : إنك لبقعة كثيرة الخير فيك يدفن القمر الأزهر[1] .

وربما كان ورود تفاصيل أكثر في هذه المسألة على لسان نبي الله عيسى عليه السلام يرجع إلى أن وجود نصارى في زمن الإمام الحسين عليه السلام يستدعي أن يحث نبي الله عيسى جميع النصارى على نصرة الإمام الحسين حتى ينالوا شرف الشهادة بين يديه ، ولعل هذا الحث من الأسباب التي دفعت بعض أتباع نبي الله عيسى عليه السلام على اقتحام ميادين الشهادة الكربلائية على ربى كربلاء . . . وفي الطريق إلى الشام . . . وفي مجلس يزيد في الشام .

* ونجد أيضاً عن نبي الله عيسى على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام أن أمير المؤمنين عليه السلام يحدثنا في نص مؤثر جداً عن مرور النبي عيسى بأرض كربلاء وماذا قال للحواريين « . . . وذلك أنه مرّ بها ومعه الحواريون فرأى ههنا الظباء مجتمعة وهي تبكي فجلس عيسى وجلس الحواريون معه فبكى وبكى الحواريون وهم لا يدرون لم جلس ولم بكى ، فقالوا : يا روح الله وكلمته ما يبكيك ؟ . قال : أتعلمون أي أرض هذه ، قالوا : لا ، قال : هذه أرض يقتل فيها فرخ الرسول أحمد صلى الله عليه وآله وسلم وفرخ الحرّة الطاهرة البتول شبيهة أمي ، ويُلحد فيها ، طينة أطيب من المسك ، لأنها طينة الفرخ المستشهد ، وهكذا طينة الأنبياء وأولاد الأنبياء ، فهذه الظباء تكلمني وتقول أنها ترعى في هذه الأرض شوقاً إلى تربة الفرخ المبارك ، وزعمت أنها آمنة في هذه الأرض »[2] .

* * *

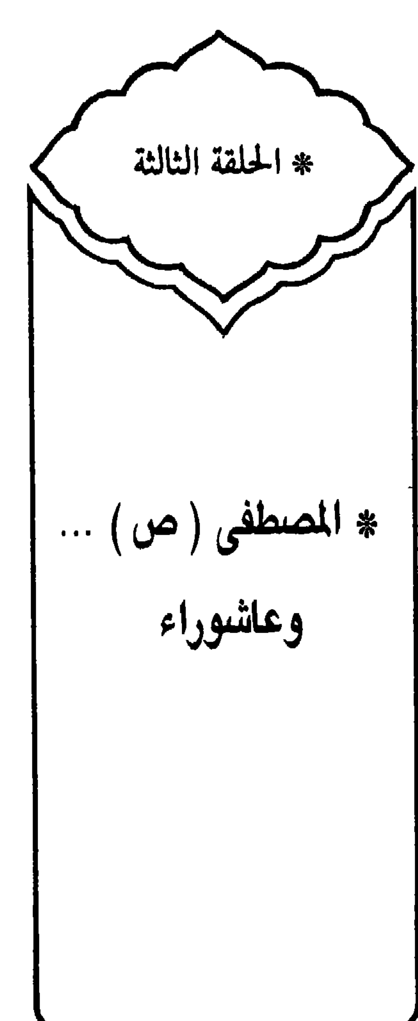
وأعتقد أن فيما تقدّم من نصوص يعطينا فكرة عن أهمية عاشوراء عند الأنبياء عليهم السلام ، بشكل عام يبقى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يحمل هموماً أساسية ، أحد هذه الهموم الأساسية ، هم كربلاء وأخبار الناس بشهادة الإمام عليه السلام ، كذلك المولى أمير المؤمنين عليه السلام ، أتناول ذلك في الحديثين التاليين إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) كامل الزيارات /٦٧ .

(٢) بحار الأنوار ٤٤/ ٢٥٣ .





*** عـاشـوراء في سـيرة النبي صـلى الله عليه وآله وسلم :**

هنـاك عـدّة فـروق أسـاسيــة بـين الـنصــوص الـتي وردت عن رســول الله صـلى الله عليه وآلـه وسلم وسائـر الأنبياء عليهم السلام بخصوص عاشوراء .

* **أولاً** : النصـوص عن المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم أحدث عهـداً ، وإمكانيةُ التثبت فيها أكثر .

* **ثــانيــاً** : أن النـصــوص عـن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تتخّـذ طابعاً عملياً أكثر ، الأنبياء السابقون عندما يتكلمــون عن عـظمـة الإمـام الحســين عليه السلام أو عظمة عاشوراء أو أهميتهـا وخطورة ذنب قاتلي الإمام ، هم يؤكـدون على جانب القداسة من جهة والخطورة من جهة ، وتأكيدهم مع وجود الفارق الزمني ، تأكيـد لا يتخّذ الطابع العملي بمقدار مـا تتخّذه نصوص رسـول الله صلى الله عليـه

وآله وسلم ، باعتبار أن أمّة المصطفى هي المعنية بهذا الحديث . . . الذين سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصوصه بعضهم عـايش كربـلاء ، وكثير منهم ، أدركهم الذين عايشوا كربلاء ، وسمعوا منهم .

* ثالثاً : نجد أن التأكيد على عـظمة الإمـام الحسين وعـلى أهمية كـربلاء وعاشوراء ، في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يعني أن المسلمين قبل أن يتفرّقوا ، سمعوا جميعاً من رسول الله ما يدل على سمو منزلة الإمام سلام الله عليه ، هذا التأكيد ووقوعه قبل أي تفرّق ، نجد أثره اليوم ، بمعنى أن المسلمين بشكل عام ، لأنهم ينقلون هـذه النصوص التـي صـدرت عن الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم ، ينظرون بإكبار إلى الإمام الحسين .

ومن هنا فإن الإمام الحسين عليه السلام ـ شأنه في ذلك شأن عترة المصطفى جميعاً ـ هو محور أساسي من محاور الوحدة الإسلامية ويا حبّذا أن ندخل في رحاب الوحدة على أساس عقائدي ، لنجد أن الأمور التي تجمعنا هي الأساس والأصل ، لا أريـد أن أقول أنها فقط أكـثر ممّا يفـرقنا ، يكفي أن نـأخـذ حب أهـل البيت عليهم السلام ، محوراً . . . ومن هنا . . . أنا حقيقة أستغرب ويطول استغرابي ، لماذا لا نجد احتفـاءاً بعاشـوراء في أوساط المسلمـين السنة ، وإذا كـانت هنـاك تراكمات في الماضي لم تسمح بإحياء المسلمين السنة لعاشوراء ، لم لا يفكر بالأمـر الآن ؟! .

طبعاً لا أقصد الوهابيين فهم ليسوا سنة ولا شيعة . . . ليسوا مسلمين . . . إنهم نواصب وتاريخهم حافل بالتآمر على الإسلام والحقد الـدفين عـلى أهل بيت المصـطفى صلى الله عليـه وآلـه وسلم بدءاً بغـاراتهم عـلى النجف الأشرف . . . وهجومهم على كربلاء ونهبهم حرم سيد الشهداء عليه السلام وقتلهم حوالي أربعة آلاف مسلم في يـوم واحد هنـاك ومروراً بهـدم مـراقـد الأئمـة عليهم السـلام في البقيع . . . إلى غير ذلك من المواقف التي يكفي كل منها لإثبات هويتهم !

* أما بالنسبة للنصوص الواردة عن رسول الله صـلى الله عليه وآلـه وسلم حول الإمام الحسين وعاشوراء فنجد أنه صلى الله عليه وآله وسلم كـان في مجلس عاشورائي مستمر من قبل ولادة الإمام سلام الله عليـه وإلى أن انتقل رسـول الله

صلى الله عليه وآله وسلم إلى رحاب الله ، عندما يولد مولود لشخص فإنه يفرح ، بينما نجد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمجرّد أن يدفع إليه الحسين الوليد عليه السلام يبكي ، يقول النص : « فلما ولدت فاطمة الحسين عليه السلام ، ذهبت به إلى النبي ، فدفعته إليه في خرقة بيضاء ففعل به كما فعل بالحسن ، (المستحبات) وبكى رسول الله ثم قال : إنه سيكون لك حديث اللهم العن قاتله ، لا تُعلمي فاطمة بذلك ، قالت أسماء : فلما كان في اليوم السابع جاءني النبي فقال : هلمّ ابني فأتيته به ، ففعل به كما فعل بالحسن (مستحبات اليوم السابع) ، ثم وضعه في حجره ثم قال : يا أبا عبد الله عزيز علي ، ثم بكى ، فقلت : بأبي أنت وأمي ، فعلت في هذا اليوم وفي اليوم الأول ، فما هو؟ قال : أبكي على ابني هذا ، تقتله فئة باغية كافرة من بني أمية ، لعنهم الله ، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة ، يقتله رجل يثلم الدين ، ويكفر بالله العظيم ، ثم قال : اللهم إني أسألك فيهما (أي في الحسنين) ما سألك إبراهيم في ذريته ، اللهم أحبّهما وأحب من يحبّهما ، والعن من يبغضهما ملء السماء والأرض[1] .

* وقد يسأل البعض لماذا كان هذا التأكيد من النبي صلى الله عليه وآله وسلم على شهادة ولده الحسين منذ ولادته ؟ والجواب أن المتتبع لسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يجد أن هناك أموراً أساسية ، كان دائم التأكيد عليها ، تدخل جميعها في إطار تبليغ الإسلام ، التأكيد على الزهراء ، على أمير المؤمنين ، على الحسنين ، التأكيد على مسألة عاشوراء بشكل خاص ، كلها ترتبط باستمرار الإسلام وإقامة الحجة على المسلمين .

والمتأمل في النص المتقدم يسأل نفسه ، كيف كان وضع الرسول والزهراء وأهل البيت وهم يعرفون ماذا سوف يجري على الحسن والحسين . رغم جهود أمير المؤمنين عليه السلام في بعث الإسلام بتوفيق الله وبركة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، كيف يكون الجو النفسي لهذه الأسرة ؟ إنه مجلس عزاء دائم وحزن دائم .

ولكن لسان حالهم : « هوّن علي ما نزل بي أنه بعين الله » كما قال الحسين

---

(١) بحار الأنوار /٤٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

عليه السلام في هذا السياق نجد نصّاً آخر يقول : لّما أن هبط جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتل الحسين ، أخذ بيد عليّ ، فخلا به ملياً من النهار ، فغلبتهما عبرة ، فلما يتفرّقا حتى هبط عليهما جبرئيل ، أو قال : رسول رب العالمين ، فقال لهما : ربكما يقرؤكما السلام ويقول : قد عزمت عليكما لّما صبرتما ، قال : فصبرا[1] .

كذلك نجد نصاً يبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان في مختلف المناسبات يؤكد على شهادة الإمام الحسين عليه السلام ، يقول أحد الرواة : دخلنا مع علي إلى صفين ، فلما حاذى نينوى (أي كربلاء) نادى صبراً يا أبا عبد الله ، وقال عليه السلام : دخلت على رسول الله وعيناه تفيضان ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لعينيك تفيضان ؟ أغضبك أحد ، قال : لا ، بل كان عندي جبرئيل فأخبرني أن الحسين يقتل بشاطىء الفرات . وقال : هل لك أن أشمّك من تربته قلت : نعم ، فمدّ يده فأخذ قبضة من تراب فأعطانيها ، فلم أملك عيني أن فاضتا ، واسم الأرض كربلاء ، فلما أتت عليه سنتان ، خرج النبي إلى سفر ، فوقف في بعض الطريق . (ظاهر النص أن النبي خرج بعد هذه الحادثة بسنتين أو أنها بعد ولادة الإمام الحسين بسنتين) واسترجع ودمعت عيناه ، فسئل عن ذلك فقال : هذا جبرئيل يخبرني عن أرض بشط الفرات يقال لها كربلاء يقتل فيها ولدي الحسين ، وكأني أنظر إليه وإلى مصرعه ومدفنه بها وكأني أنظر إلى السبايا على أقتاب المطايا ، وقد أهدي رأس ولدي الحسين إلى يزيد لعنه الله ، فوالله ما ينظر أحد إلى رأس الحسين ويفرح إلا خالف الله بين قلبه ولسانه وعذّبه الله عذاباً أليماً .

(وطبعاً لا بد وأن ينعكس هذا الكلام على من كان مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في سفره ونلاحظ أن كثيراً من الروايات عنه صلى الله عليه وآله وسلم حول الحسنين في المسجد ، على المنبر ، أثناء سفر ، بحيث ينعكس هذا الأمر) .

ورجع النبي من سفره مهموماً مغموماً كئيباً حزيناً ، فصعد المنبر وأصعد معه

---

(١) المصدر السابق /٢٣١ .

الحسن والحسين وخطب ووعظ الناس ، فلما فرغ من خطبته وضع يده اليمنى على رأس الحسن ويده اليسرى على رأس الحسين وقال : اللهم إن محمداً عبدك ورسولك ، وهذان أطائب عترتي وخيار أرومتي ، وأفضل ذريتي ومن أخلّفهما في أمتي وقد أخبرني جبرئيل أن ولدي هذا (ويقصد الحسن عليه السلام) مقتول بالسم والآخر شهيد مضرّج بالدم ، اللهم فبارك له في قتله واجعله من سادات الشهداء ، اللهم ولا تبارك في قاتله وخاذله وأصله حرّ نارك واحشره في أسفل درك الجحيم (ولا بد أن يحصل هنا مجلس عزاء) فضجّ الناس بالبكاء والعويل فقال لهم النبي : أيها الناس ؛ أتبكونه ولا تنصرونه ! اللهم فكن أنت له وليّاً وناصراً ثم قال : يا قوم ، إني مخلّف فيكم الثقلين ، كتاب الله ، وعترتي وأرومتي ومزاج مائي وثمرة فؤادي ومهجتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، ألا وإني لا أسألكم في ذلك ، إلا ما أمرني ربي الخ[1] . الحديث طويل خلاصته أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ترد عليه على الحوض ثلاث رايات : الراية الأولى والثانية تكون كل منهما سوداء مظلمة ، تفزع منها الملائكة ، يقول لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : من أنتم ؟ فينسون ذكر رسول الله ، لا يستطيعون أن يقولوا نحن أمة رسول الله ، لأنهم تنكروا للقرآن والعترة ، الراية الثالثة هي راية أمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذين يسألهم المصطفى « من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل كلمة التوحيد والتقوى من أمة محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، ونحن بقيّة أهل الحق . حملنا كتاب ربّنا وحلّلنا حلاله ، وحرّمنا حرامه . وأحببنا ذريّة نبيّنا محمد ونصرناهم من كل ما نصرنا به أنفسنا وقاتلنا معهم من ناوأهم . فأقول لهم (والكلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) أبشروا فأنا نبيكم محمد ، ولقد كنتم في الدنيا كما قلتم ، ثم أسقيهم من حوضي ، فيصدرون مرويين مستبشرين ، ثم يدخلون الجنة خالدين فيها أبد الآبدين » . (اللهم ارزقنا) .

أما كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النص « اللهم بارك له في قتله » فيقصد بها ـ والله العالم ـ أن يجعل الله تعالى هذه الشهادة مدرسة للإستشهاد ولحفظ الإسلام ، تخرج منها مواكب المجاهدين في كل العصور ومنها قوافل

(١) المصدر السابق /٢٤٧ ـ ٢٤٩ .

مجاهدي الثورة الإسلامية في إيران والمقاومة الإسلامية والإنتفاضة الإسلامية والمجاهدين المؤمنين في أفغانستان وفي كل مكان هكذا تكون شهادة الإمام الحسين عليه السلام مباركة .

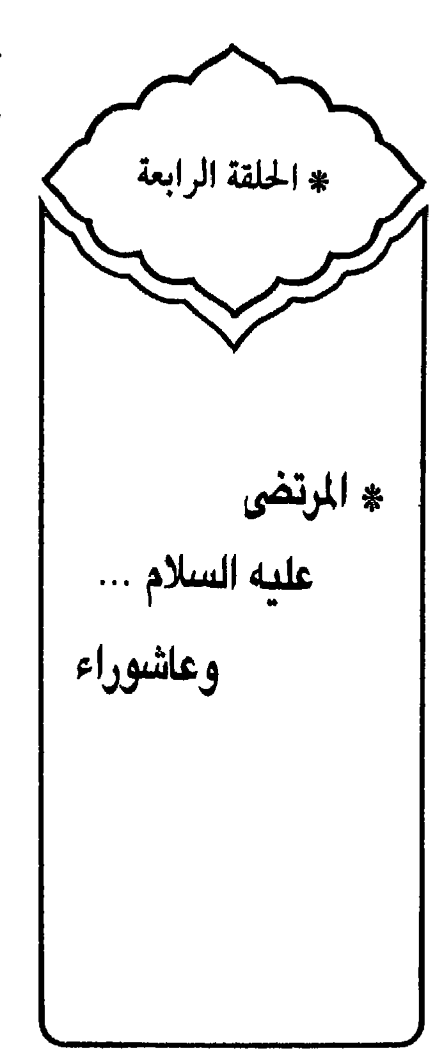
* * *

* وفي الختام : إن الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حول الحسنين وأهل البيت بشكل عام عليهم السلام كثيرة جداً . . . هي في المصادر السنية كثيرة . . . بحيث أن أحد العلماء ألّف كتاب « فضائل الخمسة من الصحاح الستة» . . . وهي في المصادر الشيعية كثيرة أيضاً . . . وقد تقدم أن من جملة أهداف المصطفى في تبليغ الرسالة التأكيد على « المودة في القربى » . . .

لذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم كثير الحديث عن أهل البيت عموماً . . . وعن الحسنين بشكل خاص . . .

كان يتحدث عن ذلك في معرض حث المسلمين على الإلتزام بأهل البيت وكان إذا جلس إليه أمير المؤمنين حدثه عما سيجري من بعده . . . كذلك مع الزهراء . . . يأتيه جبرئيل بخبر فيبكي ثم يحدث بما ينبغي الحديث به . . . يرى شخصاً يجد أن من المناسب إيصال ذلك إليه فيحدثه به . . . إذن لكثرة مجالات الحديث عن عاشوراء . . . من الطبيعي أن نجد أن النصوص عنه صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة جداً . . . وما تقدم ليس إلا قليلاً من كثير . . .

* * *



*** عاشوراء في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :**

النصوص الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام حول الإمام الحسين سلام الله عليه ، هي أيضاً كثيرة جداً وهذا أمر طبيعي . باعتبار عظمة الإمام الحسين وعاشورائه ، وكذلك الأمر بالنسبة للنصوص عن أهل البيت جميعاً سلام الله عليهم ، وسنرى إن شاء الله أن هذه النصوص موزعة على المناسبات المختلفة .

وكما تقدم في الحلقة السابقة بأن النصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت تتميز عن تلك الواردة عن الأنبياء عليهم السلام بأنها تتخذ طابعاً عملياً أكثر وذلك لقربها من زمن وقوع الشهادة الكبرى كذلك من الطبيعي أن النصوص التي وردت عن أمير المؤمنين سلام الله عليه تتخذ طابعاً عملياً أكثر من النصوص التي وردت عن المصطفى

صلى الله عليه وآله وسلم لنفس السبب . لذلك نجد أن الخصوصيات والتفاصيل ، تظهر لأول مرّة ، في أحاديث أمير المؤمنين سلام الله عليه ، ففي أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم حول عاشوراء حديث عام عن عاشوراء وعظمة الإمام الحسين عليه السلام دون الدخول في تفاصيل وتسميات للأشخاص المشاركين وغير ذلك وهذه التسميات والخصوصيات نجدها لأول مرّة في النصوص التي وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام .

وسوف أستعرض جملة نصوص بصرف النظر عن تسلسلها التاريخي ، في كتاب إثبات الهداة ، للحرّ العاملي ، رضوان الله عليه . وفي عداد كرامات أمير المؤمنين سلام الله عليه وإخباره بما سيكون . يذكر الحرّ العاملي نصوصاً كثيرة حول إخبار أمير المؤمنين بالمغيبات ، من جملة ذلك ما يتناول شهادة الإمام الحسين سلام الله عليه ، أحد هذه النصوص يقول : « عن علي عليه السلام أنه قال : كأني بالقصور قد شيّدت حول قبر الحسين بن علي وكأني بالمحامل تخرج من الكوفة ، إلى قبر الحسين عليه السلام ، ولا تذهب الأيام والليالي ، حتى يسار إليه من الآفاق ، وذلك عند انقطاع ملك دولة بني مروان »[1] .

وكما نلاحظ فإن هذا النص يتحدّث عن مزار الإمام الحسين سلام الله عليه في كربلاء والشأن الذي يكون له بعد إنقراض دولة بني أمية . وقبل استشهاد الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام وفي زمن أمير المؤمنين يتمّ التأكيد بأنّ هناك مدينة سوف تزار لأن الإمام الحسين سيستشهد .

هذا النص نفسه يوحي بأن الإمام عليه السلام قد تحدث كثيراً قبل ذلك عن كربلاء بحيث أنه أصبح معروفاً بين الناس استشهاد الإمام الحسين سلام الله عليه وأمير المؤمنين عليه السلام يتحدّث في هذا النص عن خطوة متقدّمة وهي أن هناك مدينة سوف تنشأ هناك مما يشير إلى أن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام أمر مفروغ منه وسيأتي إن شاء الله ما يؤكد لنا هذه الحقيقة .

أيضاً نجد نصّاً عن عبد الله بن عباس يقول : كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في خروجه إلى صفين ، فلما نزل بنينوى ، وهو شط الفرات ، قال

(١) إثبات الهداة للحر العاملي ج ٢/٤٠٩ ـ ٤١٠ .

بـأعلى صـوته : يـا ابن عباس ، أتعـرف هذا المـوضع؟ قلت لـه : ما أعـرفـه يـا أمـير المؤمنين ، فقال : لو عرفته كمعرفتي ، لم تكن تجوزه حتى تبكي كبكائي ، قال : فبكى طويلاً حتى اخضلّت لحيته من الدموع وبكينا معه وهو يقول : أوه ، أوه ، ما لي ولأبي سفيان ، ما لي ولآل حرب حزب الشيطان ، وأولياء الكفر ، صبـراً يا أبا عبد الله ، فقد لقي أبوك مثـل الذي تلقى منهم . . . إلى أن قـال . . . وهذه أرض كرب وبلاء يدفن فيها الحسين وتسعة عشر رجلاً ، كلهم من ولدي ، وولد فاطمة[1]

هذا الحديث هو نفسه الذي تقدّم معنـا في نصوص الأنبيـاء عليهم السلام وقرأت قسماً منه حول كلام عيسى عليه السلام، وأنه مرّ في كربلاء ووجد الـظباء تبكي ، بقية النص أن أمير المؤمنين عليه السلام يأخذ أثراً ، تركه له نبي الله عيسى ويعطيه لابن عباس ، يقول له : اترك هذا معك ، فإذا رأيته يفـور دماً عبيـطاً ، فاعلم أن الحسين استشهد . يقول ابن عباس في بقية النص (موجودة في كتـاب البحار[2] وليست موجودة في إثبات الهداة) : فكنت أحافظ عليه (على الأثـر) أكثر من محافظتي مما افترض الله علي . وكنت أدعه في كمّي ، إلى أن خرج الإمام الحسين سلام الله عليه إلى عاشوراء (كربلاء) فبدأت أتـأمله إلى أن أصبح دمـا عبيطاً وسجلت تاريخه ، فتبينّ فعلاً أنه حصل ذلك في اليوم العاشر من محرّم .

كذلك في زمن أمـير المؤمنين عليـه السلام نجـدّ نصّاً طـريفاً خـلاصته أن شخصـاً في جيش الإمام ، لكنـه ليس من محبيه ، إلا أن زوجتـه من شيعة أمـير المؤمنين عليه السـلام ، يقول هـذا الشخص ، وصلنا إلى نينـوى في طريقنـا إلى صفين ، فصار علي يتحدّث عن تربة كربلاء وأنـه يحشر منها قـوم إلى الجنة بغـير حساب ، فقلت في نفسي ، وما أدراه بالغيب، حتى يتكلم بهذا الكلام .

وعاد الرجل إلى الكوفة فقال لزوجته : « ألا أعجبك من صديقك أبي حسن (يقصـد أمير المؤمنـين عليه السـلام وأخبرهـا مستهزئـاً بما سمـع منه) فقـالت : دعنا منك أيها الرجل ، فإن أمير المؤمنين عليه السـلام لم يقل إلا حقـاً » . . . ودارت

---

(1) إثبات الهداة ٢/٤١٢ .

(2) بحار الأنوارج ٤٤/٢٥٣ .

الأيام . . . إلى أن تولى ابن زياد الكوفة وبدأ يجهز الجيش لحرب الإمـام الحسين عليه السلام فكان صاحب هذه القصة واسمه هرثمة في هذا الجيش الذي يعبر عنه هو بالبعث كما كان متعارفاً آنذاك يقول :

فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين عليه السلام كنت في الخيل التي بعث إليهم ، فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه عرفت المنزل الذي نزلنا فيه مع علي عليه السلام والبقعة التي رفع إليه من تربتها والقول الذي قاله فكرهت مسيري . . .

فـأقبلت على فـرسي حتى وقفت على الحسـين عليه السـلام فسلمت عليـه وحدثته بالذي سمعت من أبيـه في هذا المنـزل ، فقال الحسـين : أمعنا أم علينـا فقلت : يا بن رسول الله (انظروا المنطق الكوفي) لا معك ولا عليك . . . تركت ولدي وعيالي أخاف عليهم من ابن زياد !!

فقال الحسين عليه السلام :

فولِّ هرباً حتى لا ترى مقتلنا (إنه عطف الإمام سلام الله عليه فقد رأى أنه لا يريد الشهادة والجنة . . . فأراد له سيد الشهداء أن لا يكـون من أهل الـدرك الأسفل من النار) فوالذي نفس حسين بيده لا يرى اليوم مقتلنا أحد ثم لا يعيننا إلا دخل النار . . .

قـال (هـرثمـة) : فـأقبلت في الأرض أشتـد هـربـاً ، حتى خفي عـليَّ مقتلهم[1] نفـس الكلام ينطبق ـ ولو بنسبة أقل ـ على من يسمع واعية الإسلام في هذا العصر ولا يجيب .

* نص آخـر عن أمير المؤمـنين عليه السـلام يتضمّن بعض الخصوصيـات والتفاصيل التي أشير إليها في مستهـلّ هذا الفصـل يقول النص : عن سـويد بن غفلة قال : إنا كنّا عند أمير المؤمنين عليـه السلام إذ أتـاه رجل فقـال : يا أمـير المؤمنين : جئتـك من وادي القـرى وقـد مـات خـالـد بن عـرفـطة ، فقـال لـه عليه السلام : مه (يعني أكفف) لم يمت ، فأعادها عليه ، فقال له عليه السلام :

(١) شرح النهج ـ ابن أبي الحديد ١٦٩/٣ ـ ١٧٠ وبحار الأنوار ٢٥٥/٤٤ ـ ٢٥٦ باختلاف يسير .

لم يمت ، والـذي نفسي بيده ، لا يمـوت حتى يقود جيش ضـلالة ، يحمـل رايتـه حبيب بن حمّاد (وفي بعض المصادر : حبيب بن جمّاز) قال : فسمع ذلك حبيب وأتى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : أناشدك الله فيّ ، وإني لك شيعة ، وقـد ذكـرتني بأمـر والله ما أعـرفه في نفسي ، فقـال له عـلي عليـه السـلام : إن كنت حبيب بن حمّاد ، فتحملها ، قال أبو حمزة (الراوي) فوالله ـ ما مـات حتى بُعث عمـر بن سعد إلى الحسـين بن علي عليـه السلام وجعـل على مقـدمته خـالـد بن عرفطة ، وحبيب بن حمّاد ، صاحب رايته[1] .

وهـذا الحديث يـدعونـا حقيقة للخـوف ، فالـرجـل الـذي صرّح الإمـام عليه السلام بأنه يحمل راية الضلال ، لا يصدق بأنه سوف يواجه مثل هذا المصير وهو ينفي إمكانية صدور هذا الفعل منه مستقبلاً . فما هو الضمان لعدم إنحراف أيٍ منّا مستقبلاً ؟

الجـواب : إن الضمان يكـون بحيث لا نترك مَسْربـاً للذنب والمعصيـة إلى نفوسنا ، يمرض قلوبنا ويشوّه فطرتنا ، ويمسخ نفوسنا ، ويجعلنا لا نستحق إلا أن نقف في وجه الإسلام ، فحبيب الذي مرّ معنا ذكره لم يكن يعلم أن تراكم ذنوبه سوف يوصله إلى تلك المرحلة من الإنحراف .

وجدير بنا أن نقف مع أنفسنا ونسألها : هل لنا السابقة الجهادية التي كانت لشبث بن ربعي والشمر وحبيب بن حماد وعمر بن سعد ؟ فهؤلاء في وقت ما وقفوا مع الإسلام وجاهدوا ثم انحرفوا ، إذن التاريخ الجهادي لأي منا لا يشكل ضمانة لآخرته إنما الضمانة هي تقوى الله عزّ وجلّ .

* * *

أيضاً في إطار الخصوصيات التي ذكرها أمـير المؤمنين عليـه السلام بـالنسبة لعاشوراء وكربلاء نجده عليه السلام يتحدّث إلى سعد ، والد عمر بن سعد يقول له : « إن في بيتك لسخلاً يقتل ابن رسول الله ، وكان ابنه صغيراً يحبو »[2] .

(١) إثبات الهداة ٢/٤٣٩ ـ ٤٤٠ وخالد بن عرفطة أحد قادة فتح بلاد فارس ، كما في معجم البلدان « كوفة » .

(٢) المصدر السابق /٤٥٤ .

ونجده عليه السلام يتوجّه إلى أشخاص بخصوصهم فيقول لأحدهم : يا فلان انصر الإمام الحسين ، (إذا أدركته انصره) من هؤلاء البراء بن عازب وله تاريخ طويل في الجهاد ، يقول له الإمام : يا براء يقتل ابني الحسين وأنت حي لا تنصره ؟ فلما قتل الحسين عليه السلام ، كان البراء يقول : صدق علي بن أبي طالب قتل الحسين ولم أنصره ، ويظهر الندم[1] .

* مجموع هذه النصوص وغيرها يضعنا أمام حقيقة واحدة وهي : أن الإخبار بشهادة الإمام الحسين عليه السلام ، كان مستفيضاً ودائماً ، ففي الإسلام كانت شهادة الإمام محوراً أساسياً يتمّ التركيز عليه . . . لماذا ؟

أولاً : باعتبار إقامة الحجة حتى يتضّح للأمة الطريق السليم والصراط المستقيم .

ثانياً : عطف رسول الله ﴿ **حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ . حرصه صلى الله عليه وآله وسلم على الأمة ، حرص أمير المؤمنين عليه السلام على الأمة ، يستدعي تحذير الأمة من جهنم والشيطان ومعاوية ويزيد وخطورة الإقدام على قتل الإمام الحسين عليه السلام . كذلك من خطورة الوقوف على التل . لأن الذين قتلوا الإمام الحسين عليه السلام ليسوا هم من وقف ضدّه يوم عاشوراء بل هم والذين سكتوا ، ومن الضروري جدّاً أن يقف كلّ منّا عند هذه النقطة ، فالوقوف على الحياد يجعل صاحبه في معسكر النفاق أو الكفر حينما تكون المعركة محتدمة بين الحق والباطل ، كذلك يحاسب الإنسان على سكوته ، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، فتكليفٌ جهاديٌ أن نكون مع الحق وليس فقط أن لا نكون مع الباطل ، وبمجرّد أن لا نكون مع الحق فإننا نكون مع الباطل ، وكان التأكيد من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام على شهادة الإمام الحسين ، تأكيداً بمستوى أنه أصبح واضحاً عند المسلمين ، أن الإمام الحسين سيقتل وأن قاتله هو عمر بن سعد .

وهنا نص طريف أيضاً ينقله صاحب إثبات الهداة الحرّ العاملي رضوان الله عليه يقول : روى عبد الله بن شريك العامري قال : كنت أسمع أصحاب علي ،

---

(١) نفس المصدر .

إذا دخل عمر بن سعد من باب المسجد يقولون : هذا قاتل الحسين بن علي عليه السلام ، وذلك قبل أن يقتل بزمان طويل[1] .

ولم تكن المسألة مسألة أفراد قلائل يعلمون بهذه التفاصيل بل أصبحت أموراً شائعة بحيث شكلّت إحراجاً لعمر بن سعد يقول نص في البحار : قال عمر بن سعد للحسين عليه السلام : يا أبا عبد الله إنّ قبلنا ناساً سفهاء يزعمون أني أقتلك . فقال له الحسين عليه السلام : إنهم ليسوا سفهاء ولكنهم حلماء ، أما أنه يقرّ عيني أن لا تأكل برّ العراق بعدي إلا قليلاً[2] .

* ورغم استفاضة الأخبار في شهادة الإمام الحسين نجد أن الأمة لم تقف معه ، والسبب يمكننا أن نبحث عنه في وضعنا الحالي ، فالتاريخ يعيد نفسه ، فهل يشك أحد بأن إسرائيل هي عدو الإسلام والمسلمين ؟ والمارونية السياسية كذلك ، وهل يشك أحد أن الجمهورية الإسلامية في إيران هي دولة الإسلام .

نحن نرى أن معمّمين يؤيدون الهدنة مع إسرائيل ووجود قوات الطوارىء الدولية (وأكثرهم كفرة أو غير مسلمين) ويؤيدون التعايش مع المارونية السياسية ويطلبون من الموارنة قطع العلاقات مع الجمهورية الإسلامية ، ضروري جداً أن نفرّق بين نهج شيعة آل البيت عليهم السلام وبين نهج شيعة آل أبي سفيان ، وهذا التعبير (شيعة آل أبي سفيان للإمام الحسين عليه السلام) الله الله في أنفسنا ، مجرّد أن يقول أحدنا أنا من شيعة أهل البيت لا يكفي ، وإنما ينبغي أن نعرف ، هل نحن من شيعتهم حقاً، هل نحن من أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً ؟ المنافقون يريدون منا أن نترك ديننا وولاءنا يريدون منا أن نصل إلى مرحلة نقف فيها يوم القيامة لا نستحق شفاعة أهل البيت وفي الدنيا لا نستحق دعاءهم ولا نستحق رحمة الله تعالى التي هم مظهرها ، إن الأمر بالنسبة لقتل الإمام الحسين عليه السلام ومظلوميته واستحقاق قاتليه للّعن كان واضحاً كوضوح مظلومية المقاومة الإسلامية اليوم وسلامة نهجها ، فهي التي بيضت وجوهنا أمام الله تعالى وأمام رسوله وأهل بيته ، فضرب المقاومة هو بالتأكيد لمصلحة إسرائيل ، ومع ذلك

---

(١) نفس المصدر / ٤٧٩ .

(٢) البحار ٤٤/٢٦٣ .

نجد كثيراً من الناس يقولون نحن لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، « ما لنا وللدخول بين السلاطين » ، منطق أهل الكوفة يتجدّد ، الله الله في أنفسنا لا نلقي بها في الجحيم . إننا بأمس الحاجة لأن نبقى جسماً واحداً ويداً واحدة ولا يصح أن نسمح للكافرين والمنافقين بتمزيقنا . . .

* وفي سياق الحديث عن النصوص الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام بخصوص كربلاء فإننا نلاحظ ذكر الإمام أكثر من مرّة لتربة كربلاء « واهاً لك أيتها التربة وغير ذلك » ولو أن باب الحديث عن التربة الحسينية باب مهم وطريف وكما يعبر « طويل الذيل » ولكن أقتصر على ذكر بعض مميزات وفضائل هذه التربة المباركة .

إن تربة كربلاء لها من الأهمية بحيث أن الروايات تقارن بين مكة وكربلاء وقد يستغرب هذا الأمر ولكن إذا عرفنا أن المؤمن العادي هو أعظم حرمة من الكعبة وأن المقارنة هي بين كربلاء التي تضمّ سبط المصطفى وسيد الشهداء والذي رفعت درجة إبراهيم النبي بحمل همّه والبكاء عليه (كما مرّ معنا) يزول الإستغراب . وتربة كربلاء قد زارها الأنبياء عليهم السلام اهتماماً بشهادته فيها قبل الإستشهاد وهم يزورونها بعد الإستشهاد كما في بعض الروايات ، تربة احتضنت الحادث الإسلامي الجهادي الإستشهادي الأبرز في مقام التقرّب إلى الله عزّ وجلّ ، وإنما قلت الإستشهادي لأن هناك أحداثاً جهادية لم يستشهد فيها معصوم .

كذلك هناك تأكيد في الروايات على التداوي بتربة سيد الشهداء عليه السلام والسجود عليها وأن يتخذ المؤمن سبحة من تربة سيد الشهداء وميزة هذه السبحة أن الإنسان المؤمن لو نسي أن يسبّح أو انشغل عن التسبيح وأدارها في يده يكتب له ثواب التسبيح ، وورد استحباب وضع شيء من التربة الحسينية مع الميت في قبره فإنها تدفع عذاب منكر ونكير وهول القبر وما شابه . وتحمل في الملمات والشدائد للسلامة ، كذلك ما ورد من استحباب المشي إلى هذه التربة وزيارة سيد الشهداء عليه السلام ، وأود التأكيد هنا على من يشكو من مشكلة معينة ومرض بشكل خاص أن يسارع إلى التداوي بالتربة الحسينية ويكون لسان حاله ـ سيدي أبا عبد الله أنا أسمع عن تربتك ولا أستحق الإستشفاء بها ولكني

سائل وقف ببابك وأريد أن أستعمل التربة بالطريقة التي يذكرها العلماء[1] ، وأفضل أنواع التربة التي يتداوى بها هو التربة الخاصة التي تؤخذ من قرب ضريح الإمام عليه السلام ، ومن مميزاتها أنها في اليوم العاشر من محرّم تتحوّل إلى دم ثم تعود إلى وضعها السابق .

وهناك قصص موثقة صحيحة في هذا المجال منها قصتان أوردهما الشهيد دستغيب رضوان الله عليه في « القصص العجيبة » خلاصة إحداهما : أن الحاج « مؤمن » وهو شخص من أهل الورع والزهد يعرفه الشهيد جيداً وينقل عنه بعض القصص المريبة والعجيبة . . . حدث الشهيد دستغيب بأن امرأة صالحة أخبرته أن عندها كمية قليلة جداً من تربة سيد الشهداء الأصلية ، الخاصة ، وأن هذه التربة تصبح في يوم عاشوراء حمراء بلون الدم . . .

يقول الحاج مؤمن وأردت أن أرى ذلك بنفسي فذهبت إليها في يوم عاشوراء فأحضرت كفنها وكانت قد وضعت التربة الحسينية فيه . فشاهدت أثر الدم في الكفن ورأيت التربة المباركة فعلاً حمراء بلون الدم . . . وأكثر من ذلك رأيتها تهتز . . .

هالني ما رأيت . . . وتجسمت مصيبة سيد الشهداء عليه السلام أمامي . . . فذهلت عن نفسي[2] .

---

(١) راجع مثلاً مفاتيح الجنان « آداب تربة الحسين المقدسة » /٤٧٤ .

(٢) داستانهاي شكفت/ ١٢٣ .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



* من هم أهل الكوفة ؟

هناك نقاط كان من المفترض الوقوف عندها قبل التعرّف على خصائص المجتمع الكوفي ، من هذه النقاط :

أولاً : عاشوراء عند الزهراء وسائر الأئمة عليهم السلام غير أمير المؤمنين عليه السلام .

ثانياً : الملائكة بكاؤهم على الإمام ، زيارتهم له .

ثالثاً : عاشوراء عند الجن، فكما نعلم هناك من الجن مؤمنون وسورة الجن في القرآن الكريم واضحة في هذا المجال .

كذلك عند الحيوانات ، وموقف (إن صح التعبير) الجماد من عاشوراء أيضاً البكاء على الحسين والتباكي وإنشاد الشعر وغير ذلك ، ولكن حيث أننا نواجه هجمة الكفر والنفاق على جنود الإمام الحسين عليه السلام مما يجعلنا نعيش تجربة

كوفية معاصرة ، وتجربة كربلائية معاصرة تجربة يزيدية وتجربة حسينية ، كان لا بد من تأجيل هذه النقاط إلى إشعار آخر ليصل الحديث إلى المجتمع الكوفي وخصائصه لأن هذا ينفعنا مباشرة في أوضاعنا الراهنة . وكان لا بد من التعرّف على أهل الكوفة لتكوين صورة واضحة عن عوامل إنحرافهم ومدى ارتباط ذلك بتاريخهم .

الواقع عندما يعود أحدنا إلى نفسه ويسألها ، ما هي الصورة التي أحملها عن أهل الكوفة ؟ يجد الجواب ، أن أهل الكوفة أناس كانوا من البداية منحرفين وكانوا من البداية يحملون قلوباً قاسية لا تخشع لذكر الله تعالى ، باعتبار أن أحدنا لم يسمع عن أهل الكوفة هؤلاء إلا مواقفهم المتخاذلة ، في زمن أمير المؤمنين والإمام الحسن عليهما السلام ثم منذ دخول مسلم بن عقيل رضي الله عنه إلى الكوفة وكذلك مواقفهم في كربلاء وما بعد كربلاء (حمل الرأس إلى الشام وما شابه) ، يكّون أحدنا فكرة عن أهل الكوفة أنهم كانوا منذ البداية كذلك ، إلا أن الواقع أنهم كانوا في البداية طليعة العمل الإسلامي ثم انحرفوا ، أيضاً هناك سبب آخر يجعلنا نقف عند السؤال عن أهل الكوفة وهو مرتبط بالسبب المتقدّم : من السهل أن ألعن شمراً ويجب لعنه ، ولكن من الصعب أن اكتشف مواطن الإشتراك بيني وبين الشمر ، من السهل أن ألعن شبث بن ربعي ويجب لعنه ولكن من الصعب أن أكتشف مواطن الإشتراك بيني وبينه ، كذلك شريح القاضي ، كذلك اي كوفي ، النفس ميالة إلى تبرئة صاحبها ونفسها إن صحّ التعبير ، عندما ننظر في التاريخ نجد أن أهل الكوفة ـ كما أشرت ـ كانوا طليعة المجتمع الإسلامي إلا أنهم انحرفوا وأصبحوا أهل الكوفة الذين يضرب بهم المثل في الإنحراف والتنكّر للدين ولله ولرسوله وأهل البيت . . .

من خاض حروب الفتح الإسلامي ؟ ومن خاض حروب الجمل والنهروان وصفين مع أمير المؤمنين عليه السلام ؟ شبث بن ربعي كان طليعياً في حروب الفتح نجد أنه يتحدّث عن مسلم بن عوسجة في ساحة المعركة في كربلاء فيقول عن مسلم : « لقد رأيته يوم آذربيجان وقد قتل ستّة من المشركين قبل تتّام خيول المسلمين[1] » ومعنى ذلك أن شبث بن ربعي كان في طليعة المجاهدين في فتح

---

(١) مقتل الحسين أو حديث كربلاء للسيد عبد الرزاق الموسوي المقرم / ٢٤١ .

آذربيجان ، أو نجد نصّاً أن الشمر كان من فرسان صفين، يحارب تحت راية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[1] . إذن . . . هم شاركوا في الحروب وكان لهم ماض جهادي حافل ولهذا فإن الوقفة مع أهل الكوفة لمعرفتهم ضرورية جدّاً .

لا يمكن أن نتجنّب مزالق الإيمان الكوفي إذا لم نعرف حقيقة أهل الكوفة ، عندما يكّون أحدنا فكرة أن الشمر منذ البداية كان شمراً الذي نعرفه الآن فإن ذلك يوقعه في الخطأ ويحرمه من استخلاص العبر ، الصورة التي تنفعنا هي أنه قد يكون الشخص مجاهداً مستقيماً كما كان الزبير إلا أنه نتيجة تراكم الذنوب والمعاصي ينحرف . هذه الصورة تنفعنا أكثر لأن أحدنا قد ينظر إلى نفسه بعين الرضا فيقول وضعي مستقيم وسليم ، ويدخل الشيطان على الخط لتكون النتيجة أني لن أنحرف . أما عندما ننظر إلى تاريخ أهل الكوفة السابق وندرك أنهم كانوا في جوّ يختلف عن جوّهم الذي آل أمرهم إليه صحيح أن المقوّمات للإنحراف كانت موجودة ، إلا أنها لم تكن طافية على السطح . وهذا الكلام لا يعني تبرئة ساحة أحد من الكوفيين وكما قلت: فإن لعنهم والتبرؤ منهم واجبان، وإنما المراد أن الزبير مثلاً الذي شهد أمير المؤمنين عليه السلام بتاريخه الجهادي سابقاً وينصّ الإمام الصادق عليه السلام أنّه « مشّى بضوء الإسلام ونوره »[2] ثم كان منه ما كان ، كثير من أهل الكوفة يشبهون الزبير كيف نستفيد من هذه النقطة لوضعنا الحاضر ؟

نحن الآن تخيّم علينا أجواء تريد أن تسرق جهادنا وديننا وتحوّل إيماننا من إيمان كربلائي بدري مجاهد إلى إيمان كوفي مسالم ، لذلك ينبغي أن نقف طويلاً عند أحداث الكوفة ، ومواقف الكوفيين في ساحة المعركة وبعدها ، لكي نتجنّب الآن المصير الكوفي . لنصل إلى معرفة الكوفيين إلى درجة بحيث إذا قيل لأي شخص أن هذا الشيخ الذي يتآمر على الإسلام هو يشبه شريح القاضي ، يفهم هذا الشخص المسألة إلى الأخير ، أو إذا قيل : إن هذا الشخص يريد أن يبيعنا ليزيد بن عبد العزيز في الحجاز ، أو إلى أي طاغية ، يدرك الناس المسألة إلى آخرها ، إننا نمتلك تجربة كربلائية وتجربة سلبية كوفية . لهذا كان لا بد من معرفة أهل الكوفة بشيء من التفصيل . . .

---

(١) نفس المصدر /٢٠٧ عن « وقعة صفين » لنصر بن مزاحم ٣٠٣ .

(٢) تفسير نور الثقلين ج ١ /٧٥١ .

*** متى تأسست الكوفة وكيف ؟**

إنّ الحديث عن تأسيس مدينة الكوفة مهمّ جداً ، باعتبار أن النظرة التي ذكرت عن أهل الكوفة والتي تصورهم لنا بشكل سلبي منذ البداية لا تلتفت إلى تاريخ أهل الكوفة .

الكوفة مصّرت (أي أصبحت مصراً وبلداً) سنة ١٧ هـ أو ١٨ أو ١٩ أي في صدر الإسلام ، ويتحدّث نص في معجم البلدان عن كيفية تأسيس مدينة الكوفة فيقول: «لما فرغ سعد بن أبي وقاص من وقعة رستم بالقادسية ، نزل هو ومن معه كربلاء»[١] ثم يبين النص أن عمر طلب منه أن ينتقل ، فسأل الناس ، فأرشدوه إلى الكوفة ، نزل ومن معه في الكوفة وكان معه عدد كبير من الناس ، يدل على كثرة من كان معه قول عمر له «ان اختط موضع المسجد الجامع على عدّة مقاتلتكم » فخطّ على أربعين ألف إنسان ، فلما قدم زياد زاد فيه عشرين ألف إنسان ونفهم من هذا النص أن أهل الكوفة كانوا مجاهدي الإسلام الأوائل والذابين عن حياض الإسلام ، الذين خاضوا معركة القادسية . . .

*** متى انتقل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى الكوفة ؟**

انتقل الإمام سلام الله عليه إلى مدينة الكوفة في بداية تسلّمه للخلافة ، وانتقالُه للكوفة واتخاذُها مقرّاً له يؤيد ما أنا بصدده ، فطبيعي عندما يرى أمير المؤمنين وضع العالم الإسلامي المضطرب ويريد أن يزيل ذلك الإضطراب أن يجعل مقرّه في مركز الثقل في العالم الإسلامي آنذاك ، مع الجيش ، ولعل في النص التالي عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يوضح كيف كانت الكوفة . . . وكيف كان أهلها . . . يقول عليه السلام : الكوفة كنز الإيمان وحجّة الإسلام ، وسيف الله ورمحه ، يضعه حيث شاء والذي نفسي بيده لينتصرّن الله بأهلها في شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز[٢] .

«الكوفة سيف الله ورمحه» ، يؤكد حقيقة أنها كانت دار الجند ومقرّ الجيش الإسلامي . ولعله يكشف لنا عن بعض أسباب انتقال المولى علي سلام الله عليه

---

(١) معجم البلدان ٤٩١/٤ .
(٢) نفس المصدر /٤٩٢ .

إلى الكوفة ، بمجرّد أن تسلّم الخلافة .

وهنا يأتي السؤال ، كيف نفهم التغيّر في مواقف أهل الكوفة مع أنهم تتلمذوا على يدي أمير المؤمنين عليه السلام ؟

أما مسألة التغيّر فلا بد من وقفة طويلة معها (في الحلقة التالية) وأما مسألة التتلمذ على يدي أمير المؤمنين عليه السلام فهي ضرورية ومهمة ينبغي أن نقف عندها بعض الشيء ، من منا أتيح له أن يتتلمذ على يد معصوم ؟ من منا أتيح له أن يعيش مع أمير المؤمنين مع الإمام الحسن مع الإمام الحسين عليهم السلام ؟ مَنْ من نسائنا أتيح لها أن تدرس عند زينب ؟

المجتمع الكوفي أُتيح له من التربية الإيمانية ما يندر أن يتاح لمجتمع بعد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، مع ذلك نجد أن مواقفهم كانت في النتيجة مواقف غاية في الإنحراف ، هذا يضعنا أمام مسألة سوء العاقبة التي لنا عودة إليها بإذن الله تعالى ، عند الحديث عن أسباب إنحراف أهل الكوفة . أهل الكوفة لم يتتلمذوا على الإمام علي عليه السلام من خلال توجيهاته ومواعظه بل أيضاً كانت أمامهم قدوة ، والدرس العملي أبلغ أثراً من الدرس النظري ، كان يرى أهل الكوفة أثاث بيت علي سلام الله عليه هناك نص يقول أنه بعد توليه الخلافة لم يكن في بيته من الأثاث إلا الشيء اليسير[1] ، أو هناك نص آخر يقول أنه كان يشتري الثوبين فيعطي أفضلهما لقنبر، يقول له قنبر: أنت الخليفة يا أمير المؤمنين فيقول له : أنت شاب . أو عن طعامه ، نجد نصاً أنه كان يأكل خبز الشعير الذي لم ينخل ، وشطارة النخالة تظهر في الخبز فيقول أحد أصحابه لفضّة : ألا نخلت هذا الدقيق للشيخ[2] ، فقال عليه السلام : أنا أمرتهم بذلك . بالإضافة إلى دروس نهج البلاغة الذي يهزّ البشرية الآن ، أهل الكوفة سمعوه مباشرة من أمير المؤمنين سلام الله عليه أو قسماً كبيراً منه على الأقل . طالما رأى أهل الكوفة أمير المؤمنين عليه السلام يدخل سوق الكوفة ويعظ الناس ، كان من جملة أساليبه عليه السلام أنه يمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ : ﴿**تلك الدار الآخرة**

---

(١) إرشاد القلوب /١٥٧ .

(٢) آداب النفس /١٨٩ .

نجعلها للذين لا يريدون علّواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين ﴾[1] طالما سمع أهل الكوفة صوت علي يرتفع بعد صلاة العشاء الآخرة عندما يأوي الناس إلى فرشهم يقف في مسجد الكوفة وينادي بأعلى صوته : « تجهزّوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل وأقلّوا العرجة على الدنيا ، واعلموا أن أمامكم عقبة كوؤداً ومنازل مخوفة مهولة لا بد من الورود عليها والوقوف عندها »[2] .

هذه المدرسة العلوية كان إلى جانبها مدرسة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام ، ومدرسة السيدة زينب وأبي الفضل العباس ومدرسة العظماء من أصحاب أمير المؤمنين ، ومع ذلك نجد أن أهل الكوفة وقفوا هذه المواقف . . .

إن الهدف من التأكيد على هذه النقاط هو أن لا يطمئن الإنسان إلى أنه حتماً سيكون عند الموت مؤمناً تقياً ورعاً لأن تراكم الذنوب لا يعرف إلى أين يوصل صاحبه .

ومن جهة أخرى يجعل هذا أحدنا يحذر الإنزلاق في مهاوي الشيطان ولا يعتبر أنه حتماً فوق الغربال ولن يسقط منه . . .

اللهم ارزقنا حسن العاقبة برحمتك يا أرحم الراحمين .

* * *

---

(١) تفسير نور الثقلين ٤/١٤٤ .

(٢) البحارج ٧١/٢٦٣ والنهج ، خ ، ٢٠٤ .



*** جند علي ... قتلة الحسين :**

* هناك رأي يقول بأن أهل الكوفة كـان أكـثرهم في السجن حـين واقعـة كربلاء ، إلا أن هذا الرأي لا يـبرّر لأهل الكـوفة مـواقفهم ، وقد يكـون معقولاً أن عدداً كبيراً منهم كان في السجن فقد تقدّم أن المسجـد في الكوفـة كان يتّسـع في زمن زيـاد بن أبيه لحـوالي ستين ألف مقـاتلاً ، فكم ألف ذهبـوا إلى كـربـلاء ؟ نجـد في الروايات أنهم كانوا حوالي الثلاثـين ألفاً ، إذن فهنـاك عـدد كبـير من المقـاتلين غـير موجودين ، لذلك من المحتمل أن يكونـوا بالسجن وخصوصاً أن الرأي القائل بوجود قسم من أهل الكوفة في السجن يذكر بأنهم كانوا بأعداد كبيرة .

إذن عرض المسألة بهذا الشكل يجعل الإنسـان يتصور أنـه فعلاً يمكن أن يكـون أهل الكوفة مظلومين ، على الأقل نصفهم مؤمنون والنصف الآخر غير مؤمنين ، فـلا

تعود القضيّة قضية « أهل الكوفة » خصوصاً إذا لاحظنا أنهم بعد عهد زياد كانوا أكثر عدداً فيجب أن يكون في كربلاء أكثر من ستين ألف مقاتلاً .

لكن في المقابل هناك عدّة نقاط ينبغي الوقوف عندها :

* **أولاً** : كم هو عدد الذين بايعوا مسلم بن عقيل ؟ على بعض الروايات عددهم خمس وعشرون ألفاً فأين بقيّة الستين ألفاً ؟ هذا قبل مجيء ابن زياد وفرضه للجو الإرهابي وهؤلاء الخمس والعشرون منهم من شارك في قتل الإمام بدليل خطاب الإمام الحسين سلام الله عليه لشبث بن ربعي : هذه كتبكم .

* **ثانياً** : إن مسلم بقي في الكوفة وحيداً ، لا يعرف الطريق حتى دخل إلى بيت طوعة ، فقبل اشتداد الأمر وأثناء محاصرة ابن زياد في القصر تفرّق عنه أهل الكوفة وتركوه وحيداً .

* **ثالثاً**: رغم إعلان حالة الأحكام العرفية ـ كما يعبّر الآن ـ أي حصار الكوفة ووجود الحواجز على السكك المؤدية إليها . رغم ذلك كان الخروج من الكوفة للإلتحاق بالإمام الحسين ممكناً ، لأن هناك عدداً من أهل الكوفة الذين وقفوا موقفاً كربلائياً استطاعوا الإلتحاق بالإمام رغم الحصار وكمثل على ذلك أحد أصحاب الإمام حمل على خمسمائة فارس وفرّقهم ومضى مسرعاً نحو كربلاء[1] إلى الإمام الحسين سلام الله عليه . فهذا الشخص منذ البداية بل في اللوح المحفوظ اسمه مع شهداء كربلاء ومن غير المعقول أن لا يلتحق بهم .

* **رابعاً** : نجد أن بعض الناس الذين رأوا الإمام الحسين عليه السلام ووصلوا إليه في كربلاء كنافع بن هلال الجملي ومعه ثلاثة من أصحابه أحدهم يدعى الطرّماح . هذا الشخص « الطرماح » يستأذن الإمام من كربلاء ليذهب إلى الكوفة مع أن النص لا يشير إلى أنّه سيذهب إلى الكوفة ولكن يظهر من النص أن قدومه كان من الكوفة فاستأذن ليوصل بعض الأغراض إلى أهله هناك ويرجع كما يقول النص . فذهب ورجع لكنه وصل بعد استشهاد الإمام ولم يوفق للشهادة بين يديه[2] .

---

(١) مقتل الحسين للمقرم /١٩٩ واسمه عامر بن أبي سلامة .

(٢) نفس المصدر /١٨٦ .

ماذا يقول الطرّماح للإمام الحسين عليه السلام قبل المعركة وقبل أن يستأذن للذهاب والعودة يقول للإمام : « فأنشدك الله أن لا تقدم عليهم (على أهل الكوفة) ، فإني لا أرى معك أحداً »[1] وهكذا الكلام من الطرماح يعني أن الجو العام في الكوفة كان متخاذلاً ، يدل على ذلك بوضوح ما قاله الأربعة الملتحقون بالإمام الحسين عليه السلام الذين كان « الطرماح » هذا أحدهم فقد قالوا للإمام عليه السلام : إن الأشراف عظمت رشوتهم وقلوب سائر الناس معك وسيوفهم عليك[2] . وقصّة أن منهم من كان في السجن أمر طبيعي ، لكن بعيد ، إن الذين كانوا بالسجن عددهم بحيث يستطيع صاحب هذا الرأي تبرئة نصف أهل الكوفة . ولا يعني أن كل من كان في السجن مخلص للإمام فربما يكون بعض الناس من المذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومع ذلك يخاف منه ابن زياد فيودعه السجن .

إذن أهل الكوفة رغم التاريخ الجهادي ورغم التربية الإيمانية وتتلمذهم على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت وقفوا هذه المواقف المتخاذلة ضد الإمام الحسين عليه السلام ، هذه الحقيقة مرعبة تجعل أحدنا يفكر في نفسه . يرى نفسه الآن كربلائياً ، هل سيستمّر كذلك ، يرى نفسه مجاهداً فهل سيخرج من الدنيا مؤمناً أم أنه لا سمح الله سينحرف ؟ ولماذا يكون الإنحراف ؟

الجواب : من المهم جداً أن يقترن الحديث عن عاشوراء وعن كربلاء وعن الكوفة وأهلها بالوضع الذي نعيشه ، لأن ذلك يمكننا من فهم التاريخ بشكل أفضل ويمكننا من فهم حقائق الإيمان بشكل أفضل فرق كبير بين أن نقرأ التاريخ ونحلّله ونحن لا نرى نماذجه أمامنا وبين أن تكون كربلاء موجودة ويكون ابن زياد وابن سعد وأضرابهما موجودين وبين أن لا يكون شيء من ذلك .

أهل الكوفة تحولّت مواقفهم لأن قلوبهم تحولت ﴿ **إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ ، الله عزَّ وجلّ عندما ينعم بنعمة لا يسلبها دون مبرر ، عندما منّ الله على أهل الكوفة بنعمة نصرة الإسلام حملوا الإسلام وجاهدوا في سبيله ، ثم سلبهم هذه النعمة وخذلهم ووصل هؤلاء الكوفيون إلى مرحلة أنهم

---

(١) (٢) نفس المصدر .

أصبحوا لا يستحقون غير الوقوف ضدّ الله ورسوله وأهل البيت ، يذبحون الإمام الحسين عليه السلام ويا لسوء العاقبة .

هذا الأمر هو نفسه قانون الإستبدال الذي يحدثنا عنه القرآن الكريم يقول تعالى : ﴿ **وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ (محمد /٣٨) فما هو مبرّر الإستبدال؟ وهل له علاقة بترك الجهاد أو لا؟ الجواب نجده في كتاب الله أيضاً يقول تعالى : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوما غيركم** ﴾ (التوبة /٣٩) وفي الآية المباركة الأولى وإن تتولوا وفي الآية الثانية إلا تنفروا وكأن التولي يكون بترك الجهاد ، فقانون الإستبدال جرى على أهل الكوفة ، حتى كان من أمرهم ما كان .

ولا شك أن استبدال أهل الكوفة حصل قبل كربلاء ، أصلا الإيمان الكوفي إذا أردنا أن نبحث عن مصاديقه نجده في النهروان بشكل واضح بل نجده ظاهراً في صفّين بشكل واضح ـ أمير المؤمنين سلام الله عليه عانى كثيراً من أهل الكوفة قبل صفين ، ونهج البلاغة يحتضن النصوص الكثيرة ، من ذلك « ملأتم قلبي قيحاً » « اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني . . . » «لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم » وكان يحثهم عليه السلام على الجهاد صيفاً فيتذرعون بشدة الحر وشتاء فيحتجّون بالبرد وعندما كان يعظهم ويحثهم على الجهاد ينزل عن المنبر فيجدهم حلقات حلقات ولا كأن شيئاً كان ، في صفين وقف أمير المؤمنين عليه السلام على مفترق طريقين ، إما أن يوقف الحرب في صفين وإما أن ينتقل أهل الكوفة والعراقيون إلى معسكر معاوية ، ولذلك أصبح غاية ما يمكن أن ينقذ الإمام سلام الله عليه الموقف به أن يوقف الحرب ويبقى هناك معسكران ولو في الظاهر حتى لا تكون نتيجة حرب صفين أن الأمة توحدّت مع معاوية ، فمواقف أهل الكوفة قبل كربلاء كانت مواقف خطيرة وتشير إلى الإستبدال إلا أن ما فعلوه في كربلاء هو حضيض متناهٍ في الإسفاف لم يصلوا إليه قبل ذلك . لذلك يمكن أن نرى الإستبدال واضحاً في أحداث كربلاء .

* نموذج من الذين استبدلوا في التاريخ بنو إسرائيل الذين كانوا في وقت ما طليعة العمل في سبيل الله ، طليعة العباد الزهّاد ، المجاهدين ، وقد مدحهم الله تعالى باعتبار أنهم كانوا هم المسلمين (بالمعنى العام للإسلام) وكانوا هم المؤمنين ،

عندما نرجع إلى نصوصنا الآن نجد الأحاديث الكثيرة عن عُبَّاد بني إسرائيل ، العابد لا يستطيع أن لا ينظر في قصص عبّاد بني إسرائيل ، من يريد أن يعرف زهد الأنبياء والأولياء لا بد وأن يقرأ عن زهد عباد بني إسرائيل ، ثم استبدلوا بالعرب ، نزل القرآن على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا بد وأن يكون الإستبدال بطرف آخر .

أهل الكوفة لا يمكن القول بضرس قاطع ـ كما يعبّر ـ بمن استبدلوا ، ولكننا نلاحظ أنه في عصر الأئمة من بعد الإمام السجاد عليهم السلام برز أهل خراسان ، فنجد أن شخصاً يأتي من خراسان ويقول للإمام الصادق عليه السلام : إن لك مئة ألف سيف ، فلماذا لا تخرج[1] ، النص طويل محل الشاهد منه هذا المقدار فبشكل عام صارت خراسان مركزاً لأهل البيت عليهم السلام ، فيمكن القول من باب الإحتمال بأن الكوفة استبدلت بخراسان ، وهذا الإستبدال له علاقة مؤكدة باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام كذلك المواقف السابقة . ومن الضروري التأكيد هنا على أن « أهل الكوفة » لم يشملهم قانون الإستبدال وحدهم . . . وإنما أتحدث عنهم باعتبار أنهم كانوا طليعة العمل الإسلامي في وقت ما ثم استبدلوا . . . وتبعاً لهم حصل الإستبدال العام . . .

ففي الروايات حديث عن استبدال العرب بالعجم . . . قوم سلمان الفارسي رضي الله عنه ، جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم** . . . ﴾ .

« كان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضرب عليه السلام يده على فخذ سلمان فقال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس »[2] ونجد في نص عن الإمام الصادق تصريحه بوقوع الإستبدال ، يقول عليه السلام :

قد والله أبدل خيراً منهم ، الموالي[3] . ولا يعني الحديث عن الإستبدال بأنه في نفس الوقت الذي تنحرف فيه جهة معينة مسلمة تصعد مباشرة جهة أخرى

---

(١) بحار الأنوار ٤٧/١٢٣ والقلب السليم ج ٣٠٨/١ .

(٢) (٣) تفسير نور الثقلين ٥/٤٦ .

لتحلّ محلها في حمل لواء الدين بل إن ذلك يكون بشكل تدريجي ومتقابل .

ونجد في القرآن الكريم والروايات شواهد لقانون الإستبدال على مستوى الفرد كما هو على مستوى الأمة ، فنقرأ مثلاً قوله تعالى : **﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السؤاى إن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴾** (الروم / ١٠) وعندما نرجع إلى التفسير نجد أن الذين يرتكبون المعاصي تكون نتيجة معاصيهم إنهم يكفرون ، فمن الممكن أن يكون شخص متدين مؤمن لكن هناك مسرباً للذنب إلى نفسه هذا المسرب يجعل الشخص مبتلى بالمعصية ، وذنبٌ إثر ذنب يوصل هذا الشخص إلى مرحلة الكفر ، فإذا وصل إلى هذه المرحلة يكون الله تعالى قد استبدل به غيره ، وورد في الدعاء « ولا تستبدل بي غيري » .

وفي الروايات ما يوضح مسألة الإستبدال ، خصوصاً ما في أصول الكافي في باب المعارين ، الذين يعارون الإيمان ثم يسلبونه ، نجد الإمام الصادق عليه السلام حول قوله تعالى : **﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾** (الأنعام /٩٨) يتحدّث الإمام عليه السلام عن الإيمان المستقرّ والإيمان المستودع ، عن القلب الذي يكون مستقراً للإيمان وعن القلب الذي يكون مستودعاً للإيمان وحول هذه الآية يذكّر النص الذي تقدم سابقاً عن الزبير « ولقد مشى الزبير بضوء الإسلام ونوره حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فخرج على الناس شاهراً سيفه لا نبايع إلا علياً »[1] ثم كان من أمره ما كان فهناك قلوب لا تكون مستقرّاً للإيمان وإنما يكون الإيمان مودعاً فيها ، سرعان ما يزول عنها ويحصل الإستبدال ، ولا يعني ذلك أن من كان إيمانه مستودعاً فذلك مفروض عليه وإنما الروايات واضحة وصريحة بأن الذي يكون إيمانه مستودعاً إذا أصرّ وصدق واجتنب المعاصي يصبح إيمانه مستقِراً ، ويصبح قلبه مستقَراً للإيمان .

إن السبب الذي جعل أهل الكوفة يصيبهم ما أصابهم من الإنحراف حتى شملهم قانون الإستبدال هو نفس السبب الذي يوصل الفرد والمجتمع إلى استحقاق الخذلان الإلهي وسلب التوفيق ، السبب هو الذنب والمعصية ، ومسألة

---

(١) تفسير نور الثقلين ٢ /٧٥١ .

الذنب ينبغي الوقوف عندها كثيراً لأن الذي يدير الكون ويحكمه هو الله عزَّ وجلّ ولا حاكم غيره ـ لا حول ولا قوّة إلا به ـ وكل ما في الأمر أن الله تعالى يدير الكون على أساس الطاعة والمعصية ، عندما تهلك أمة تهلك بالذنوب وعندما يهلك شخص يهلك بالذنوب عندما يبتر عمر شخص فلقطيعة الرحم وما شابه . . . عندما يصل شخص كان عابداً إلى درجة يستحق فيها سلب الإيمان ، السبب هو الذنب ، في بعض الروايات في أصول الكافي « أما أنه ليس من عِرق يضرب ولا نكبة ولا صراع ولا مرض إلا بذنب »[1] وفي رواية أخرى : « ما من سنة أقل مطراً من سنة ، ولكن الله يضعه حيث يشاء ، إن الله عزَّ وجلّ إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدَّر لهم من المطر في تلك السنة إلى غيرهم وإلى الفيافي والبحار والجبال . . .[2] .

الذنب على مستوى الأمة هو السبب في التدمير والإهلاك وهو السبب أيضاً في الإستبدال ، وقد يكون الإستبدال أشدّ من الإهلاك ، لأن الله تعالى يريد لهؤلاء القوم أن يملئ لهم ليتمادوا في معصيتهم ويستحّقوا العذاب أكثر .

على مستوى الفرد الذنب هو السبب أيضاً في الإستبدال ، والروايات واضحة في أن الذنب يسوّد القلب « ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء (أي نقطة) فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه (صاحب القلب) إلى خير أبداً ، وهو قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ »[3] .

والإنسان لا ينجو من خطر الذنب إلا إذا كان قد قرّر أن لا يرتكب أي ذنب يقرر ذلك ويبذل جهده إلا أنه قد يقع في المعصية دون سابق عمد وإصرار . . . أما إذا كان هناك ذنب واحد لم يقرر تركه وهو يقع فيه عن سابق إصرار فإن هذا الذنب قد يكون سبباً لسوء عاقبته حيث تراكم ذنوبه فتقيده إلى حيث يصبح يرى الحق ويعرفه لكنه لا يقدر أن ينصره ، أو يلتزم به ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في

---

(١) (٢) أصول الكافي ـ باب الذنوب ٢/ ٢٦٨ .

٤٢) نفس المصدر .

حياتنا عندما تعرض على الإنسان حالات ينـدفع فيهـا لفعل مستحب معـين وفي حالات أخرى يريد فعل هذا المستحب لكنه لا يستطيع ذلك وقد يستغرب البعض أن تكون للذنوب علاقة بهذه المسألة ولكن الروايات تؤكد هذا المعنى : إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم[1] .

وحول مسألة أن الذنب يقيد صاحبه نجد أن شخصاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً : « إني قد حرمت الصلاة بالليل » .

فيقول له الإمام عليه السلام : « أنت رجل قد قيدتك ذنوبـك »[2] وحتى يكون الشاهد كوفيـاً أذكر بعض مـواقف شبث بن ربعي لندرك أن أسـاس تغيير النعم . . . هو الذنب .

شبث هذا كان يملك وعياً سياسياً ، حيث نجده في ساحة المعركة في كربلاء يقـول : « قاتلنـا مع عـلي بن أبي طالب ومـع ابنه من بعـده (أي الإمام الحسن عليه السلام) آل أبي سفيان خمس سنين ، ثم عدونا على ولده (أي الإمام الحسين عليه السلام) وهو خير أهل الأرض نقاتله مـع آل معاويـة وابن سميّة الـزانية ، ضلال يا لك من ضلال ، والله لا يعطي الله أهل هذا المصر خيراً أبداً ولا يسددّهم لرشد[3] » فهذا الشخص لم يكن ينقصه الوعي السياسي ، كما نجد بـوضوح من خلال هذا النص ، بل يبلغ وعيه السياسي إلى حد استشراف المستقبـل السياسي لأهل الكوفة ، فهو يعرف جيداً من يقاتل ومع من يقف حتى أنه كـان كارهـاً للمعركة كما في بعض الروايات ولم يكن جباناً لأنه كان يقود ألف مقاتل وتاريخه كان جهادياً كما تقدم ، ومع ذلك لم يستطع نصرة الإمام الحسين عليه السلام وإنما وقف ضده وفي بعض النصوص أنّه ممّن حملوا الرأس الشريف إلى الشام[4] . وهذا يعني أن حدثاً جسيماً بحجم شهادة الإمام الحسين عليه السلام لم يحمله على تغيير موقفه رغم كل « وعيه » السياسي .

---

(١) ميزان الحكمة ٥/٤٢١ .

(٢) (٣) مقتل الحسين للمقرم ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٤) مقتل الحسين للمقرم /٣٤٥ .

* نموذج آخر للتقييد بالذنب هو عبيد الله بن الحر الجعفي ، الذي يخاطبه الإمام الحسين عليه السلام بعد إحجامه عن نصرته : « . . . وإن عليك ذنوباً كثيرة فهل لك من توبة »[1] . وسيأتي الحديث عنه بالتفصيل . . . والخلاصة أن الذنب هو سبب الإستبدال في الشخص وهو السبب في استبدال الأُمة .

اللهم اعصمنا ، اللهم وفقنا للإنتصار على أنفسنا واجتناب الذنوب ، اللهم وفقنا لطاعتك كما تحب وترضى حتى لا نكون كوفيين .

---

(1) نفس المصدر ١٨٩ .





* الحلقة السابعة

* خصائص الإيمان الكوفي ...

في ما سبق تمّ استعراض الإستبدال ، وأن أهل الكوفة أذنبوا فاستبدلوا بغيرهم ، وأصبحوا لا يستحقون أن ينصروا الإسلام بل وقفوا ضدّه ، ورغم ذلك ظلوا يعتقدون أنهم مؤمنون . . . فما هي أهم ملامح وخصائص هذا « الإيمان » الكوفي ؟

يمكن اختصارها بما يلي :

أولاً : القعود عن نصرة الإسلام .

ثانياً : حب المال .

ثالثاً : التلون في المواقف .

*** القعود** :

هو بحدّ ذاته ذنب وفي الوقت نفسه هو نتيجة للذنوب ، ألم يتقدّم أن الذنب يقيّد الإنسان ؟

من جملة تقييدات الذنب للإنسان أنه يصبح لا يستطيع نصرة الإسلام والجهاد في سبيل الله ، فبهذا اللحاظ القعود نتيجة للذنوب وبلحاظ آخر هو

ذنب بذاته ، لأن الإنسان الذي يمتنع عن النزول إلى ساحات الجهاد يستطيع أن يكسر هذا الحاجز ويتوب إلى الله من ذنوبه ويشارك في المعركة ، فإذا لم يتصرّف بهذا الشكل وبقي قاعداً ، فالقعود هنا فعل وليس نتيجة وخاصة عندما يكون هناك أمر صريح بوجوب الجهاد في سبيل الله تعالى . . . وطالما قعد أهل الكوفة عن نصرة الإسلام رغم أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يحثهم على الجهاد كما تقدم أما كراهية القتال فهي بالنسبة للمسلم أمر طبيعي إذا كانت في حدود أن المسلم لا يريد أن يخوض حرباً لكن إذا كان تكليفه ذلك فهو يلتزم بالتكليف قال تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ أما إذا كانت كراهية القتال تصل بصاحبها إلى حد القعود عن نصرة دين الله تعالى رغم وجود التكليف الشرعي فإن ذلك مرفوض وهو في ضوء الآية المباركة تدخلٌ فيما لا يعني الناس ، وما ليس من اختصاصهم لأن الله يعلم والناس لا يعلمون ، وهو تعالى العالم بمصالح الناس ، وحبُّهم وكرههم ليس هو المدار في تلك المصالح .

ومسألة القعود وكراهية القتال ـ رغم وجود التكليف ـ بالنسبة لأهل الكوفة مسألة واضحة جدّاً ، وهي من الملامح الأساسية التي برزت فكانت كربلاء . . .

ومن أوضح المصاديق لذلك موقفهم من سفير الإمام الحسين مسلم بن عقيل رضوان الله عليه ، فعندما وصل إلى مسلم خبر استدعاء ابن زياد لهانىء بن عروة ، أحس بالخطر ، فقرر تقديم موعد السيطرة على الكوفة ، وخرج الناس معه . ثم تفرّقوا جميعاً ، كيف ذلك ؟ النصوص تحدثنا أن المرأة كانت تأتي إلى زوجها فتقول له : «ما لنا وللدخول بين السلاطين» ، تأتي الأم إلى ولدها وتقول له الكلام نفسه ، فالمفهوم الذي كان مسيطراً على أهل الكوفة هو هذا « ما لنا وللدخول بين السلاطين » وهذا يعني كراهية القتال وحب القعود .

* نموذج كوفي يدل كيف أن كراهية القتال كانت هي المسيطرة وهو عبيد الله بن الحر الجعفي الذي تقدمت الإشارة إليه ، وكان فارساً ، شارك في الحروب لكنه وصل إلى مرحلة أصبح لا يريد فيها القتال ، وكان في مدينة الكوفة وهو يعرف تماماً من هو الإمام الحسين عليه السلام ومن هو ابن زياد ، ولما بلغه نبأ خروج الإمام عليه السلام من الحجاز قاصداً الكوفة ، فكّر أنه لا يريد نصرة

الإمام لأن مصيره سوف يكون الموت ، وإذا بقي ولم ينصره فمصيره إلى النار ، فقرر الهروب من الكوفة ، واتجه ناحية الشمال باعتبار أن الإمام الحسين عليه السلام سيدخل الكوفة من طريق الجنوب وبهذا لا يلتقي به ولا يراه ! لكن الإمام الحسين نتيجة « جعجعة » جيش الحر بن يزيد الرياحي به ، أصبح من الناحية الشمالية لمدينة الكوفة ، فرأى خياماً مضروبة ولما سأل عنها قالوا : هي لعبيد الله بن الحر الجعفي ، أرسل الإمام يطلبه ، فحار في أمره بداية الأمر ها هو قد وقع في ما هرب منه ! لكنه قرّر أن لا يذهب لمقابلة الإمام فأتى الإمام إليه ، وقال له في ما قال : « وإن عليك ذنوباً كثيرة فهل لك من توبة ؟! » فقال له عبيد الله وما هي ؟ (هذه التوبة) فقال له الإمام : تنصر ابن بنت نبيّك وتقاتل معه ، فقال ابن الحر : والله إني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة ، ولكن ما عسى أن أغني عنك ، ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً ، فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة فإن نفسي لا تسمح بالموت ، ولكن فرسي هذه . . . يعرضها على الإمام فيقول له : وما كنت لأتخذ المضلين عضداً . . . فالمشكلة الأساسية عند هذا الرجل « إن نفسي لا تسمح بالموت » إنه القعود وكراهية القتال . وقد يقال أنه لا يصح اعتبار القعود وكراهية القتال سمة عامة لدى أهل الكوفة خصوصاً إذا عرفنا أن الشمر وعمر بن سعد ، وغيرهم قد حاربوا في كربلاء ، وهو كلام سليم . . . لأن مقتضى أنهم جميعاً يكرهون القتال أن يهربوا جميعاً من القتال . . . والجواب أولاً : لكي يصح اعتبار القعود سمة من سمات الإيمان الكوفي وخصيصة من خصائصه ، فإنه يكفي أن يكون قطاع كبير من أهل الكوفة ترك نصرة الإسلام من أجل هذه الخصيصة والسمة . . . وهذا مما لا شك في وقوعه .

ثانياً : ليس كل من ذهب إلى كربلاء . . . كان يريد أن يحارب حقيقة فقد برزت في كربلاء ظاهرة « لا معكم ولا عليكم » .

ثالثاً : قد يضطر القاعد المتخاذل إلى الحرب فيكون مكرهاً . . . قعد وتخاذل حتى لم يعد أمامه بد . . . ولتلاحظ في هذا السياق مواقف شبث بن ربعي في ساحة المعركة حيث كان يتحاشى القتال . . .

باختصار ليس المراد أن كلاً من هذه الخصوصيات كانت موجودة في كل فرد

كوفي لم ينصر الإمام الحسين عليه السلام . . . بل إنها جميعاً كانت موجودة في الجميع وقد نهى الله تعالى عن القعود وحذر منه وجعل الجهاد والقعود مصطلحين متقابلين ليعرف كل مسلم أين يجب أن يكون قال تعالى :

١ ـ ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ (المائدة / ٢٤) .

٢ ـ ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله** ﴾ (المائدة / ٩٥) .

٣ ـ ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ (التوبة /٤٦) ، وطبيعي أن تكون الذنوب هي التي سببت كراهية الله تعالى إنبعاثهم ، فإذا ما وجد أحدنا في نفسه كراهية للقتال ، وحباً للقعود عليه أن يتوب إلى الله تعالى ويبدأ بتزكية نفسه وبالتدريج يصبح محباً للجهاد في سبيل الله وهكذا نستطيع أن ندرك أن هؤلاء المجاهدين الذين لا يفارق بعضهم جبهات القتال بدافع القربة والإخلاص ، لم يوصلهم إلى هذا الشرف إلا طاعتهم لله تعالى والإحتماء من الذنوب . . .

*** حب المال :**

* ذنب آخر من الذنوب التي ابتلي بها أهل الكوفة هو حب المال ، وهذا الذنب يبرز لديهم أكثر من أي ذنب آخر على الإطلاق ، نجد في النصوص أن ابن زياد ، أول ما استتبّ له الأمر في الكوفة وجمع أهلها . خطب فيهم قائلاً : تعرفون آل أبي سفيان ، (يريد بذلك أن يهددهم) قال : أيها الناس إنكم بلوتم آل أبي سفيان فوجدتموهم كما تحبّون (ثم يبدأ بالترغيب) وهذا أمير المؤمنين يزيد قد عرفتموه حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محسناً إلى الرعية يعطي العطاء في حقّه ، وقد أمنت السبل على عهده ، وكذلك كان أبوه . . . معاوية في عصره : وهذا ابنه يزيد يكرم العباد ويغنيهم بالأموال وقد زادكم في أرزاقكم مئة مئة ، وأمرني أن أوفرها عليكم ، وأخرجكم إلى حرب عدوّه الحسين ، فاسمعوا له وأطيعوا[1] . . .

فهذا الخبيث وهو يريد أن يستتب له الوضع في الكوفة يطرح عنصر المال في

---

(١)) المقرم ـ ١٩٩ .

طليعة عروضه ، ويهددهم تهديداً خفيـاً من ناحية أخرى فالعامل الأساسي لديه هو الترغيب من خلال عنصر المال ، وهو ابن أبيه الخبير بأهل الكوفة . . . صـاحب التجربة المرة معهم . . .

وهناك قصص عن أهل الكوفة تبيّن حبّهم للمال ، شأنهم في ذلك شأن كل الناس إلا من عصمته طاعته لله تعالى . . . فهناك من يتاجر بالسمن فيذهب إلى كربلاء بهدف تجارته وآخر نجار ، وآخر حداد يذهب للعمل ، وهذا الحداد يروي قصته وكيف ذهب إلى كربلاء مع جيش ابن سعد فيقول : كان سفرنا تسعة عشر يوماً منذ خروجنا إلى العودة ورجعت بعده غنيـاً[1] ، وتبرز أيضاً مسألة حب المال لدى أهل الكوفة في نصّ مؤثر جدّاً لشخص من الذين أعماهم هذا الحب فيحمل رأس الإمام الحسين عليه السلام إلى الطاغية ابن زياد ويرتجز أمامه :

إمـلأ ركـابي فـضّـة أو ذهـبـا	إني قـتـلت السـيـد المـحجّـبـا
وخـيرهـم أذ يـذكـرون النـسـبـا	قـتـلت خـير النـاس أمـاً وأبـا

فيقول له : إن كنت تعرفه خير الناس أمّاً وأبا « فلم قتلته والله لا نلت مني شيئاً »[2] .

* أو مثلاً نجد نصاً مؤثراً في فترة السلب ، بعد استشهاد الإمام سلام الله عليه إحدى بنات الإمام يأتيها شخص ليسلبها خلخالها يقول النص : « وجاء آخر إلى فاطمة بنت الحسين فانتزع خلخالها وهو يبكي ، قالت له : ما لك ؟ ! فقـال لها : كيف لا أبكي وأنا أسلب ابنة رسول الله ، قالت له : دعني قال : أخاف أن يأخذه غيري[3] .

والشواهد على حب أهل الكوفة المال وتأثيره على مواقفهم في المنعطفات لا تنحصر بما تقدم . . . ولا تنحصر فترتها بزمن المجريات التي انتهت بشهادة سيد الشهداء عليه السلام . . . ففي زمن الإمام الحسن كـان للمال سلطانه الشيـطاني على أهل الكوفة . . . وقصص عبيد الله بن العباس وغيره معروفة . . . وفي زمن

(١) دار السلام للمحدث النوري ١/٢٤٩ .
(٢) المقرم - ٣٠٤ .
(٣) نفس المصدر / ٣٠٠ .

الإمام علي عليه السلام كذلك إلى حد أنه صلوات الله عليه صرح بهذا حين قال في صفين : « قد دخل هذا المعسكر طمع من معاوية »[1] .

وينبغي أن يطول وقوفنا عند استلهام هذه الخصيصة دلالاتها . . . فقد اعتبر القرآن الكريم حب المال مسرباً خطراً على النفس البشرية﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ ولئن كان هذا الخطر ضاراً بكل الناس . . . ومختلف شرائحهم . . . فإنه أشد ضرراً وأبلغ فتكاً بالمجتمع المجاهد . . . وبطليعة المجاهدين . . . فالحديث عن حب أهل الكوفة المال هو حديث عن حب « الجيش الإسلامي » و« جند الإسلام » و« القوات المسلحة » للمال . . .

إن كل انتصارات الإسلام مرهونة بتوفيق الله تعالى لأولئك المجاهدين الذين ترفعوا عن دوائر جذب الدنيا واستعصوا عليها . . . فخلف من بعدهم خلف . . . أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات . . . وعلى هذا سار الباقون منهم . . . فكان « أهل الكوفة » وكانت كربلاء . . .

هكذا نفهم أن للسياسة المالية . . . ولموقفنا من المال أثراً جذرياً في تحصين المجاهدين من خطر حب المال . . .

وهكذا نستطيع أن نفهم ـ بالمناسبة ـ جانباً من سبب منع رسول الله الغنائم بعد فتح مكة . . . وحنين ، عن الأنصار ، قد يلجأ الشيطان إلى التحايل على المجاهد فيقول له : عندما تطمع ببيت المال والأموال الشرعية فإن ذلك أمر طبيعي . . .

لذلك ينبغي أن يتذكر المجاهد أن أهل الكوفة لم يطمعوا إلا ببيت مال المسلمين . . . حتى ذلك الذي طلب أن يملأ ما بين يديه فضة أو ذهباً ثمن رأس إمامه بالأمس كان يطالب بمال من أموال المسلمين . . . ولكي لا يغرق أحدنا تدريجياً في السير نحو هذا . . . يجب أن يتذكر سيرة مولى المتقين علي عليه السلام مع أموال بيت المال وكيف كان يجتنب أن يصيب شيئاً منها معتمداً العمل لتأمين القوت .

إن من الطبيعي أن يحرص المجاهد على العمل لمرمة المعاش ، ويستغني عن

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة /١٠١ .

الأخذ من بيت مال المسلمين وأموالهم الشرعية ما دام ذلك ممكناً . . . فإذا اضطر إلى ذلك فينبغي الإقتصار على الحد الأدنى . . .

ومهما كان مورده . . . فإن عليه أن لا يفسح لحب المال مجالاً إلى قلبه فهو من أخطر شباك إبليس التي يستطيع بواسطتها اختطاف المجاهد . . . والإلقاء به في قرار سحيق . . . كما نجد ذلك في النماذج الكوفية بوضوح . . .

* **التلون :**

* أيضاً من أسباب انحطاط أهل الكوفة وانحدارهم إلى ذلك الدرك السافل تلوّن مواقفهم ، فمن خصائص المؤمن الإستقامة والثبات ، والروايات واضحة في أن المؤمن أصلب من الجبل ، ومن خصائص المنافق أنه يميل مع الريح ، أهل الكوفة الذين تقدّم الحديث عنهم كيف كان تاريخهم الجهادي وكيف كانت تربيتهم الإيمانية ، بعد مجريات عدّة منذ صفين إلى الفترة التي بدأت فيها كتبهم تنهال على الإمام الحسين عليه السلام رأوا بأم أعينهم من معاوية الممارسات التي لا تطاق ، مطاردة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، أمثال : حجر بن عدي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وغيرهما رضوان الله عليهم ورأوا سياسة زياد والقمع في أعلى درجاته ومستوياته ، بدأوا يتطلعون إلى الحلّ ، رأوا أن يكتبوا إلى الإمام الحسين سلام الله عليه ، خصوصاً بعد أن تولى يزيد الحكم ، وبدأت الكتب تتوالى على سيد الشهداء عليه السلام ، لسان حال هذه الرسائل ، « أقدم يا بن بنت رسول الله ، فإنّا جند لك مجندّة ، أقدم فقد اخضرّ الجناب وما شابه . . . هذا موقف من مواقفهم ، ثم دخل مسلم بن عقيل الكوفة وبدأ الناس يعلنون ولاءهم للإمام الحسين عليه السلام ، أحد الكربلائيين ـ عابس بن شبيب الشاكري ـ يقول لمسلم رضوان الله عليه : إني لا أخبرك عن الناس ولا أعلم ما في نفوسهم ولا أغرك بهم . . . »[1] .

ربّما يدلّنا هذا أنه كان يقدّر عدم ثبات هؤلاء ، ويعرف أن من خصائصهم التلّون في الموقف ، وفعلاً سرعان ما ثبت ذلك ، وأصبح لسان حال الموقف الثاني

(١). المقرم ـ ١٤٧ .

الذي انتقل إليه أهل الكوفة ، « ما لنا وللدخول بين السلاطين » بعد أن كان عنوان موقفهم : « إنا جند لك مجنّدة » .

و « ما لنا وللدخول بين السلاطين » تعني ، اللاموقف ، التذبذب وهو العنصر الذي تحكم بسير التطورات التي أدت إلى كربلاء ولولاه لأختلف الأمر جذرياً . . . فقد كان عبيد الله بن زياد محاصراً داخل قصر الإمارة مع عدد قليل ، واجتمع مع مسلم عدد كبير جدّا ، يقول نصّ في هذا المجال : « واقبلوا نحو القصر (أي الذين جاؤوا مع مسلم) فتحرّز ابن زياد فيه وغلّق الأبواب ولم يستطع المقاومة ، لأنه لم يكن معه إلا ثلاثون رجلاً من الشرطة وعشرون رجلاً من الأشراف ومواليه . وهذا يعني أنه لو كانت عند أهل الكوفة روح كربلائية لتغيّر وجه التاريخ .

ويقول السيد المقرّم في كتابه مقتل الحسين إثر هذا النص : لكن نفاق أهل الكوفة وما جبلوا عليه من الغدر لم يدع لهم علماً يخفق فلم يبق من الأربعة آلاف إلا ثلاثمائة »[1] .

صحيح أن ابن زياد أشاع بأن جيش الشام قادم ، ولكن « الجند المجنّدة » يجب أن يكونوا متراصين أكثر في حال قدوم جيش الشام ولا يمثل هذا الأمر عذراً لهم في تراجعهم عن نصرة مسلم والإمام عليه السلام وفي هذا السياق أذكر قصّة شاهدتها بنفسي وما يراه الإنسان بنفسه يكون أشدّ أثراً ، السيد الحكيم رحمة الله عليه في العراق عندما تحرّك ضدّ البعثيين وكان الشهيد السيد الصدر مشاركاً في هذا التحرّك بشكل أساسي وفاعل ، رأيت كيف كان بيت السيد الحكيم غاصّاً بالناس ، وكان أحد الشعارات التي رفعوها ، نفديك بآخر نفس من أنفاسنا ، وفي اليوم الثاني مباشرة لم يكن هناك أحد في بيت السيد . أهل الكوفة لم يكتفوا بالتفرّق عن الإمام الحسين عليه السلام بل انتقلوا نتيجة تلوّن مواقفهم إلى موقف ثالث وهو أنهم بدؤوا يُسارعون بالخروج إلى كربلاء وحرب الإمام الحسين عليه السلام ، وفي كربلاء كانوا يتسابقون إلى تسجيل المواقف التي ترضي الشيطان . . . وتغضب الرحمن ، مثلاً نجد أن عمرو بن الحجاج الذي برز

---

(١) نفس المصدر /١٥٦ .

بالأمس في الكوفة وكأنه حامي حمى أهل البيت والمدافع عنهم والذي يقود جيشاً لإنقاذ العظيم هانىء بن عروة . . . يبتلع كل موقفه الظاهري هذا ليتهم الإمام الحسين بالخروج عن الدين .

لنتأمل في النص التالي : وكان عمرو بن الحجاج يقول لأصحابه : قاتلوا من مرق عن الدين وفارق الجماعة ، فصاح الحسين ويحك يا عمرو ، أعلي تحرّض الناس ، أنحن مرقنا من الدين وأنت تقيم عليه ، ستعلمون إذا فارقت أرواحنا أجسادنا من أولى بصلي النار[1] .

ونجد موقفاً آخر يدل على نفاق أهل الكوفة : يأتي عبد الله بن حوزة التميمي ، يقف أمام الإمام الحسين عليه السلام ويصيح : أفيكم حسين ، وهذا من أهل الكوفة وكان بالأمس من شيعة علي عليه السلام ومن الممكن أن يكون من الذين كتبوا للإمام أو من جماعة شبث وغيره الذين كتبوا . . . ثم يقول : يا حسين أبشر بالنار ، هل صحيح أن هذا الشيعي بالأمس يعتقد أن الإمام الحسين ـ والعياذ بالله ـ في النار أم أنه يتكلم بهذا الكلام وهو يعلم أنه يكذب ولكن من باب اشهدوا لي عند الأمير ، إنه التلون في الموقف الناتج عن ضعف الإيمان الذي يجعل صاحبه « إمّعة » يسير حيث يسير الناس . . .

يضاف أن هؤلاء القوم الذين كانوا في كربلاء شاهدوا للإمام الحسين كرامات ومواقف تؤكد لهم أن الإمام الحسين على الحق . ورغم ذلك فإن القليلين منهم الذين استقاموا وتركوا النفاق والتلون . . . من جملة الكرامات التي شاهدوها ما حدث لابن حوزة التميمي هذا ، فعندما قال للحسين : أبشر بالنار قال له الإمام عليه السلام : كذبت ، بل أقدم على ربّ غفور كريم مطاع شفيع ، فمن أنت ؟ قال : أنا ابن حوزة ، فرفع الحسين يديه حتى بان بياض إبطيه وقال : اللهم حزه إلى النار ، فغضب ابن حوزة وأقحم الفرس إليه وكان بينهما نهر فسقط عنها وعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس وانقطعت قدمه وساقه وفخذه وبقي جانبه الآخر معلقاً بالركاب وأخذت الفرس تضرب به كل حجر وشجر . . . وألقته في النار المشتعلة في الخندق فاحترق بها ومات »[2] .

---

(١) نفس المصدر / ٢٤٠ وعمرو بن الحجاج أخو زوجة هاني بن عروة كما في المصدر نفسه / ١٥٥ .

(٢) نفس المصدر / ٢٣٠ .

* كذلك نجد شخصاً آخر من أهل الكوفة كان في ساحة المعركة يمثل مظهراً آخر من مظاهر التلون ، يقف في كربلاء وهو يطمع برأس الإمام سلام الله عليه ، يقول النصّ : قال مسروق بن وائل الحضرمي : كنت في أول الخيل التي تقدّمت لحرب الحسين ، لعلّي أن أصيب رأس الحسين فأحظى به عند ابن زياد ، فلما رأيت ما صنع بابن حوزة عرفت أن لأهل هذا البيت حرمة ومنزلة عند الله . . .

هذا « الشيعي » القادم من معقل أمير المؤمنين عليه السلام بالأمس والذي كان بطبيعة الحال من « الجند المجندة » يصبح همه الحصول على رأس « إمامه » لعله يحظى بذلك عند ابن زياد . . . أي مخلوق هذا يا ترى . . . وأي تلون تلونه ؟

* هذه النماذج من المواقف المنافقة هي برسم كل المنافقين في كل العصور الذين يريدون أن يسرقوا إيمان الناس ، ويحملوهم على التنكر للقناعات التي كانوا بالأمس يدعونهم إليها . . .

* يبقى أن منشأ كل خصائص الإيمان الكوفي هو الأنانية ، عبادة الهوى ، حب الذات .

هناك محوران ، إما أن يكون المحور هو الله عزَّ وجلّ أو أن يكون المحور الأنا والأنانية ، والقرآن الكريم واضح في هذا المجال ﴿ **أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾ .

أو نجد قوله عزَّ وجلّ : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكّرون** ﴾ . . .

في الآية الأولى نجد أن الهوى قد يكون إلّهاً ، شخص يقول : لا إله إلا الله لكنه حقيقة يعبد هواه ، ولا يطيع الحكم الشرعي وإنما يطيع حكم هواه .

في الآية الثانية نجد تفصيلاً أكثر ، الذي يتّخذ إلّهه هواه تكون نتيجته أن يضلّه الله على علم فهو مقيّد كما مرّ بأنّ الذنب يقيّد الإنسان، وختم على سمعه

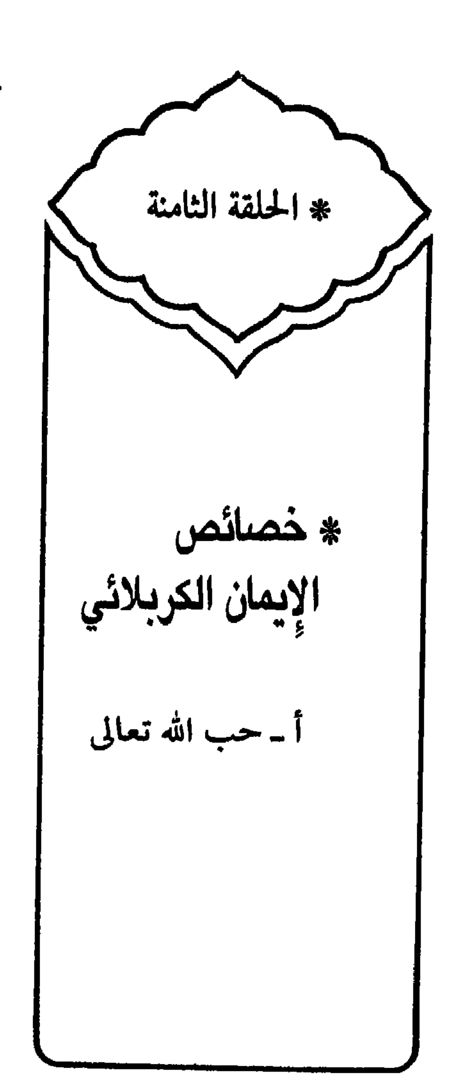
وقلبه وجعل على بصره غشاوة فبعض الناس إذا رجعنا إلى كلامهم قبل فترة ورأينا كيف كانوا يتكلمون وسمعناهم الآن لعرفنا فعلاً أن على سمعهم ,وقلوبهم ختماً وعلى أبصارهم غشاوة . . . الأنانية هي سبب القعود وكراهية القتال وهي سبب حب المال وسبب التلّون والنفاق ، فالدرس الذي نستفيده من الحديث عن خصائص الإيمان الكوفي أن يقف أحدنا مع نفسه ويفكر : هل أحب الله عزَّ وجلّ وأعبده ؟ أم أحب هواي وأعبده ؟ المفروض أن لا يكون للإنسان رأي أمام رأي الله وأن يعمل ما أمر الله به وينتهي عمّا نهى الله عزَّ وجلّ عنه .

والأنانية يمكن اكتشافها قبل الإبتلاء بعواقبها لأنها كما تقدّم هي عبادة الهوى والذي يعني بالنتيجة المعصية ، فإذا رأى الإنسان نفسه يقع في المعصية ، يعرف حينئذ أنه أناني وبالتالي فهو معرّض لأن يقف المواقف الكوفية أما إذا كان ملتزماً بأحكام الله تعالى فهو غير أناني ويستطيع أن يقف المواقف الكربلائية .

ولا أقل من أن يكون الإنسان بحيث « تسره حسنته وتسؤوه سيئته » ليكون بذلك مؤهلاً للمواقف الكربلائية . . .

* * *





*** حب الله تعالى :**

الحديث عن خصائص الإيمان الكربلائي ، هو حديث عن أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ، وأنّى لي بالحديث عنهم رضوان الله عليهم ، ينبغي أن يتحدّث عنهم السائرون على دربهم ، الثابتون أطواد عزّ في مواقع الجهاد ، حيث برز الكفر كلّه إلى الإيمان كلّه ، جند الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام ، مجاهدو المقاومة الإسلامية ـ أعزّهم الله تعالى ـ إنما هي محاولة خدمة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ، أقوم بها علّي ببركتهم أوفّق لخدمة المجاهدين وأن أكون معهم ، ومنهم . . .

* في البداية أودّ أن أقف عند نقطة أن الإنطباع العام عن كربلاء هو أنها ثورة دون الإلتفات إلى خلفية الثوار

وخصائصهم صحيح أن كربلاء ثورة ولكن هل هي مجرّد ثورة ؟

لا بد من التأكيد باستمرار على أن كربلاء هي ثورة عُبّادٍ زهّاد ، وقد يوفق الله تعالى للوقوف في حديث خاص حول عبادة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام . إذن الإهتمام بالجانب الجهادي والثوري في كربلاء ، ضروري ومهمّ ولكن من الخطأ اغفال الخلفية التي انطلقت منها هذه الثورة والقاعدة والأرضية وهي البعد الجهادي (من الجهاد الأكبر) فالجهاد الأكبر شكل قاعدة للجهاد الأصغر ، هذه هي كربلاء .

أما خصائص الإيمان الكربلائي ، فأود أن أتحدّث عنها ملاحظاً خصائص الإيمان في كتاب الله عزَّ وجلّ . . .

نحن نعلم بشكل عام أن عبادة الله تعالى مطلوبة وواجبة ، الإعتقاد بالله تعالى واجب والإعتقاد برسول الله واجب ، كذلك ولاية أهل البيت عليهم السلام إلى غير ذلك من أجزاء المعتقد ، لكن يا ترى هل القيمة العليا في كتاب الله تعالى هي للإعتقاد بالله أم أنها لحب الله ؟ . . . الإعتقاد لا يجعل صاحبه يطيع حكماً شرعياً ، ولا يجعله يؤدي الصلاة في أول الوقت ، فضلاً عن أن يجعله يترك الغيبة ، وإنما حب الله تعالى هو الذي يجعل الإنسان سباقاً وتبلغ درجة سبقه أنه يصبح سباقاً في ميادين الجهاد ، عندما يتقاعس الناس تراه ماضياً قدماً ، مقتحماً ساحات الجهاد ، يريد أن يلقى الله تعالى مضرّجاً بفوار دمه القاني ، إذن حب الله تعالى هو القيمة العليا ، الإعتقاد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس هو أيضاً القيمة العليا ، وإنما حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك ليس الإعتقاد بالعترة هو المطلوب فقط . . . وإنما حب العترة كذلك ليس الإعتقاد بالجهاد هو المطلوب وإنما حب الجهاد قد أكون معتقداً بالجهاد لكني لا أجاهد ، المهم أن أصل إلى درجة حب الجهاد ، الحب هو الذي يحرّك ، ولذلك فالحب هو أساس الثورة ، لا يمكن أن يتحرّك ثائر ويجاهد إذا لم يكن يحمل حب الله تعالى وحب الرسول وحب أهل البيت وحب الجهاد وحب الناس ، لأنهم عيال الله والله تعالى أمر بحبّهم . . .

* إذن لم أشأ أن أتحدّث عن الإيمان الكربلائي بغض النظر عن القرآن الكريم وإنما فضلّت أن آتي إلى كتاب الله عزَّ وجلّ فأنظر إلى خصائص المؤمن فيه

وأحاول تطبيق ذلك على كربلاء ، لكي لا تكون القضيّة أننا مجرّد معجبين بأبطال كربلاء ونريد أن نحمّل مواقفهم قناعاتنا ، وإنما لتكون القضية ، إن هناك منطلقاً هو كتاب الله عزَّ وجلّ ، ننظر فيه ، وما وافق كتاب الله نقبله وما خالفه فهو زخرف ، يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾(التوبة / ٢٤) .

باستعراض سريع لهذه الآية المباركة نجد أن حب الله تعالىٰ، يجب أن يكون أكثر من حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن مجتمعة ومن لا يكون كذلك فهو فاسق . . .

إذن ينبغي أن يكون حب الله عزَّ وجلّ وحب الرسول وحب الجهاد في سبيل الله أكثر من حب هذه القائمة جميعها ، أهل الكوفة مشكلتهم في الأنانية كما تقدّم ، الأنانية تجعل الإنسان يحب ما يرتبط بذاته أكثر من الله ومن الرسول ومن الجهاد في سبيل الله ، لذلك نرى أنه في كلام أهل الكوفة تفوح روائح الدنيا والمال والمصلحة الشخصية ، بينما لا نجد في نصوص الكربلائيين أي ذكر للمال والولد ، اللهم إلا في السياق الآخر الذي يتناقض تماماً ، مثلاً نجد شخصاً كربلائياً عظيماً يصله خبر أسر ابنه وهو في كربلاء فيقول له الإمام الحسين عليه السلام : أنت في حل من بيعتي فاعمل في فكاك ولدك ، فيقول : لا والله لا أفعل ذلك أكلتني السباع حياً إن فارقتك[1] ، فهذا كلام عن الولد ولكنه في سياق من هذا النوع .

* * *

أهم خصائص الإيمان الكربلائي :

١ ـ حب الله تعالى وهو الأساس في بناء الشخصية الكربلائية وعليه يتفرع :

٢ ـ حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٣ ـ وحب أهل بيته الأطهار .

---

(١) المقرم ، مقتل الحسين / ٢١٤ .

٤ ـ وحب الناس ـ عباد الله ـ .
٥ ـ وحب الجهاد في سبيل الله .
٦ ـ وهذا الحب ـ الأصل وما يتفرع عنه ـ يمنح المجاهد وضوحاً في الرؤية وقوة في البصيرة تتحدى كل عقد التبرير الكوفية . . .

وكون كل هذه الخصائص متفرعة على حب الله تعالى لا يلغي كونها خصائص ينبغي الوقوف عندها . . . ولدى الرجوع إلى نصوص الكربلائيين حول هذه الخصائص نجد أنها تتناولها ـ في الغالب ـ الأمر الذي لا يتيح فرز النصوص بيسر . . . ورغم ذلك فهذه محاولة ـ أولية ـ في هذا المجال . . .

*** حب المال :**

* حول حب الله تعالى لدى الكربلائيين ، هناك نصوص واضحة في أن المحرّك هو حب الله تعالى وحب لقائه ، ومع أن البحث يتناول النصوص الواردة عن الأصحاب إلا أن من المناسب إيراد نصّ عن سيد الشهداء عليه السلام بمثابة عنوان للمسيرة الكربلائية يجعل حب الله وتوطين النفس على لقائه أساساً في استحقاق المسير إلى كربلاء ونيل شرف الدفاع عن الإسلام يقول النص المأخوذ من خطبة للإمام سلام الله عليه قبل خروجه من مكة : « . . . ألا من كان فينا باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا ، فإني راحل مصبحاً إن شاء الله تعالى[1] .

وفي نصوص الأصحاب ، نجد في موقف سعيد بن عبد الله الحنفي رضوان الله عليه أنه لما أثخن بالجراح سقط إلى الأرض وهو يقول : اللهم العنهم لعن عاد وثمود وابلغ نبيك مني السلام وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح فإني أردت بذلك ثوابك في نصرة ذريّة نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ، والتفت إلى الحسين قائلاً : أوفيت يا ابن رسول الله ؟ قال : نعم أنت أمامي في الجنة وقضى نحبه فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً غير الضرب والطعن .

هذا الموقف يكشف عن أن محرّك سعيد هو ثواب الله عزّ وجلّ ومن الواضح أن حباً للثواب يصل بصاحبه إلى هذه الدرجة من التضحية بكل طيب خاطر . . .

(١) نفس المصدر /١٦٦ .

بل ومع الشعور بالتقصير الذي يجعله يسأل : أوفيت ؟ إن حباً للثواب كهذا ليس منفصلاً عن حب الله تعالى . . .

ونجد موقفاً آخر لحنظلة الشبامي العظيم الآخر ، يقف حنظلة فينصح أهل الكوفة نصيحة يتفجّر منها الحنان والعطف على هؤلاء الناس .

ويقول : « يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ، يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ، يا قوم لا تقتلوا حسيناً فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى . فجزّاه الحسين خيراً وقال : رحمك الله إنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق ونهضوا إليك ليستبيحوك وأصحابك فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين قال : صدقت يا ابن رسول الله أفلا نروح إلى الآخرة ؟ فأذن له فسلّم على الحسين وتقدّم يقاتل حتى قتل[1] .

ومن الواضح لدى التأمل في هذا النص أن القاعدة التي بنى عليها حنظلة مواقفه وجهاده ونصحه هي حب الله تعالى الذي كشف عنه بقوله :

« أفلا نروح إلى الآخرة » ؟!! إنه كلام المتلهف إلى لقاء الله تعالى . . . كلام من ضاق ذرعاً ببطء حركة الزمن الذي يؤخر ساعة اللقاء بالحبيب الذي لا ينبغي أن يحب غيره . . . ولا يُحب . . .

ومن أحب الله . . . أحب لقاءه . . . وهل يعقل أن يصبح الرواح إلى الآخرة النزهة المحببة . . . وكعبة الآمال إلا عندما يكون القلب حرماً لله تعالى لا يسكن فيه غيره . . . واستطراداً أقف هنا عندما يزخر به النص من حب لعباد الله تعالى فهو يخاف عليهم . . . رغم كل عنادهم وعتوهم وصلفهم . . . ويريد لهم الخير وهو يعلم أنهم قاتلوه . . .

ومثل هذا الحب للناس لا ينفصل عن حب الله تعالى . . . ولذلك فلو لم يكن في النص غيره لكان نصاً دالاً على حب الله تعالى . . .

---

(١) نفس المصدرر /٢٥١ .

والإمام الخميني رضوان الله عليه مدرسة في حب الناس المنطلق من حب الله تعالى لذلك نجده يعبر بأنه خادم حقير للناس . . . ويخاطب المسؤولين بأنهم لولا الناس لكانوا ما يزالون في السجون . . .

وفي هذا الخط سار جنده مجاهدو المقاومة الإسلامية فهم يجاهدون من أجل راحة الناس ولولاهم لما كان بإمكان الناس حتى المنحرفين منهم أن يتمتعوا بحياتهم الدنيوية في المناطق التي حررتها دماء الشهداء وجهود المجاهدين . . .

ـ * وهناك نصّ يحدثنا عن درجة عالية جدّاً للإمام سلام الله عليه وبعض خصائصه فحب الله تعالى درجات . . . أن يصل المجاهد في قلب المعركة إلى مرحلة وكأنه ليس في ساحة قتال ، لا يفكر بشيء إطلاقاً سوى الله تعالى ولقائه هذه مرحلة ومرحلة أعلى من ذلك أن يكون الإنسان وهو في تلك الحال متحرّقاً للقاء الله « ولولا الأجل الذي كتب عليهم لما استقرّت أرواحهم في أجسادهم طرفة عين أبداً » .

يقول النص : عن الإمام السجاد عليه السلام : لما اشتد الأمر بالحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنهم كلما اشتد الأمر تغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم ، وكان الحسين صلوات الله عليه وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم وتهدأ جوارحهم وتسكن نفوسهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا لا يبالي بالموت فقال الحسين عليه السلام : صبراً بني الكرام فما الموت إلا قنطرة يعبر بكم عن البؤس والضرّاء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر . وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب . . . إن أبي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت[1] .

محل الشاهد في هذا النص أن المجاهد الذي يشرق لونه وتسكن نفسه وتهدأ جوارحه كلما اقترب من الموت لا يمكن تفسير ذلك فيه إلا بحب الله تعالى وشعوره

---

(١) (٦) معاني الأخبار للصدوق ـ باب معنى الموت ـ .

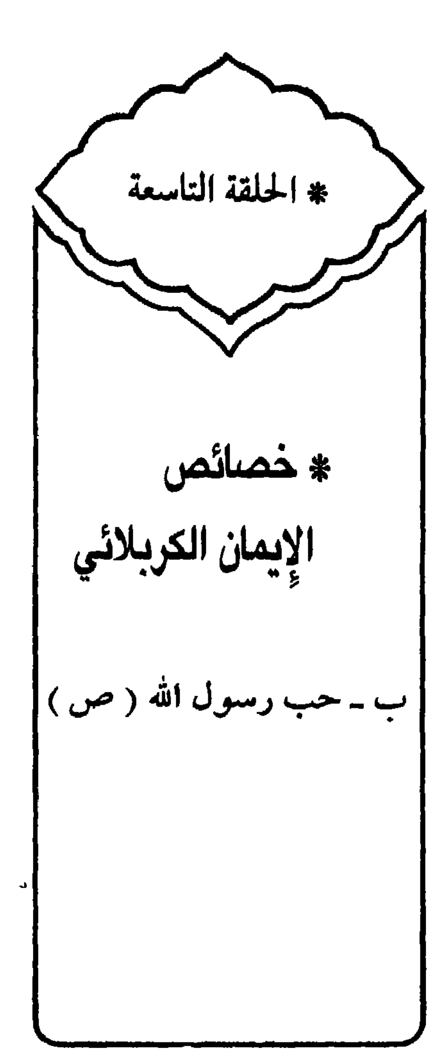
بأنه اقترب من ساعة الوصال والإنتقال إلى رحاب الله عزَّ وجلّ وجواره .

هكذا يتضح لنا أن حب الله تعالى هو أساس الإيمان الكربلائي في مقابل حب الدنيا الذي هو أساس الإيمان الكوفي . . . إن حب الله تعالى هو القيمة العليا التي ينبغي أن تتجه إليها كل اهتماماتنا الثقافية وفي هذا المجال أحب أن أذكر أن دراسة العقائد بالطريقة المتعارفة الآن هي دراسة توصل إلى الإعتقاد بالله تعالى ، نحن نحتاجها ، إلا أنها لا تكفي ومن الضروري جدّاً أن تدرّس العقائد بالطريقة التي تؤمن الإعتقاد وتؤمن الحب معاً ، أيضا أشير هنا إلى أنه ليس من باب الصدفة أن يكون كثير من المجاهدين السبّاقين في ميادين الجهاد يصلون إلى مرحلة الحب ويعيشون حب الله عزَّ وجلّ وحب المصطفى وأهل البيت في مواقع الجهاد وعلى قمم الجبال وفي المغاور والكهوف ولا يصلون إلى ذلك عبر التدريس أو المطالعة ، المجاهد في مواقع الجهاد هذه لا يجد أمامه شيئاً من الدنيا ومغرياتها ، فينقطع عن الدنيا . . . إلى الله تعالى . . . يجذّر حبه في نفسه . . . ويتيح له موقعه الجهادي وتعريض نفسه للخطر في سبيل الله أن تمتد إليه يد العناية الإلَهية فتحتضنه . . . ليشعر بدفء الحب . . . فيوطن على لقاء الله نفسه ويبذل في الله تعالى مهجته . . .

إنها مدرسة حب الله التي تنتظم صفوفها في ساحات الجهاد . . . فتنهل من معينها قوافل المجاهدين . . . وتتزين بأوسمتها صدور طلائعهم من رواد الشهادة السباقين إلى رحاب المصطفى وأهل بيته « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . . إنها المدرسة التي طالما أفاض الله تعالى بركاتها على الأمة . . . وهي وحدها المدرسة الكفيلة بتحقيق تواصل الأمة مع تاريخها المشرق ليكون المستقبل للإسلام . . . وذلك وعد الله . . . ولن يخلف الله وعده . . .

* * *





*** حب رسول الله :**

قبل الحديث عن تجلّي حب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عند شهداء كربلاء ، أود أن أقف عند حب الرسول بشكل عام ، وكما تقدم ، هناك فرق بين الإقتناع والحب ، العلاقة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينبغي أن تكون علاقة حب ، لا علاقة اقتناع به فقط ، أذكر هنا نموذجاً من صدر الإسلام ، كيف كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبّونه ، وطبيعي أنني عندما لا أختار نصاً عن معصوم كأمير المؤمنين سلام الله عليه ، أو الزهراء ، أو الحسنين عليهم السلام ، فليس لأن حبّهم للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ليس بارزاً وإنما التمثيل بغير المعصومين أقوى حجّة علينا ، هناك نصوص عديدة تكشف أن المسلمين كانوا يحبّون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبّاً جمّاً والمثال

الذي يوضح هذه الحقيقة وأنها أمر طبيعي جـدّاً علاقـة الأُمة الإسـلامية بـالإمام القائد رضوان الله تعالى عليه ، عندما يكون القائد مميّزاً لا بد وأن يكون حبّ الأُمة له مميّزاً أيضاً ، نفحة من الحقيقة المحمدّية سكنت قلب الإمام الخميني ، فـإذا به مهوى الأفئدة ، فكيف بالحقيقة المحمـدّية نفسهـا ، النموذج الـذي سأذكـره هو موقف سعد بن الربيع رضوان الله تعالى عليه في أحد حيث استشهد سعد ، دارت رحى المعركة كان سعد بين المجاهدين أصيب بجراحات عديدة ، سرت شائعـة بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتل ، وفيما كان سعد يكابد جراحـاته ، كان الهمّ الوحيد الذي يحمله هو هم قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مّما جعله يتألم ألماً شديداً كما يدّل النص ، توقفت المعركة ، سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن سعد ، من يأتينـا بخبر سعـد ، فانتـدب شخص قال: أنا يا رسـول الله، قال: ابحث عنـه في هذه الجهـة، فإني رأيت حـوله اثني عشر رمحـاً، يقول هذا الشخص : ذهبت ووقفت في ساحة المعركة أنادي : يـا سعد ، يـا سعد بن الربيع فلم يجبني أحد قلت : يا سعد إن رسول الله قد سأل عنك ، يقول النص : فـرفع رأسـه فانتعش كـما ينتعش الفرخ ثم قـال : إن رسول الله صـلى الله عليـه وآله وسلم لحيّ ؟ قلت : إي والله إنه لحي وقد أخبرني أنه رأى حولك اثني عشر رمحاً . . . فقال : الحمد لله (!!) صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قـد طعنت اثني عشر طعنة ، كلها قد أجافتني (أي دخلت جوفي) أبلغ قومي الأنصار السلام وقل لهم : والله ما لكم عند الله عذر إن تشوك رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم شوكة وفيكم عين تطرف ثم تنفس فخرج منه مثـل دم الجزور وكان قد احتقن في جوفه وقضى نحبه رحمه الله .

يقـول هذا الشخص : ثم جئت إلى رسـول الله صلى الله عليـه وآله وسلم وأخبرته ، فقال : « رحم الله سعداً نصرنا حيّاً وأوصى بنا ميتاً »[1] .

هـذا نموذج من حب أصحـاب رسول الله صـلى الله عليه وآلـه وسلم له ، نحن كمسلمـين ينبغي أن يكون حبنـا للمصطفى صـلى الله عليه وآلـه وسلم هو الطابع العام لعلاقتنا به ، لا مجرّد الإقتناع هذا الدرس نستطيع أن نتعلّمه جيداً في

(١) البحار ٢٠/٦٢ .

مدرسة كربلاء باعتبار أن أنصار الإمام الحسين عليه السلام كانوا يحبون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حبّاً جمّاً ، فحبّهم لله تعالى ولرسوله كان السبب في حبّهم للإمام الحسين ، لذلك نجد أن مواقفهم ترتبط عادة ويمكن أن أقول دائماً بكلمة « الرسول » أو « رسول الله » صلى الله عليه وآله وسلم ، مما يدل أن مواقفهم جميعاً كانت مرتبطة بهذا الهدف ، والإرتباط بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يرجع إلى الإرتباط بالله عزَّ وجلّ باعتبار أنه رسول الله فالحب الأساسي والإستقلالي هو حب الله تعالى ، في هذا المجال نجد نماذج كثيرة جدّاً ونصوصاً وافية تدل على علاقة الحب هذه .

* نجد مثلاً موقف حبيب بن مظاهر عندما خاطب أهل الكوفة : أما والله لبئس القوم عند الله غداً قوم يُقدمون عليه وقد قتلوا ذريّة نبيّه وعترته وأهل بيته[1] . . . نجد أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو محور حديثه وأن الدافع في موقفه هذا هو نصرة المصطفى والدفاع عن ذريّته ، مفهوم العترة أو الذرية مفهوم أوصى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالسبب في موقف حبيب هو علاقته برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبّه له .

* أيضاً نجد تصريحاً آخر لزهير بن القين ، عندما يقول له شخص اسمه عزرة : يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت إنما كنت على غير رأيهم قال زهير : أفلست تستدل بموقفي هذا أني منهم ، أما والله ما كتبت إليه كتاباً قط ولا أرسلت إليه رسولاً ولا وعدته نصرتي ولكن الطريق جمع بيني وبينه ، فلما رأيته ذكرت به رسول الله ومكانه منه وعرفت ما يقدم عليه عدوّه فرأيت أن أنصره وأن أكون من حزبه وأجعل نفسي دون نفسه لما ضيعتم من حق رسوله[2] .

نجد أن المحور هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أيضاً نجد في هذا السياق ضمن شعارات كربلاء كما يعبر الشهيد مطهري رضوان الله تعالى عليه شعاراً تكرّر عند كل الشهداء حيث كانوا يأتون إلى الإمام الحسين عليه السلام ويقولون له : « السلام عليك يا ابن رسول الله » ، فيجيبهم واحداً واحداً وعليك

---

(١) مقتل الحسين للمقرم /٢١١ .

(٢) نفس المصدر /٢١١ .

السلام ونحن خلفك ويقرأ قوله تعالى : ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً** ﴾[1] . . . فكل مجاهد في طريقه إلى الشهادة كان يقول : السلام عليك يا ابن رسول الله ، وفرق أن يقول ذلك وبين أن يقول السلام عليك يا أبا عبد الله ، فهو يسجّل للأجيال أن موقفي هذا كان في طاعة الله تعالى وطاعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وليس موقف شخص متحزّب لشخص قائده ، بل المسألة مسألة الدين والرسالة .

وقد يقال بأن ما تقدّم يدل على علاقة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا يدل على حب ، وهذا الكلام ليس صحيحاً ، فمن يقدّم نفسه للموت في سبيل الشعار الذي يحمله وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمل حبّاً جماً لهذا الشعار .

* ومن النماذج في هذا السياق ، أن يكون الشخص يكاد يسقط إلى الأرض لأنه أدّى قسطه في سبيل الله وأثخن بالجراح ـ وفي هذه اللحظات لا يفكر بنفسه ولا بما يتعلق به من بيت وزوجة وأولاد ـ في الحقيقة الكلام في هذا المجال سهل لكن التطبيق هو الصعب ـ سعيد بن عبد الله الحنفي الذي وقف أمام الإمام الحسين عليه السلام عندما كان الإمام يصلي والسهام تأتيه من كل جهة ، فإذا رأى أن سهماً يريد أن يسقط على الإمام سلام الله عليه يقدّم نفسه ليقع السهم فيه إلى أن أثخن بالجراح من كثرة السهام ، وعندما أراد أن يسقط إلى الأرض قال : اللهم العنهم لعن عاد وثمود وأبلغ نبيك مني السلام وأبلغه ما لقيت من ألم الجراح فإني أردت بذلك ثوابك في نصرة ذرية نبيك صلى الله عليه وآله وسلم والتفت إلى الحسين قائلاً : أوفيت يا ابن رسول الله ؟ قال : نعم أنت أمامي في الجنة ، وقضى نحبه فوجد فيه ثلاثة عشر سهماً غير الضرب والطعن .

* هذا الشعار « أوفيت يا ابن رسول الله ؟ » نجده على لسان مجاهد كربلائي آخر هو عمرو بن قرظة الأنصاري ، الذي وقف بدوره أيضاً بين يدي الإمام عليه السلام عندما كان يصلي « ولما كثر(ت) فيه الجراح التفت إلى أبي

---

(١) نفس المصدر /٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر /٢٤٦ .

عبد الله وقال : أوفيت يا ابن رسول الله ؟ قال : نعم أنت أمامي في الجنة فأقرأ رسول الله مني السلام وأعلمه أني في الأثر ، وخرَّ ميتاً »[1] .

ختاماً : ما أشد حاجتنا إلى الإقتداء بهذه النماذج . . . لنكون أوفياء حقاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سباقين إلى ميادين الشهادة الكربلائية ذوداً عن حياض الإسلام ودفاعاً عن كرامة المسلمين . . .

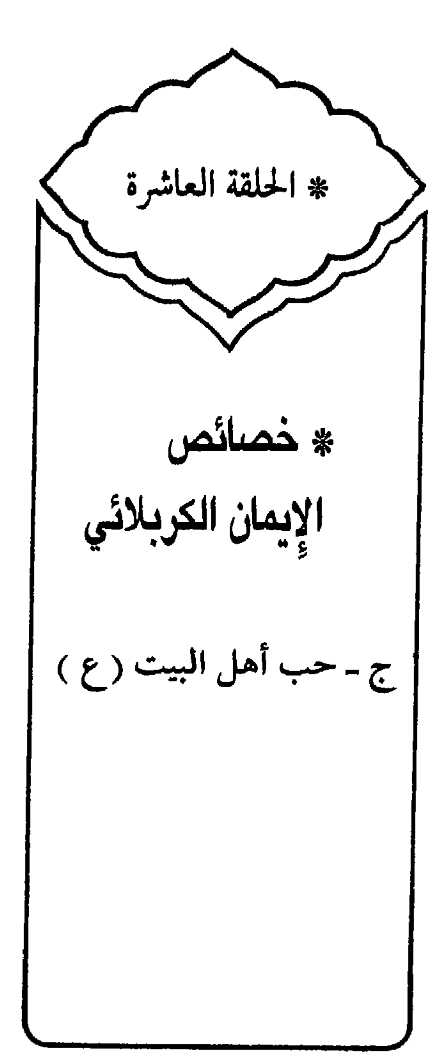
اللهم وفقنا لما تحب وترضى . . . إنك ولي الإحسان والنعم . . .

* * *

---

(١) نفس المصدر /٢٤٨ .





*** حب أهل البيت عليهم السلام :**

من الواضح أن حبهم عليهم السلام يتفرع من حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنحن نحبهم لأنهم أهل بيت رسول الله ، وعترته ، وذريته ، وقرابته . . .

السبب في حبهم إذن هو هذا الإختصاص برسول الله . . . وهو اختصاص ناشيء من سببين : قربهم المعنوي منه وقربهم النسبي . . . ولذلك كانوا مظهر القرابة التامة للمصطفى الحبيب بحيث أن حبهم أصبح مبدءاً قرآنياً : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ كل ما يطلبه الله تعالى ويطلبه رسوله منا مقابل الرسالة وتبليغها هو حب أهل البيت لأن هذا الحب وحده هو الذي يضمن استمرار التزامنا بالرسالة فهم حملتها من بعد المصطفى والوفاء لهم وفاء للرسالة . . . وعدم حبهم يؤدي لا

محالة إلى التنكر للرسالة وعدم الوفاء للمصطفى الرسول . . .

والروايات في حبهم عليهم السلام كثيرة جداً . . . أذكر بعضها بين يدي الحديث عن حب الكربلائيين لأهل البيت عليهم صلوات الرحمٰن . . .

* عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقد جاءه أعرابي فقال: يا رسول الله ، هل للجنة من ثمن قال: نعم، قال: وما ثمنها ؟ قال : لا إلّه إلا الله يقولها العبد مخلصاً بها . . . قال : وما إخلاصها ؟ قال : العمل بما بعثت به في حقه وحب أهل بيتي . . . قال : فداك أبي وأمي وإن حب أهل البيت لمن حقها ؟

قال : إن حبهم لأعظم حقها[1] . . .

* وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله وعترتي أحب إليه من عترته . . . »[2] .

وفي كربلاء نجد أن حب أهل البيت عليهم السلام يتجلى بأروع صورة . . . وهذه بعض النماذج . . .

* زهير بن القين رضوان الله تعالى عليه نجد أن علاقته بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم علاقة واضحة ، وكذلك بأهل البيت عليهم السلام . في ساحة المعركة أن يكون الشخص متماسكاً هادىء الأعصاب ، هذا مستوى جيد ، لكن أن يكون في غاية الطمأنينة هذا مستوى أفضل ، أن يكون من الطمأنينة بحيث أنه يرتجز الشعر فهذا أهم ، وأن يرتجز الشعر وكأنه في عرس فهذا شيء آخر . . . ومن رجز زهير بن القين نستكشف أبعاد شخصيته وخصوصياته وتماسكه . يضع يده على منكب الحسين ، يقول النص : فوضع يده على منكب الحسين وقال مستأذناً :

أقدم هُديت هادياً مهديّاً فاليوم ألقى جدّك النبيا
وحسناً والمرتضى عليًّا وذا الجناحين الفتى الكَمِيَّا

(١) بحار الأنوار ٢٧/١٣٤ .
(٢) نفس المصدر /٧٦ .

وأسد الله الشهيد الحيا(١)

وأشير هنا إلى أن الرجز في كربلاء بحاجة إلى بحث مستقلّ لأن كل شخص في كربلاء سواء كان كوفياً أو كربلائياً عندما يرتجز كانت مفاهيمه هي .التي تحرّكه وهي مفاهيم يمكن استكشافها من خلال الرجز .

* وهناك نموذجان يذكران عادة معاً في بعض المصادر ، شهيدان من شهداء كربلاء « واضح » التركي مولى الحارث المذحجي و « أسلَمْ » مولى الإمام الحسين عليه السلام على ما يبدو من النص ، « واضح » مشى إليه الإمام عليه السلام عندما استشهد واعتنقه ، فقال وهو في تلك الحال : من مثلي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واضع خدّه على خدّي ، ثم فاضت نفسه الطاهرة(٢) .

كذلك « أسلمْ » ، مشى إليه الإمام عليه السلام واعتنقه وكان به رمق فتبسّم وافتخر بذلك ومات(٣) . . .

* وهناك نموذج آخر لشخص شجاع ، خافه أهل الكوفة عندما دخل المعركة وكانت سطوته مشهورة ، هو عابس بن شبيب الشاكري ، يقول النص وهو يكشف عن حبه للعترة . . . أهل البيت عليهم السلام : « فوقف عابس أمام أبي عبد الله عليه السلام وقال : ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ علي منك ، ولو قدرت أن أدفع الضيم عنك بشيء أعزّ عليَّ من نفسي لفعلت ، السلام عليك ، أشهد أني على هداك وهدى أبيك ! ومشى نحو القوم مصلتاً سيفه(٤) . . .

في ساحة المعركة ، نرى أن المحرّك لعابس البطل هو حب الإمام الحسين عليه السلام وحب أمير المؤمنين عليه السلام ولولا حب المصطفى لما أحبهما . . .

* أيضاً نجد الحجاج الجعفي الذي وقف موقفاً كربلائياً عظيماً ، حيث رجع من ساحة المعركة إلى الإمام الحسين عليه السلام مخضّباً بالدماء وهو يقول :

(١) نفس المصدر /٢٤٧ وانظر ٢١٤ و٢٣١ .
(٢) نفس المصدر /٢٤٩ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر /٢٥١ ولاحظ نصاً آخر /١٤٧ .

اليـوم ألقـى جـدّك النبـيـا ثـم أبـاك ذا الـنـدى عـليـا
ذاك الذي نعرفه الوصيّا

* هناك أيضاً « الجابريان » سيف بن الحارث وابن عمه مالـك ، وقد برزا للقتال وهما يبكيان !!

« قال الحسين ما يبكيكما ؟ إني لأرجو أن تكونا بعد ساعة قريري العين . . . قالا : جُعلنا فداك . . . ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك ، نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن ننفعك » . . .

« فجزّاهما الحسين خيراً فقاتلا قريباً منه حتى قتلا . . . »[1] .

أي إيثار هذا وأي حب . . . إنهما لا يحملان همومهما الشخصية ولا يحزنهما أنهما على عتبة فراق الدنيا . . . بل إنهما يقدمان على ذلك طائعين . . . ولا يحملان إلا همَّ عزيز الزهراء وقد أحاط القوم به . . .

ثم إنهما لا يريان لتضحيتهما بنفسيهما « نفعاً » للإمام . . . ومعنى ذلك أنهما يدركان أن شهادتهما بين يديه نفع لهما . . . فهو المتفضل عليهما . . . أما هما فلم يفعلا شيئاً . . . وهذه هي عظمة الكربلائيين . وكذلك يفعل الحب الصادق بأهله .

* وفي هذا السياق نجد كذلك نموذج مسلم بن عوسجة ، فقد مشى إليه الحسين عليه السلام ومعه حبيب بن مظاهر ، فقال له حبيب :

« لو لم أعلم أني في الأثر ، لأحببت أن توصي إلي بما أهمك ، فقال مسلم : أوصيك بهذا . . . وأشار إلى الحسين أن تموت دونه . . .

قال : أفعل ورب الكعبة ، وفاضت روحه بينهما »[2] .

ويمكننا إدراك بعض جوانب العظمة في هذا الموقف الكربلائي إذا استحضرنا أن لحظات الإحتضار هي الفرصة الأخيرة للشيطان التي يبذل فيها قصارى جهده ليسرق إيمان المحتضر فيخرج من الدنيا على غير الإيمان . . . إن

---

(١) نفس المصدر / ٢٣٩ .
(٢) نفس المصدر / ٢٤١ .

الشيطان إذن يستنفر كل طاقته ويلوح فيها للمثخن بالجراح المحتضر . . . ولكل محتضر بالمال والبنين وزخارف الدنيا وبهارجها حتى يكره لقاء الله ويتعاظم في نفسه حب الدنيا . . .

ورغم ذلك كله نجد أن العظيم مسلم بن عوسجة لم يتعاظم في نفسه إلا حب الحسين . . . هنيئاً لأصحاب النعيم نعيمهم .

* ومساء اليوم التاسع من محرم وليلة العاشر منه يحتضنان الكثير من المواقف المضمخة بعطر حب أهل البيت عليهم السلام أذكر منها هذين النموذجين . . .

لما عرف الحسين عليه السلام من أصحابه صدق النية والإخلاص (. . .) أوقفهم على غامض القضاء فقال :

« إني غداً أقتل وكلكم تقتلون معي ولا يبقى منكم أحد حتى القاسم وعبد الله الرضيع إلا ولدي علياً زين العابدين لأن الله لم يقطع نسلي منه وهو أبو أئمة ثمانية » ليتصور أحدنا نفسه معنياً بهذا الخطاب . . . وليتأمل ردود الفعل في نفسه . . . ولينظر . . .

هل سيجد في نفسه العزم على المضي قدماً . . . أم أنه سيقول : كان عليَّ أن أغتنم الفرصة حين قال الحسين لنا :

وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً . . .

ويتركنا الكربلائيون نتخبط في حيرتنا . . . لا نعرف أي موقف كنا سنقف ليبادر الإمام بجواب واحد تخشع في محرابه الأجيال وينحني أمامه الماضي والحاضر والمستقبل :

« فقالوا بأجمعهم : الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك وشرَّفنا بالقتل معك . . . أو لا نرضى أن نكون معك في درجتك يا ابن رسول الله فدعا لهم بالخير وكشف عن أبصارهم فرأوا ما حباهم الله من نعيم الجنان وعرفهم منازلهم فيها »[1] .

* هذا الموقف كان مساء اليوم التاسع[2] وأما ليلة العاشر فقد روي أن

---

(١) المصدر ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) المصدر /٢١٢ .

سيد الشهداء عليه السلام خرج في جوف الليل يتفقد المواقع المحيطة بمعسكره . . . فرآه نافع بن هلال الجملي يخرج وحيداً فمشى خلفه يحرسه . . . ولما رآه الإمام عليه السلام سأله عن سبب خروجه فقال نافع : يا ابن رسول الله أفزعني خروجك إلى جهة معسكر هذا الطاغي . . . فقال الإمام : إني خرجت أتفقد التلاع والروابي مخافة أن تكون مكمناً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون . . .

ثم رجع عليه السلام وهو قابض على يد نافع ويقول : هي هي والله وعد لا خُلف فيه . . .

ثم قال لنافع : ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل وتنجو بنفسك ؟

قبل غروب الشمس ، أي قبل ساعات عرف نافع أنه يقتل غداً وها هو الآن يسمع الإذن من الإمام بالإنصراف لينجو بنفسه فلو كانت طينته قد عجنت بحب الدنيا لآثر السلامة . . . إلا أن طينته من فاضل الطينة الطاهرة . . . وكل يعمل على شاكلته . . .

لذلك ما كان منه عندما سمع كلام الإمام عليه السلام إلا أن وقع على قدميه يقبلهما ويقول :

ثكلتني أمي . . . إن سيفي بألف وفرسي مثله فوالله الذي منَّ بك عليَّ لا فارقتك حتى يكلاّ عن فرْيٍ وجرْي . . . أي حتى يكل السيف عن القطع والفرس عن الركض والعدْو . . .

ثم دخل الإمام الحسين عليه السلام خيمة العقيلة زينب . . . ووقف نافع بجوار الخيمة ينتظره . . . فسمع زينب تقول للإمام : هل استعلمت من أصحابك نيَّاتهم فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة . . .

فقال لها : والله لقد بلوتهم (اختبرتهم) فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس ، يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفل إلى محالب أُمه .

وما هو السبب في استيناسهم هذا يا ترى لولا الحب العارم لسيد

الشهداء . . . وأهل بيت المصطفى جميعاً . . . كما سنرى في بقية النص . . . قال نافع : فلما سمعت هذا منه بكيت . . . وأتيت حبيب بن مظاهر وحكيت ما سمعت منه ومن أخته زينب . . .

وقرر حبيب ونافع أن يجمعا كل الكربلائيين من غير الهاشميين ليسيروا في أول موكب عاشورائي . . . وأول تظاهرة كربلائية ليتحدثوا إلى حرم رسول الله وذريته ويطيبوا قلوبهن وخواطرهن . . . وكان حبيب المتحدث باسم الجميع فوقف خارج الخيم وصاح : يا معشر حرائر رسول الله هذه صوارم فتيانكم ، آلَوْا ألا يُغمدوها إلا في رقاب من يريد السوء فيكم ، وهذه أسنة غلمانكم أقسموا ألا يركزوها إلا في صدور من يفرِّق ناديكم .

فخرجن النساء إليهم ببكاء وعويل . . . وقلن أيها الطيبون حاموا عن بنات رسول الله وحرائر أمير المؤمنين فضج القوم بالبكاء حتى كأن الأرض تميد بهم[1] .

* أذكِّر هنا بأن الحديث المتقدم عن حب الله تعالى وحب رسوله المصطفى وأهل البيت ، وكذلك الحديث الآتي عن حب الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلّ ينسجم مع مضمون الآية المباركة :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

وقد رأينا معاً من خلال هذه الجولة أن حب الكربلائيين لله تعالى ورسوله وأهل البيت يفوق كل حب . . . والشواهد على ذلك لا تنحصر بما تقدم . . .

* بالمناسبة أسأل ما هو المحرك الحقيقي لمجاهدي المقاومة الإسلامية أعزهم الله تعالى . . . الذين يواجهون هذه الهجمات الشرسة . . .

لو كان حب الدنيا هو الذي يحركهم لما تمكنوا من الصمود . . . لو كان حب الأبناء والزوجة والمال عندهم فوق حب الله لضعفت عزائمهم . . .

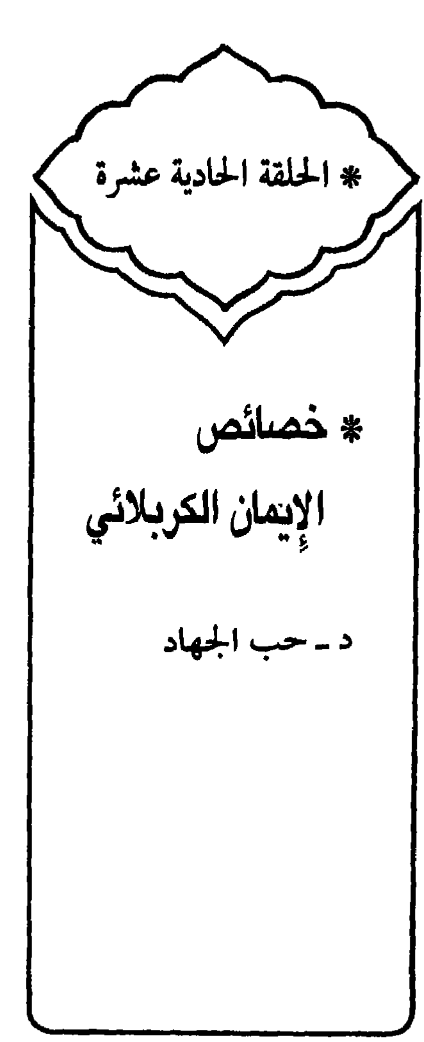
---

(١) نفس المصدر /٢١٨ ـ ٢١٩ بتصرف .

ومن الجدير بالذكر أنه ليس معنى هذا أن المؤمن لا يحب أولاده وذويه . . . إن المؤمن يحب ذويه أكثر مما يحب الكافر ذويه . . . إلا أن المؤمن لا يسمح لهذا الحب أن يتناقض مع حب الله تعالى . . .

هؤلاء المجاهدون في المقاومة الإسلامية هم كربلائيو هذا العصر ، ويجب أن نعرف قيمتهم ، ولا يمكن لأحد أن يحب الإمام عليه السلام ولا يحبهم . . . طبعاً أقصد بالمقاومة الإسلامية كل الذين جاهدوا لتكون كلمة الله هي العليا بقطع النظر عن انتماءاتهم الظاهرية . . . هؤلاء لا يمكن لأحد أن يحب أنصار الإمام الحسين ولا يحبهم . . . بل هم أنصار الإمام الحسين فسلام عليهم وسلام على جهادهم وسلام على دفاعهم عن أمة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ورزقنا الله نصرتهم . . . والوقوف معهم في كل خندق وكل موقع إنه أرحم الراحمين . . .

* * *



*** حب الجهاد في سبيل الله :**

قبل الحديث عن حب الجهاد لدى الكربلائيين أقدّم للموضوع بإشارة لموقع الجهاد في الإسلام . . .

المسلم لا يمكنه إلا أن يكون مجاهداً ، موقع الجهاد في الإسلام موقع أساسي ، وبمجرّد أن يقول المسلم لا إله إلا الله ، فقد أعلن أنه يعارض كلّ الآلهة المصطنعة ، وهذا الأمر يفترض أنه مستعد لدخول المعركة ـ إذا اقتضى الأمر ـ ضد أعوان وعبدة هذه الآلهة المصطنعة، **﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله﴾** لا بد أن يكفر بالطواغيت أولاً ثم يؤمن بالله عزَّ وجلّ . . . الجهاد أساس والأحاديث حول هذا كثيرة ، منها « من لم يغز ولم يحدث نفسه بغزو فقد مات على شعبة من النفاق » . وعندما نتأمل آيات كتاب الله عزَّ وجلّ ونتأمل الروايات وعندما ننظر في سيرة المصطفى وأهل البيت

عليهم السلام نجد أن الجهاد الذي يسمّى بالجهاد الأصغر (العمل العسكري) هو ركن لا بدّ منه لحفظ الإسلام والدفاع عنه ، فموقع الجهاد في الإسلام هو هذا الموقع الطليعي . . .

* وعندما نحاول تتبع هذا الخط في مواقف الكربلائيين نجد أن المجتمع الكوفي خيّمت عليه كراهية القتال إلا أن الكربلائيين كان لهم موقف يختلف جذرياً ، فكشفوا عن حب للجهاد لا يرقى إليه الطير . . . لذلك نجد أنهم كانوا يبذلون كل ما يستطيعون لكي يصلوا إلى كربلاء ويكونوا في نصرة سيد الشهداء عليه السلام ، هناك فرق بين شخص يتواجد في موقع الجهاد ولا يهرب وبين شخص يعرّض نفسه للمخاطر حتى يصل إلى موقع الجهاد ،عندما يكون شخص في الكوفة ويعلم أن ابن زياد زرع سكك الكوفة ونقاطها الرئيسة بالعيون والحرس وأن الخروج من الكوفة باتجاه كربلاء يعني أنّه يعرّض نفسه للموت ومع ذلك لا تُقعده كل عقد التبرير الكوفية ، ويمضي سريعاً لنصرة سيد الشهداء سلام الله عليه فإن هذا يكشف أنه يحب الجهاد وفي سبيل الله حبّاً جمّاً . . .

إن حب الجهاد في سبيل الله هو الدليل العملي على حب الله عزَّ وجلّ ، والدليل العملي على حب الرسول ، وأهل البيت ، من مصاديق حب الجهاد في سبيل الله تعالى . . . عامر بن أبي سلامة فقد كان عامر ما يزال في الكوفة حين فرضت الأحكام العرفية ، جعل عبد الله بن زياد خمسمائة فارساً على الجسر الذي يخرج الناس عبره من الكوفة ، وأمّر عليهم زجر بن قيس الجعفي ، وأراد عامر أن يخرج من هذا الطريق وهو يعلم ما يعترضه . يقول النص : فمر به (أي بزجر) عامر بن أبي سلامة (. . .) فقال له زجر : قد عرفت حيث تريد فارجع ، فحمل عليه وعلى أصحابه فهزمهم ومضى وليس أحد منهم يطمع في الدنوّ منه ، فوصل كربلاء ولحق بالحسين عليه السلام حتى قتل معه وكان قد شهد المشاهد مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[1] .

ويمكن أن تتضح لنا مسألة حب الجهاد في سبيل الله أكثر إذا قمنا بمقارنة بين موقف عامر بن أبي سلامة وموقف عبيدالله بن الحر الجعفي الذي تقدم الكلام عنه

((١)) المصدر/١٩٩ .

وأنه حينما عرف بمجيء الإمام الحسين عليه السلام إلى الكوفة هرب منها . . . وكان شعاره عندما التقى بالإمام « إن نفسي لا تسمح بالموت » فهذا عنده نفس وذاك عنده نفس ، الأول مستعد أن يهجم على خمسمائة فارساً ويفرقهم ليصل إلى هدفه وهو القتال مع الإمام الحسين عليه السلام بينما الآخر يفاجأ بالإمام بعد أن هرب خوفاً من اللقاء به . . . ويدعوه الإمام إلى نصرته فيكاد يصرخ من الأعماق . . . دعني لا أريد أن أموت . . .

ويمكن أن نقارن أيضاً بين عامر بن أبي سلامة وبين شخصين اجتمعا بالإمام عليه السلام في طريقه إلى كربلاء في منطقة « قصر بني مقاتل » فقال لهما الإمام عليه السلام : جئتما لنصرتي فقالا : « إنا كثيرو العيال وفي أيدينا بضائع للناس ولم ندر ماذا يكون ونكره أن تضيع الأمانة . . . »[1] .

هذان يكرهان أن تضيع أمانة الناس ويرضيان أن تضيع أمانة الله فأي منطق منطقهما . . . إنه منطق التخلي عن نصرة الدين بالتستر بشعارات دينية . . . والقلب مع ما أحب . . .

* وفي مجال الحديث عن حب الجهاد في سبيل الله لدى الكربلائيين نجد نصاً يقول إن الإمام الحسين عليه السلام خطب في كربلاء بعد أن وصلها فقال : أما بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا قد تغيّرت وتنكرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله ! فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً[2] .

فقام زهير وقال : سمعنا يا ابن رسول الله مقالتك ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها . فأي حب للجهاد هذا عند زهير رضوان الله عليه ؟!

وبرير أيضاً يسجل موقفاً جهادياً رائعاً فيقول : يا ابن رسول الله ، لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك ، تقطّع فيك أعضاؤنا ثم يكون جدّك شفيعنا يوم

---

(١) (٢) نفس المصدر / ١٩٤ .

القيامة[1] . فليس هماً أبداً عند هذا العظيم هو تقطيع أعضائه بل الهم الأكبر هو شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي هي مظهر رحمة الله عزَّ وجّل ، والعاقل لا يستطيع أن يفكر بطريقة أخرى لأنه إذا أراد أن ينطلق من مفهوم (نريد أن نعيش) فهو يفكر بحياته الأخرى قبل تفكيره بحياته الدنيا ، فمن تقطع أعضاؤه في الدنيا لكي يخلّد في الآخرة في جوار رسول الله وأهل بيته فهذه نعمة كبيرة ، ومنطق برير وسائر الشهداء هو منطق آخر غير ما هو سائد بين الناس ، منطق الشهيد يختلف عن منطق غيره . . . منطق المجاهد يختلف جذرياً عن منطق القاعد . . .

* شاهد كربلائي آخر على حب الجهاد ، عابس بن شبيب الشاكري رضوان الله عليه الذي خافه أهل الكوفة عندما نزل إلى المعركة يقول النص : فوقف عابس أمام أبي عبد الله عليه السلام وقال : ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعزّ علي منك ولو قدرت أن أدفع الضيم عنك بشيء أعزّ علي من نفسي لفعلت، السلام عليك، أشهد أني على هداك وهدى أبيك! ومشى نحو القوم مصلتاً سيفه (إلى هنا تقدم ذكره ثم يتابع النص) وبه ضربة على جبينه فنادى : ألا رجل ، فأحجموا عنه لأنهم عرفوه أشجع الناس فصاح عمر بن سعد : إرضخوه بالحجارة فرمي بها فلّما رأى ذلك ألقى درعه ومغفره وشد على الناس وإنه ليطرد أكثر من مائتين[2] .

وفي نصّ آخر أعتقد أنه في كتاب إبصار العين في أنصار الإمام الحسين عليه السلام للسماوي : لما رأوا عابس ينزل إلى المعركة قال قائلهم : « ويحكم هذا أسد الأسود هذا ابن أبي شبيب ، لا يخرجن إليه أحد منكم »[3] .

هذا هو الحب للجهاد ، فنزْعه لدرعه ومغفره[4] يدل ـ إضافة إلى التخفيف عنه لتسهيل الحركة ـ على استماتته في سبيل ما نزل لأجله .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر /٢٥٢ .

(٣) إبصار العين /٧٤ .

(٤) المِغفر : بكسر الميم زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة . وهو مأخوذ من غفر بمعنى غطى وستر فغفران الذنوب سترها وتغطيتها .

هذه بعض النماذج لحب الجهاد . . . وكل النصوص المتقدمة حول حب الله تعالى ورسوله وأهل البيت تصلح شواهد في هذا المجال .

وبشكل عام نرى أن عمرو بن الحجاج يصف أبطال كربلاء رضوان الله عليهم بثلاث صفات ، يقول لأهل الكوفة : أتدرون من تقاتلون ؟! تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين ، لا يبرز إليهم أحد منكم إلا قتلوه على قلّتهم ، والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم[1] . . .

ثلاث صفات لهؤلاء الأبطال إحداها « قوماً مستميتين » فحب الجهاد وصل عندهم إلى مرحلة أصبحوا يبحثون عن الموت ، فالمستميت هو الذي يطلب الموت . . . هذا هو العنوان العام لأبطال كربلاء وأي واحد منهم فإننا نرى فيه هذه الصفات مع التفاوت في المستوى . . .

وهذه الصفات الثلاث للكربلائيين إذا وقفنا عندها بشكل دقيق نجد أنها تنطبق على مجاهدي المقاومة الإسلامية الآن .

فرسان المصر تعني طليعة المجاهدين ، فعندما يحكى عن قوات الحلف الأطلسي وعن الجيش الإسرائيلي والتصدّي لكل مؤامرات الأعداء يظهر أن شباب المقاومة الإسلامية هم فرسان المصر .

وأهل البصائر ، نحن نرى أن الناس كلهم غير ملتفتين لخطر الغزو اليهودي إلى بلادنا وأننا في لبنان مهدّدون بالتهجير ، مهدّدون فيما لو سكتنا عن ذلك ولم نواجه موجات هجرة اليهود الروس والفلاشا وغيرهم أن يضطر كل منا غداً للبحث عن خيمة يأوي إليها . . . ربما في القطب الشمالي كما يعبر البعض . . .

إنه خطر كبير يهدّد المسلمين في هذه المنطقة والتخلي عن الجهاد في هذه المرحلة معناه الرضا بإذلال المسلمين ومصادرة كرامتهم وأرضهم والقضاء على الإسلام في هذه البلاد خصوصاً في لبنان لأن التحالف اليهوديّ مع الشيطان الأكبر سوف ينتقم إذا استطاع من تهديد المسلمين للكيان الصهيوني ولن تبقى لأحد حرمة في لبنان . مجاهدو المقاومة الإسلامية يعون هذه الحقيقة فهم يملكون

---

(١) المصدر / ٢٤٠ .

وضوح الرؤية وهم أهل البصائر حقيقة .

الصفة الثالثة « قوماً مستميتين فأي استماتة أكثر من أن يكون شخص تحت القصف المركّز الذي ينهال عليه من كل الجهات ويثبت رغم ذلك كما ثبت أصحاب الإمام الحسين عليه السلام :

بأبي من شروا لقاء حسين   بفراق النفوس والأرواح

وهنا أحب أن أؤكّد أنّ ما جعل الكربلائيين فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين هو ما جعل أبطال المقاومة الإسلامية كذلك إنه حب الجهاد في سبيل الله ، الذي هو سبيل الناس ، فليعلم المسلمون أن من يحبهم حقيقة ومن يحرص على مصلحتهم فعلاً هم هؤلاء المقاومون الأبطال ، ولذلك فهم حريصون على استمرار المقاومة الإسلامية وحريصون في الوقت نفسه على المحافظة على أمن الناس واستقرارهم وعدم تهجيرهم من بيوتهم . . . إننا في لبنان بين خيارين :

إما أن تستمر المقاومة ضد العدو الصهيوني لتتصاعد وتستطيع الدفاع عن أهلنا المسلمين . . . في مختلف الظروف . . .

وإما أن نهجَّر من ديارنا نهائياً ولو بعد حين . . .

من هنا يتضح أن اعتماد الخيار الأول هو المتعين حتى إذا استلزم الأمر أضراراً في الأرواح والممتلكات . . . فإن ذلك يبقى أقل بكثير من خطر الإقتلاع والتهجير وما يلازمهما من القتل والتدمير . . .

وقد أثبتت تجربة المقاومة إثر اجتياح عام ٨٢ قدرة الروح الجهادية ـ بإذن الله تعالى ـ على مواجهة الجيش الصهيوني . . . وإلحاق الهزيمة به . . .



* خصائص الإيمان الكربلائي

* البصيرة ... ووضوح الرؤية ...

* تقدَّم وصف «عمرو بن الحجاج» للكربلائيين بقوله لأصحابه : أتدرون من تقاتلون ؟ تقاتلون فرسان المصر وأهل البصائر وقوماً مستميتين لا يبرز إليهم أحد منكم إلا قتلوه على قلّتهم[1] . . . وأرى من المناسب الوقوف عند عبارة « أهل البصائر » التي هي كلمة حق أطلقها شخص عايش هؤلاء الكربلائيين وعرف أحوالهم .

البصائر جمع بصيرة ، وأهمية البصيرة واضحة في الآيات والروايات ، وهذه بعض النماذج : « السائر على غير بصيرة لا تزيده كثرة السير إلا بعداً » ، معنى هذا أن الوعي السياسي وحده ليس مهمّاً ، والحسّ الجهادي والشجاعة لا أهمية لهما إذا انفصلا عن طاعة الله تعالى . . . المهم إذن هو البصيرة ، قال الله تعالى :

---

(١) مقتل الحسين للمقرم / ٢٤٠ .

﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس الأعمى من يعمى بصره إنما الأعمى من تعمى بصيرته »[1] . وإذا وضعنا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما الأعمى من تعمى بصيرته » أمام قوله تعالى : **﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾** نفهم أن عمى القلب هو الضلال ، وأن بصر القلب ورؤيته هما البصيرة من هنا نستطيع أن ندرك الربط بين حب الله تعالى والبصيرة ، بما أن القلب هو المحور ، والقلب المريض هو القلب الأعمى والقلب السليم هو القلب المبصر ، القلب السليم في المصطلح الإسلامي هو القلب الذي ليس فيه غير الله عزَّ وجلَّ ، بمقدار حب الله تعالى في القلب بمقدار ما يكون القلب سليماً وتكون فيه بصيرة وبمقدار ضعف حب الله في القلب بمقدار ما يكون القلب مريضاً ، باعتبار أن القلب الذي يكون حب الله تعالى فيه ضعيفاً فهو يحمل حباً لغير الله وبالتالي يقع صاحبه في المعصية نتيجة هذا الحب لغير الله . وهذا القلب المريض تكون بصيرته ضعيفة .

فإذا وصل الإنسان إلى مرحلة ليس في قلبه حب الله تعالى يكون بلا بصيرة .

تقدم فيما سبق من فصول ، أن خصائص الإيمان الكربلائي هي حب الله تعالى والرسول وأهل البيت وحب الجهاد في سبيل الله ، هذه الأمور تعني بتعبير آخر أن الكربلائيين هم أصحاب القلوب السليمة وصاحب القلب السليم يحبّ زوجته وبيته وأولاده ويحب نفسه إلا أنه يحب الله تعالى أكثر من كل ذلك ، وصاحب القلب المريض يحب هذه الأمور إلا أنه يحب ذلك أكثر من الله عزَّ وجلَّ فلا يكون قلبه حرماً لله تعالى .

ومن الواضح في ضوء ما تقدم أن البصيرة على درجات . . . ويحتاج الإنسان إلى البصيرة في المنعطفات وفي الأوقات العادية ، نحتاج إليها في كل مورد يكون مصداقاً لعبادة الله عزَّ وجلَّ وتغليب طاعته سبحانه على طاعة الشيطان ، والمواقف السياسية مصاديق لهذا المفهوم ـ مفهوم عبادة الله تعالى ـ وفيها تظهر الحاجة ملحة

(١) ميزان الحكمة ١/٤٢٣ .

إلى البصيرة . . . رغم أن الدنيا كلها قاعة امتحان دائم والإنسان فيهـا يحتاج إلى البصيرة في كل لحظة .

حب الله تعـالى وحب رسولـه وأهل البيت عليهـم السـلام وحب الجهاد في سبيـل الله هذه الخصـائص هي التي جعلت قلوب الكربـلائيين قلوبـاً سليمـة ، وجعلتهم « أهـل البصائـر » لـذلـك يصـح أن لا نجعـل البصـيرة خصيصـة من خصائص الكربلائيين باعتبارها ثمرة شجرة حب الله عزَّ وجلَّ ويمكن باعتبار آخر اعتبارها خصيصة مستقلّة .

أما الفرق بـين البصيرة والتقـوى ، فهو أن التقـوى الصادقـة تنير الـدرب لصاحبها فيبصر . . . أي يصبح ذا بصيرة بنسبـة التقوى التي اتقى الله بهـا ، إن لكل مفردة من مفردات التقوى نوراً . . . وعندما يتراكم هذا النور يصبح بصيرة ونوراً إلهياً ذا شـأن . يقول الله تعـالى : ﴿ **يا أيهـا الذين آمنـوا اتقوا الله وآمنـوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نور تمشون به** ﴾ الحديد ٢٨ ، نتيجة تقوى الله عزَّ وجلَّ أنه يجعل لنا نـوراً نمشي به ، هـذا النور هـو الذي يجعلنـا من أصحاب البصائر . والنتيجة أن التقوى الصادقة لا تنفكّ عن البصيرة ، وطبيعي أن تكون البصيرة متناسبة مع حجم التقوى ، وأتـذكّر في هـذا المجال مـا ورد في الروايات حول الصراط والسير عليه . إن من الناس من يمرّ مثل الـبرق الخاطف ومنهم من يمرّ كعدو الفَرْس ومنهم من يمرّ كشدّ الرجل أي كالرجل المسرع ، ومنهم من يمرّ حبواً[1] . نور كلٍ بحسبه، منهم من يكون نوره يضيء حوله إلى مسافات بعيدة ومنهم درجات أقل من ذلك حتى نصل إلى درجة من يكون نوره بمقدار إبهام رجله .

أما كيف تنفع البصـيرة في المنعطفـات الحادة التي يمـرّ بها الإنسـان عادة . فعندما يواجه الإنسان موقفاً يخيّر فيه نفسه بين الجنة والنار ، أي أن يكون مع الحق أو الباطل ، فإذا كان من أهل البصائر يمكنه أن يرى الأمور كما هي ، ومن أدعية الإمام السجاد عليه السلام : « أرني الأمور كما هي » وإذا كان قد فقد البصيرة أو لم يحصل عليها أصلاً تختلط عليه الأمور ، وقد يتصور أن الحق هو الباطل ، فـلا

(١) البحار ٦٧/٨ .

يرى الحق ، ولا يستحق تسديداً من الله عزَّ وجلَّ لذنوبه التي ارتكبها باختياره فوصل إلى مرحلة العمى ، له قلب ولكن لا يفقه به وله عين ولكن لا يبصر بها وله أذن ولكن لا يسمع بها ، قد يسمع ـ كالكوفيين الذين سمعوا نصائح الإمام الحسين عليه السلام وكانوا يقولون : ما ندري ما تقول يا ابن فاطمة ـ لكنه لا يعقل .

أما إذا كان صاحب بصيرة ، فتكون طاعاته قد تراكمت وأصبحت سبباً في استحقاقه التسديد . يمن الله تعالى عليه بالهدى فيبصر ويرى وهنا نص طريف جدّاً عن أم سلمة رضوان الله عليها تقول لشخص شهد حرب الجمل : « أين طار قلبك حين تطايرت القلوب مطايرها ؟ فقال : تبع علي بن أبي طالب ، قالت : وفِّقت والذي نفسي بيده . . . »[1] اختيار الموقف السليم إذن يحتاج إلى توفيق من الله تعالى . . . والتوفيق مرتبط بالتقوى والطاعة . . .

* وهنا تطل علينا المواقف الكربلائية الحافلة بنور الهداية الإلهية والبصيرة . . . وفي البداية أذكر نص تقدم . . . وهو يكشف عن درجة عالية من وضوح الرؤية وقوة البصيرة ـ اللهم ارزقنا ـ فقد أخبر الإمام الحسين عليه السلام جميع من معه أنهم سيقتلون غداً . . . ولا يبقى إلا الإمام السجاد ليستمر عبره خط الإمامة .

« فقالوا بأجمعهم ، الحمد لله الذي أكرمنا بنصرك وشرّفنا بالقتل معك أولا نرضى أن نكون معك في درجتك يا ابن رسول الله فدعا لهم بالخير » . . .

أو كما تقدّم معنا أن بعض الأصحاب الذين أصابتهم الجراحات البليغة في وسط المعركة وهم يفتخرون بأن الحسين عليه السلام معهم ويضع خدّه المبارك على خدودهم فأي بصيرة هذه ؟!

ومن الأمثلة على بصيرة هؤلاء الكربلائيين موقف نافع بن هلال الجملي الذي يبدأ بضرب القوم بالنبال إلى أن تفنى نباله فيمتشق حسامه وينزل إلى ساحة المعركة يقاتل فيقتل اثني عشر رجلاً سوى من جرح ، يقول النصّ : . . . ولما

---

(١) الغدير ١٧٨/٣ .

فنيت نباله جرّد سيفه بضرب فيهم فأحاطوا به يرمونه بالحجارة والنصال حتى كسروا عضديه وأخذوه أسيراً فأمسكه الشمر ومعه أصحابه يسوقونه فقال له ابن سعد : ما حملك على ما صنعت بنفسك ؟ قال : إن ربي يعلم ما أردت ، فقال له رجل وقد نظر إلى الدماء تسيل على وجهه ولحيته : أما ترى ما بك ؟ فقال ـ وهنا محل الشاهد على بصيرته رضوان الله عليه ـ والله لقد قتلت منكم اثني عشر رجلاً سوى من جرحت وما ألوم نفسي على الجهد ، ولو بقيت لي عضد ما أسرتموني !

رحم الله نافعاً . . . ما أقوى بصيرته . . . وما أشد وضوح رؤيته . . . رغم جراحاته . . . ورغم أنه على عتبة القتل . . . يضيف النص : وجرّد الشمر سيفه فقال له نافع : والله يا شمر لو كنت من المسلمين لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا ، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يدي شرار خلقه ثم قدّمه الشمر وضرب عنقه[1] .

هكذا نستطيع أن نرى نموذجاً من أهل البصائر ، كيف أنه يبقى صامداً لا يتراجع بل يقوى موقفه رغم الشماتة وكثرة الأعداء الذين يحيطون به .

* من الشواهد أيضاً على بصيرة الكربلائيين عدّة مواقف لبرير بن خضير رضوان الله عليه ، أحدها أنه يخطب في أهل الكوفة ويحاول نصحهم فيقول لهم : . . . يا قوم إن ثقل محمد قد أصبح بين أظهركم وهؤلاء ذريّته وعترته وبناته وحرمه فهاتوا ما عندكم وما الذي تريدون أن تصنعوه بهم فقالوا : نريد أن نمكن منهم الأمير عبيد الله بن زياد فيرى رأيه فيهم . . . وبعد أن يذكّرهم بكتبهم التي بعثوها للإمام يقول له نفر منهم : يا هذا ما ندري ما تقول !

فيقول برير رضوان الله عليه وهنا الشاهد على بصيرته : « الحمد لله الذي زادني فيكم بصيرة ، اللهم إني أبرأ إليك من فعال هؤلاء القوم اللهم ألق بأسهم بينهم حتى يلقوك وأنت عليهم غضبان »[2] .

* الموقف الثاني لبرير رضوان الله عليه مع يزيد بن معقل حيث نادى بريراً : يا برير كيف ترى صنع الله بك ؟ فقال : صنع الله بي خيراً وصنع بك شرّاً فقال

---

(١) مقتل الحسين للمقرم /٢٤٩ .

(٢) المصدر /٢٣٣ .

يزيد : كذبت وقبل اليوم ما كنت كذّاباً ، أتذكر يوم كنت أماشيك في « بني لوذان » وأنت تقول : كان معاوية ضالاً وإن إمام الهدى علي بن أبي طالب ؟ قال برير : بلى أشهد أن هذا رأيي ، فقال يزيد : وأنا أشهد أنك من الضالين ! فدعاه برير إلى المباهلة ، فرفعا أيديهما إلى الله سبحانه يدعوانه أن يلعن الكاذب ويقتله ، ثم تضاربا فضربه برير على رأسه ضربة ، قدّت المغفر والدماغ فخرّ كأنما هوى من شاهق[1] . . . إن دعوة برير رضوان الله عليه إلى المباهلة تدل على مدى بصيرته ووضوح رؤيته . . . رزقنا الله تعالى شفاعته لنحشر معه تحت راية سيد الشهداء عليه السلام .

* موقف ثالث يدل على بصيرة برير نجده في نص يقول : هازل برير خضير بن عبد الرحمان الأنصاري فقال له عبد الرحمان : ما هذه ساعة باطل ، فقال برير : « والله لقد علم قومي أني ما أحببت الباطل شاباً ولا كهلاً ولكني لمستبشر بما نحن لاقون ، والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة »[2] .

* من المواقف التي تدل على بصيرة الكربلائيين رضوان الله عليهم مواقف حبيب بن مظاهر ، فعندما جاءه نافع يخبره بما سمعه من السيدة زينب عليها السلام تقول لأخيها : هل استعلمت من أصحابك نياتهم فإني أخشى أن يسلموك عند الوثبة قال له : والله لولا انتظار أمره (أمر الإمام عليه السلام) لعاجلتهم بسيفي هذه الليله . وهذا الموقف يطفح بالبصيرة فهو مستعد للإستشهاد في أي وقت ولا يمنعه من ذلك إلا انتظار التكليف الشرعي .

* نص آخر عن حبيب يقول : « وخرج حبيب بن مظاهر يضحك فقال له يزيد بن الحصين : ما هذه ساعة ضحك ، قال حبيب : وأي موضع أحق بالسرور من هذا ، ما هو إلا أن يميل علينا هؤلاء الطغاة بسيوفهم فنعانق الحور »[3] . . . فمسألة الشهادة عند حبيب محسومة ، فهو يرى بقوة بصيرته أن خصومه طغاة وهو على الحق مع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لذلك

(١) المصدر / ٢٥٠ .
(٢) نفس المصدر / ٢١٦ .
(٣) المصدر / ٢١٦ .

فهو ينتظر الشهادة بفارغ الصبر . . .

طبعاً عندما يذكر حبيب وبرير الحور العين فإن الدافع لذلك هو جوّ المزاح والمرح الذي يعيشانه وإلا فإن هدف هذين البطلين ـ بالتأكيد ـ هو رضوان الله تعالى ، ويمكننا أن نطمئن إلى أنهما لم يفكرا بالجنة كقيمة عليا ، وإنما القيمة الأعلى عندهما هي رضوان الله تعالى . . .

* كذلك نجد البصيرة ووضوح الرؤية عند نافع الهلالي ومن خرج معه من الكوفة قوله للإمام الحسين عليه السلام ، عن أهل الكوفة : الأشراف عظمت رشوتهم وقلوب سائر الناس معك وسيوفهم عليك[1] .

* ومن عجائب المواقف الكربلائية أن يصل وضوح الرؤية إلى حدّ أن أمّاً تقدّم ولدها للإستشهاد بين يدي الإمام الحسين عليه السلام ، رغم أن أباه كان قد استشهد في كربلاء . . .

يقول النص في هذا المجال : « وجاء عمرو بن جنادة الأنصاري بعد أن قتل أبوه وهو ابن إحدى عشرة سنة ، يستأذن الحسين فأبى ـ هذه المرأة الموجودة في كربلاء وزوجها مستشهد بطبيعة الحال سوف تفكر في وضعها ومستقبلها . ولدها إلى جانبها يمكن أن ينفعها لكن منطق الكربلائيين أصحاب البصائر يجعل الإنسان يفكر بطريقة أخرى هي تأمين المستقبل الحقيقي وهو الآخرة . . . وتقديم كل عزيز في سبيل الله كفيل بتحقيق ذلك ـ يتابع النص : فأبى وقال : هذا غلام قتل أبوه في الحملة الأولى ولعل أمّه تكره ذلك ، قال الغلام : إن أمي أمرتني فأذن له ، فما أسرع أن قتل ورمي برأسه إلى جهة الحسين فأخذته أمه ومسحت الدم عنه . . . »[2] . . . فما هو مدى قوة البصيرة عند هذه المرأة الطاهرة الكربلائية في مقابل شبث بن ربعي صاحب التاريخ الجهادي ؟! الذي أعمته ظلمات الذنوب وألقت به في مقر جهنم وبئس المصير .

* هذه الأمور يجب أن نقف عندها في دراستنا لواقعة كربلاء ضروري أن لا

---

(١) المصدر/١٨٦ .

(٢) نفس المصدر/٢٥٣ .

يقول الناس عند حدوث فتنة ما أن في هذا الطرف علماء وفي ذاك الطرف « علماء » أيضاً ، إذن لا يعرف الحق من الباطل ويبرّرون وقوفهم على الحياد وخذلان الحق ، دائماً كان الأمر بهذا الشكل في كربلاء وفي حرب الجمل كان يوجد « علماء » دين في الجهتين وكذلك في النهروان . . . البصيرة هي المهمة ، ضروري أن يدعو الواحد منا باستمرار : اللهم ارزقني البصيرة ، اللهم أرني الحق حقاً فأتبعّه وأرني الباطل باطلاً فأجتنبه ، ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، صعب جدّاً أن يقضي الواحد عمراً في التدين ثم تكون عاقبته أن يقف ضدّ الإسلام . وقد يشكل على بصيرة الكربلائيين بأن الإمام الحسين عليه السلام أراهم منازلهم في الجنة كما في الروايات وبالتالي ليس لبصيرتهم تلك العظمة التي تحدثت عنها ؟ والجواب على هذا الإشكال : لقد أرى الإمام الحسين عليه السلام أصحابه منازلهم في الجنة بعد المواقف التي وقفوها والتي عبروا فيها عن استعدادهم للقتل في سبيل الله دفاعاً عن الإسلام وسيد الشهداء عليه السلام . . . ولقد بلغ حبهم للشهادة درجة لا تدرك أبعادها . . .

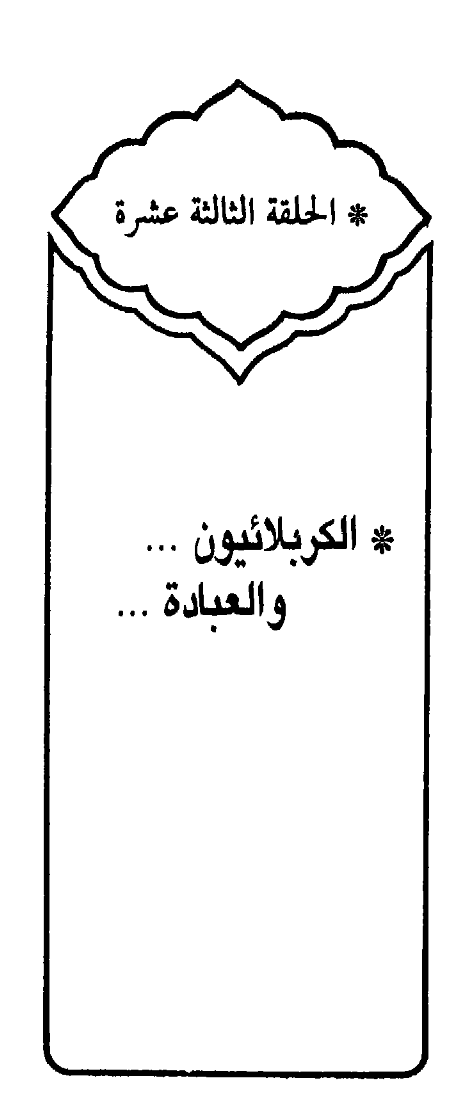
فمنهم من قال : أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذرّى يفعل بي ذلك سبعين مرة لما فارقتك[1] . . .

وقال الآخرون ما يقرب من ذلك . . .

بعد هذا الصمود العجيب استحقوا أن يروا منازلهم في الجنة . . . ومن الطبيعي أن يزيدهم ذلك قوة في البصيرة ومضاءً في العزيمة . . . إلا أنهم كانوا مستعدين للشهادة قبل ذلك . . . رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

* * *

(١) نفس المصدر / ٢١٤ .



الكربلائيون والعبادة :

* من الطبيعي جدّاً أن يكون البعد العبادي في كربلاء حاضراً بوضوح في مختلف المواقف ، فالثورة على الطواغيت من منطلق إسلامي هي في حدّ ذاتها عبادة ، للأسف أن المفهوم السائد أن الثوري عادة يكون بعيداً عن الإلتزام بالأمور العبادية ، طبعاً هناك قسم كبير من هذا التحميل السيء والسلبي لمفهوم الجهاد والثورة سببه العصور المتمادية التي كنا بعيدين فيها عن الإسلام بحيث أصبحت الصورة عن المؤمن العابد صورة الوادع الهادىء المسالم الذي لا يمكن أن يصرخ في وجه ظالم ، لا يتدخل في السياسة ، يجلس في زاوية المسجد ويبقى يصلي ويتمتم ولا علاقة له بهموم المسلمين ، عندها يكون عابداً . . .

أما المقاتل والمجاهد والثوري فهو الإنسان الذي يخوض غمرات الموت

وينتقل من خندق إلى خندق ، والبعد العبادي في شخصيّته لا يكاد يظهر ، هذا الإنطباع وهذا الفهم خاطىء جملة وتفصيلاً .

للأسف أننا عندما ندرس سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لا نقف عادة عند هذه الناحية لنرى بوضوح أن ساحة المعركة كانت مسجداً عامراً بذكر الله تعالى وأن الطريق إلى المعركة ومن المعركة إلى المدينة وحيث كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجنده كان المسجد ، الذكر ، كذلك في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام . . . أحياناً نجد أنه في حروبه مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يخوض المعركة وهو يردّد ورداً ، كما في أحد مثلاً .

* إننا عندما نتحدث عن كربلاء ، نركز عادة على جوانب مختلفة ينبغي التركيز عليها . . . إلا أن البعد العبادي لا يركزّ عليه كما هو المطلوب ، هؤلاء المجاهدون الذين وقفوا مع الإمام الحسين عليه السلام أصبحوا قدوة للمجاهدين ، وما زالت كربلاء مدرسة لتخريج قوافل ومواكب المجاهدين والشهداء ، هؤلاء المجاهدون كانوا عُبَّاداً انطلقوا إلى ساحة الجهاد ، عبادتهم شكلّت الدافع الذي جعلهم يخرجون من دوائر الجذب الشيطانية التي تجذب الإنسان وتجعله يثّاقل إلى الأرض ويقعد عن الجهاد ، من هنا كان هذا البعد على جانب كبير من الأهمية ، بل هو الأساس ، خصوصاً إذا لاحظنا أن الهدف من خلق الله تعالى لنا ولغيرنا هو العبادة ﴿ **وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون** ﴾ فينبغي أن نقف طويلاً عند هذا البعد .

قبل الدخول في تفاصيل الموضوع أجيب على تساؤل قد يتبادر إلى الذهن وهو أن من الطبيعي أن تظهر الملامح العبادية في تصرّفات الكربلائيين كإحيائهم لليلة العاشر بالعبادة وغير ذلك لأنهم علموا أنهم سيقتلون ولا دليل على أن هذا كان طابعهم منذ بداية الأمر وقبل واقعة كربلاء ، والجواب : إن أهل الكوفة جميعاً كانوا يعلمون أن هؤلاء الكربلائيين هم عبّاد أهل الكوفة بدليل خطاب حبيب بن مظاهر لجيش عمر بن سعد : لبئس القوم غداً قوم يقدمون على الله وقد قتلوا ذريّة نبيه وعترته وأهل بيته وعباد أهل هذا المصر المتهجدين بالأسحار الذاكرين الله كثيراً . . . وكلام حبيب لا يكون ملزماً للكوفيين إلا إذا كانوا يعرفون هذا الأمر

فقال له عزرة بن قيس : إنك لتزكّي نفسك ما استطعت . فعزرة لم ينكر على حبيب إدعاءه لكن الثغرة التي ظن أنه ينفذ منها أن اتهمه بتزكية نفسه ، وهذا يدل أن الكوفيون كانوا يعلمون أنهم يواجهون عباد مصرهم . . . وهنا يتدخل زهير بن القين رضوان الله عليه مخاطباً عزرة هذا : يا عزرة إن الله قد زكاها (أي نفس حبيب) وهداها فاتق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين[1] . . .

* ما أريد أن أقف عنده هو أننا عندما نقتدي بهؤلاء الكربلائيين يجب أن نأخذ الجانب العبادي بعين الإعتبار وندرك بأن الجهاد الأكبر في شخصياتهم أقوى من الجهاد الأصغر .

لقد كانوا رضوان الله عليهم قمة في الجهاد وبذل النفس وقمة في العبادة وكذلك ينبغي أن يكون كل حسيني يردد من أعماق القلب « يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً » . . .

ورغم أنه قد تقدم الحديث عن حبهم للجهاد وفي سبيل الله فسأورد هنا نصاً آخر لنستحضر روح الجهاد وحب الإستشهاد عندهم ونحن نتحدث عن عبادتهم .

قيل لرجل شهد الطف مع ابن سعد : ويحك أقتلتم ذرية الرسول؟ فقال : عضضت بالجندل ! إنك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا ، ثارت علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها ، كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً تلقي نفسها على الموت لا تقبل الأمان ولا ترغب في المال ولا يحول حائل بينها وبين المنية أو الإستيلاء على الملك ، فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها فما كنا فاعلين لا أم لك[2] ؟!!

هؤلاء الأبطال . . . الأسود الضارية . . . ليوث النهار هم أنفسهم رهبان الليل كما سنرى . . .

* من الشواهد على عبادة الكربلائيين ما ورد من أنه انتقل بعض من جيش

---

(١) المصدر /٢١١ .

(٢) المقرم /٦٩ عن شرح النهج لابن أبي الحديد .

ابن سعد إلى صف الإمام عليه السلام لما رأوه من عبادة أصحاب الإمام وتهجّدهم ، يقول السيد المقرم : « ويقال أنه في هذه الليلة انضاف إلى أصحاب الحسين من عسكر ابن سعد اثنان وثلاثون رجلاً حين رأوهم متبتّلين متهجدين عليهم سيماء الطاعة والخضوع لله تعالى »[1] .

لو فرضنا إنه ليس أمامنا عن عبادة الكربلائيين سوى هذا النص ولم يكن أمامنا نصّ حبيب المتقدّم لكان يمكن أن يقال بأن عبادة الكربلائيين كانت نتيجة الجوّ العام الذي فرضه علمهم بالقتل ، لكن نصّ حبيب يجدّد لنا عنواناً من عناوين كربلاء ويعرفنا على شخصية هؤلاء العظماء ، إن التحاق اثنين وثلاثين رجلاً بمعسكر الإمام عليه السلام تحت تأثير العبادة والتهجد يدل بوضوح على قوة هذا البعد وعمقه في الشخصية الكربلائية .

* أيضاً هناك نموذج أبي ثمامة الصائدي ، يوم العاشر من المحرّم حيث يلتفت إلى الإمام الحسين عليه السلام بعد أن يلتفت إلى الشمس ، فيقول : « نفسي لك الفداء أرى هؤلاء قد اقتربوا منك ، لا والله ، لا تقتل حتى أقتل دونك وأحب أن ألقى الله وقد صلّيت هذه الصلاة التي دنا وقتها »[2] . وهذا يذكرنا بكلام أمير المؤمنين عليه السلام في صفين ، عندما يراه عبد الله بن عباس ينظر إلى الشمس ، فيقول له : « يا أمير المؤمنين ما هذا الفعل ؟ قال : أنظر إلى الزوال حتى نصلي فقال له ابن عباس : وهل هذا وقت صلاة ؟ إن عندنا لشغلاً بالقتال عن الصلاة فقال : على ما نقاتلهم ؟ إنما نقاتلهم على الصلاة . . . »[3] . . . أبو ثمامة رضوان الله عليه عرف أن موقفه في كربلاء إنما هو لأجل الصلاة ، ولشدة حبه للصلاة أحب أن يصلي قبل أن يستشهد . . .

* وإذا بحثنا عن الشواهد على عبادة الكربلائيين خارج ساحة المعركة فسنجد في طليعة ذلك ما ورد حول مسلم بن عقيل رضوان الله تعالى عليه ، الفارس المقدام الذي كان يمسك الرجل ويلقي به إلى سطح البيت ، نراه وهو في بيت طوعة وقد جاءت خيل ابن زياد لمحاصرته مع ذلك لا يترك الدعاء الذي كان

---

(١) المصدر /٢١٧ .

(٢) المصدر /٢٤٣ .

(٣) سفينة البحار ٢/٤٤ (صلا) .

مشغـولاً به . يقـول النص : « . . . وعند الصبـاح أُعلم ابن زياد بمكـان مسلم فأرسل ابن الأشعث في سبعين من قيس ليقبض عليه ولما سمع مسلم وقع حوافـر الخيل عرف أنّه قد أتي فعجّل دعاءه الذي كان مشغولاً به بعد صلاة الصبـح ثم لبس لامته وقال لطوعة : قد أديت ما عليك من البرّ وأخذت نصيبك من شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولقد رأيت البارحة عمّي أمير المؤمنين في الجنة وهو يقول لي أنت معي غداً »[1] .

* وأشير هنا إلى أمرين :

الأول : أن النص الذي تقدم ذكره عن حبيب بن مظاهر رضوان الله عليه يقتضي أن تكون الشواهد على عبادة الكربلائيين كثيرة . . . ولكن ما وصلنا ـ في حدود ما تتبعت ـ ليس كثيراً . . . ومن الممكن أن نجد المزيد من الشواهد خارج ساحة المعركة من نـوع النص الذي ذكـر عن عبادة مسلم بن عقيـل رضوان الله عليه . . .

الثاني : إذا أخذنا مفهوم العبادة بمعناه الشمولي والواسع فسنجد الكثير من الشواهد غير ما تقدم . . .

سئل الإمام الصادق عليه السلام ما العبادة •

قال : « حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها »[2] هذه الرواية تبين لنا شمولية مفهـوم العبادة . . . ويمكن القـول إن العبادة هي كـل ما يـرتبط بالعبودية لله تعالى ، فمن يصلي ركعتين لله يقال إنه « تعبد » وعلى هـذا الأساس فإن تقديم النفس في سبيل الله تعالى بإخلاص هو من أهم مصاديق العبادة . . .

بناءً على ذلك . . . لا تنحصر الشواهد على عبادة الكربلائيين بـالنصوص التي تتحدث عن صلاتهم أو تهجدهم أو قراءة القرآن . . . بل تشمل كل مواقفهم رضوان الله عليهم . . .

* وفي هذا المجال نجد أنفسنا أمام نماذج جـديدة أذكـر منها نصـاً للشهيد

---

(١) المصدر /١٥٨ .

(٢) ميزان الحكمة ٦/١١ .

الكربلائي عابس بن شبيب الشاكري فقد قال لغلامه شوذب : « تقدَّم بين يدي أبي عبد الله عليه السلام حتى يحتسبك كما احتسب غيرك فإن هذا ـ وهنا محل الشاهد ـ يوم نطلب فيه الأجر بكل ما نقدر عليه »[1] .

إن الذي يبحث عن ثواب الله والأجر بين مشتبك القنا وصليل السيوف هو الذي أدرك أن الهدف من الخلق هو العبادة والتقرب إلى الله تعالى .

* بقي أن أشير إلى أن النصوص المتقدمة تم اختيارها من منطلق محاولة التعرف على عبادة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام . . . أما عبادته هو . . . وعبادة أهل البيت عموماً في كربلاء . . . فذلك شأن آخر . . . وأختم هنا بنص لسيد الشهداء عليه السلام حين اشتدّ به الأمر وأثخن بالجراح ، وأحاط به الأعداء من كل جانب ومكان بعد أن ضرب بالحجر على جبهته الشريفة وأصابه السهم الذي نبت في قلبه المبارك قال عليه السلام : « اللهم متعالِ المكان عظيم الجبروت شديد المحال غني عن الخلائق عريض الكبرياء ، قادر على ما تشاء ، قريب الرحمة ، صادق الوعد ، سابغ النعمة ، حسن البلاء ، قريب إذا دعيت ، محيط بما خلقت قابل التوبة لمن تاب إليك ، قادر على ما أردت ، تدرك ما طلبت شكور إذا شُكرت ، ذكور إذا ذُكرت ، أدعوك محتاجاً ، وأرغب إليك فقيراً ، وأفزع إليك خائفاً ، وأبكي مكروباً وأستعين بك ضعيفاً وأتوكل عليك كافياً . . . اللهم احكم بيننا وبين قومنا . . . فإنهم غرونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على الوحي فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً يا أرحم الراحمين ، صبراً على قضائك يا رب لا إله سواك يا غياث المستغيثين ما لي رب سواك ولا معبود غيرك ، صبراً على حكمك يا غياث من لا غياث له ، يا دائماً لا نفادَ له ، يا محيي الموتى ، يا قائماً على كل نفسٍ بما كسبت ، أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين »[2] .

* * *

(١) المقرم /٢٥١ .

(٢) نفس المصدر /٢٨٣ .



المرأة في كربلاء :

سئل الإمام الحسين عليه السلام لم يخرج النساء معه ؟ فقال : شاء الله أن يراهنّ سبايا ولا شك أن هناك أسباباً مهمة لهذه المشيئة من الله تعالى وهو الحكيم المطلق ما يمكن أن أفهمه في هذا المجال أن مجرد وجود حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كربلاء كان عنصراً أساسياً في إلقاء الحجة على الكوفيين الذين تخلّفوا عن نصرة الإمام عليه السلام ، وعندما نستعرض نصوص كربلاء نجد أن الدفاع عن حرم رسول الله كان عنواناً أساسياً في تلك الملحمة . . .

مثالاً على ذلك ليلة العاشر من المحرّم ـ كما تقدّم ـ عندما مشى نافع بن هلال الجملي وحبيب بن مظاهر وسائر الأصحاب لتطمين النساء ، كذلك في مختلف نصوص الكوفيين والكربلائيين

فإننا نجد حديثاً عن النسوة مما يدل على أن وجودهنّ كان عنصراً مؤثراً في كربلاء . . .

من جانب آخر لو فرضنا أن الإمام الحسين عليه السلام لم يصطحب النساء معه فمن كان سوف ينقل وقائع كربلاء ؟ صحيح أن الكوفيين كانوا سوف ينقلون ذلك ، إلا أنهم سيعبرون عن وجهة نظرهم الكوفية المتخاذلة مما يؤدي إلى ضياع كثير من الحقائق . . . وهذا الأمر في حد ذاته ـ أي حفظ مجريات كربلاء ـ هو مبرر كبير لوجود السبايا في كربلاء .

* ثم إن المسيرة التي قادها الإمام الحسين عليه السلام بإستشهاده كانت تتطلب إيقاظ الأمة على ما جرى في كربلاء لذلك فإن مواقف السبايا كانت مهمّة جدّاً في هذا المجال ، وهذا غير حفظ أحداث كربلاء فإن موكب السبايا قام بعملية توعية الأمة على ظلم الطاغية يزيد وأعوانه وقد تسأل :

ألم يكن بإمكان الإمام السجاد عليه السلام أن يقوم بهذه المهمة ؟

والجواب أولا : شاء الله تعالى أن يكون الإمام عليه السلام مريضاً لينجو من القتل ويحفظ الله تعالى بحفظه خط الإمامة . . .

وطبيعي أنه أثناء مرضه لن يستطيع القيام بكل أعباء هذه المهمة الإلهية العظيمة .

وثانياً : إن وجود السبايا في كربلاء والكوفة والشام شكل الغطاء الإلهي الذي حفظ الإمام عليه السلام من القتل . . . ولو لم يكن لوجود النساء والأطفال إلا هذه الفائدة ، لكان ذلك كافياً .

* أما دور النساء في الجهاد بشكل عام وليس فقط في واقعة الطف فهو دور أساسي بحيث يمكن أن يقال وبجرأة أن دور المرأة في الحث على الجهاد هو أعظم بكثير من دور الرجل ، وذلك لأن الذي يربي الأسرة تربية جهادية هو المرأة لا الرجل ، بحكم تواجدها شبه الدائم مع الأولاد بعكس الرجل يضاف إلى ذلك أن الخؤولة مؤثرة وأن خصائص الأم تكون الأبرز في الأولاد ، من هنا نجد أننا أمام حقيقة تقول أن الأم تطبع الأولاد بطابعها ، فالروح الجهادية عند الأم تنتقل مباشرة إلى الأولاد . لا يمكن أن نتصوّر جهاداً بدون تأثير مهمّ سلباً أو إيجاباً

للمرأة ، قد تكون المرأة تحمل روحاً جهادية فتؤثر إيجابياً في سير حركة الجهاد وقد لا تكون تحمل هذه الروح فتؤثر سلباً في حركة الجهـاد . من هنا نـدرك أهمّية أن تكون المرأة مجاهدة ، تعي البعد الجهادي في الإسلام ، أضف إلى ذلك أن المـرأة تتفـاعل مـع حقائق الجهـاد أكثر من الـرجـل والسبب في ذلـك أن الجهـاد إيثـار وتضحية ، والأم تدرك معنى الإيثـار ومعنى التضحية ، فحيـاتها عـامرة بمفـردات التضحية والجهاد والإيثار، مثلاً هي مستعدة أن يُشفى ولدها المريض وتكـون هي المريضة ، بطيب خاطر تتحمّل السهر وكل أنواع التعب من أجل ابنها ، هي تقوم بجهاد وتضحية مستمرّين تتعب دائماً لتستريح الأسرة . . . وفي الحديث الشريف « جهاد المرأة حسن التبعلّ » إشارة إلى أن ممارسة المـرأة لدورهـا البيتي هو جهـاد حقيقي . الأم يمكن أن تنسى نفسها بلا طعام إلا أنها لا تنسى ولدها وعندما يكبر الأولاد ويتزوجون ينسى كثير من الأولاد أمهاتهم إلا أن الأم لا تنسى أولادها ، هي في حالة تضحية مستمرة لذلك هي تفهم تضحية المضحّين في جبهـات الحق ضدّ الباطل .

وهناك جانب العاطفة والمشاعر الجياشة عند الأم ، ألم يتقدّم معنا أن الثورة هي حب لله تعالى ورسوله والجهاد في سبيل الله والناس ومعنى ذلك أن الأم باعتبار قوة جانب المشاعر والعـواطـف في تكوينهـا الذي يؤهلهـا للقيام بـدور الأمومـة ، تستطيع أن تتفاعل أكثر من الرجل مع الظلامة التي تقع ، إن هذا الجانب العاطفي عنـد المرأة يؤهلهـا لإدراك مهمّة المجـاهـدين ووظيفتهم والتـأثر للشهـداء الذين يستشهدون بدرجة تختلف عن تأثر وتفاعل الرجـل مما يجعـل المرأة حليفـة طبيعية للمجاهدين .

* أما بالنسبة لواقعة كربلاء فهناك نماذج زينبية للمـرأة المجاهـدة تبقى عبر الأجيال شامخة قدوة للمجاهدات والمجاهدين .

من هذه النماذج زوجة زهير بن القين رضوان الله عليه ، وزهير كما نعلم كان لا يحب أن يرى الإمام الحسين عليه السلام وكان يتهرّب من أن يجمعه مع الإمام مكان ، إلى أن اضطر أن ينزل مع الإمام في مكان واحد ، فدعـاه الإمام إليـه : « . . . وبينا زهير وجماعته على طعام صنع لهم إذ أقبل رسول الحسين يدعو زهيراً

إلى سيده أبي عبد الله عليه السلام فتوقف زهير عن الإجابة غير أن امرأته « دلهم بنت عمرو » حثته على المسير إليه وسماع كلامه »[1] .

وبعد موقف زوجة زهير واستجابته لطلبها تلبية دعوة الإمام الحسين رجع متغيّراً وقد قرّر الإلتحاق بالإمام فقالت له تلك الزوجة العظيمة : خار الله لك وأسألك أن تذكرني يوم القيامة عند جد الحسين عليه السلام[2] . وهذا يدل على إيمان غير عادي عند هذه المرأة الطاهرة ، إنها ترى زوجها يتباطأ عن نصرة الإمام الحسين عليه السلام والشهادة بين يديه فتدفعه لذلك ثم تودعه وداع من يعرف أنه يستشهد . . . فلا تزيد عن أن تطلب منه أن يذكرها عند جد الحسين عليه السلام ! !

إن موقف زوجة زهير يجعلنا أمام تأثير المرأة في الحث على الجهاد وكم هو مهم أن تكون المرأة عوناً للرجل على الشهادة ولقاء الله وكم هو خطر أن تكون المرأة مثبطّة عن ذلك .

ينبغي أن نفهم الزواج منطلقاً إلى رضوان الله تعالى . . . والشراكة الزوجية على هذا الأساس شراكة في الحث على طاعة الله ، والتكامل النفسي الإيماني ، بمعنى أن الزوجين يتفقان على أن يكون كل منهما عوناً للآخر يحثه على الطاعة بالحسنى إذا رأى منه تقصيراً ، ويكون ذلك هدفهما المشترك . . . ومحور كلامهما . . . هل نغتاب . . . هل نصلي أول الوقت . . . هل نصلي صلاة الليل . . . هل تحكم حياتنا روح التسامح الخ . . .

* نموذج آخر من نماذج المواقف الزينبية « أم وهب » كانت مع زوجها في كربلاء يقول النص : « . . . وخرج يسار مولى زيد وسالم مولى عبيد الله بن زياد فطلبا البراز فوثب حبيب وبرير فلم يأذن لهما الحسين فقام عبد الله بن عمير الكلبي من « بني عليم » وكنيته أبو وهب وكان طويلاً شديد الساعدين بعيد ما بين المنكبين ، شريفاً في قومه ، شجاعاً مجرباً فأذن له (الإمام عليه السلام) وقال : أحسبه للأقران قتالاً . . . »[3] . وخلاصة بقية النص أنه اشتبك مع رجلين

---

(١) المقرم /١٧٧ .
(٢) نفس المصدر /١٧٨ .
(٣) المصدر /٢٤٢ .

فقطعت أطراف أصابع يده اليسرى ، ثم رجع إلى الإمام وقد قتل الرجلين كما يظهر من النص فاستقبلته زوجته أم وهب وقد أخذت عموداً وهي تقول له : « . . . فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يردّها إلى الخيمة فلم تطاوعه وأخذت تجاذبه ثوبه وتقول : لن أدعك دون أن أموت معك فناداها الحسين جزيتم عن أهل بيت نبيكم خيراً ، ارجعي إلى الخيمة فإنه ليس على النساء قتال فرجعت »[1] . مثل هذه المرأة الطاهرة تستحق الشهادة . . . فهي لا تكتفي بحث زوجها على الجهاد والإستشهاد بل إنها تصر على أن تموت معه . . . وهذا ما حصل . . .

فقد حمل الشمر في جماعة على ميسرة الحسين عليه السلام . . . فثبتوا لهم و « قاتل عبد الله بن عمير الكلبي فقتل تسعة عشر فارساً واثني عشر راجلاً وشد عليه هاني الحضرمي فقطع يده اليمنى وقطع بكر بن حي ساقه فأخذ أسيراً وقتل صبراً » فماذا فعلت زوجته . . . ؟

يضيف النص : « فمشت إليه زوجته أم وهب وجلست عند رأسه تمسح الدم عنه وتقول : هنيئاً لك الجنة أسأل الله الذي رزقك الجنة أن يصحبني معك !! فقال الشمر لغلامه رستم : اضرب رأسها بالعمود فشدخه وماتت مكانها وهي أول امرأة قتلت من أصحاب الحسين »[2] استجاب الله تعالى دعاءها . . . ولم يحرمها الجنة وصحبة زوجها شهيدة مثله .

* كما نجد أن أم هذا الشهيد وقفت موقفاً كريماً فعندما استشهد ابنها واستشهدت زوجته قطع رأس ابنها ورمي به إلى جهة الحسين فأخذته أمه ومسحت الدم عنه ثم أخذت عمود خيمة وبرزت إلى الأعداء فردّها الحسين وقال : ارجعي رحمك الله ، فقد وضع عنك الجهاد ، فرجعت وهي تقول : اللهم لا تقطع رجائي فقال الحسين عليه السلام : لا يقطع الله رجاءك[3] .

* موقف كربلائي آخر وقفته امرأة من آل بكر بن وائل بعد مقتل الإمام

---

(١) المصدر / ٢٣٨ .

(٢) المصدر / ٢٣٩ .

(٣) نفس المصدر / ٢٣٩ .

الحسين عليه السلام حيث نظرت إلى بنات رسول الله والأعداء قد هجموا على خيمهن للسلب والنهب فصاحت : « يا آل بكر بن وائل أتسلب بنات رسول الله لا حكم إلا لله ، يا لثارات رسول الله فردها زوجها إلى رحله »[1] .

صحيح أن موقف هذه المرأة لم يقدم ولم يؤخر . . . إلا أنها بالتالي صرخت وسجلت موقفاً قد يكون سبب دخولها الجنة . . .

* كذلك نجد في السياق الكربلائي موقف طوعة العظيمة التي أقدمت على إيواء مسلم بن عقيل حين جبن عنه جند « دار الجند » . . . وموقف بنت عبد الله بن عفيف الأزدي التي كانت نعم العون لأبيها في مواجهته لجلاوزة ابن زياد ورغم أنه كان مكفوف البصر . . . كما سيأتي . . .

* وقد تقدم في مطاوي الأحاديث السابقة موقف المرأة التي استشهد زوجها في كربلاء ورغم ذلك أمرت ابنها أن يدافع عن سيد الشهداء ويستشهد بين يديه . . .

* كل ذلك يكشف عن حضور مؤثر للمرأة في كربلاء . . . ويشير إلى موقعها الطبيعي في حركة الجهاد في سبيل الله تعالى . . . بل لا يمكن أن يكتب النجاح لحركة جهادية إذا لم تستطع تعبئة المجتمع كله بجميع شرائحه ومن أهمها في المواجهة مع الطواغيت . . .

* * *

(١) المصدر /٣٠١ .

* الحلقة الخامسة عشرة

* السيدة زينب عليها السلام ...

* أ ـ قبل شهادة الإمام الحسين عليه السلام

السيدة زينب عليها السلام :

* كانت ولادة السيدة زينب عليها السلام في السنة الخامسة للهجرة[1] وهناك أقوال أخرى . . . وهذا يعني أنها عاشت في ظل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حوالي الخمس سنوات ، أي أنها نشأت في ظل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي ظل أمير المؤمنين والزهراء وبوجود الحسنين ، نشأت في بيت أهل البيت الذي كان يكثر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من التردد إليه والحديث مع ساكنيه ، والإختلاء بهم . . . فإذا جئنا إلى بعض الخصوصيات ، نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام ـ وهذا أمر طبيعي إلا أننا نبحث عن شاهد عليه ـ كان يجلس زينب في طفولتها ويحدثها ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه

(١) زينب الكبرى للشيخ جعفر النقدي /١٨ .

وآلـه وسلم يعـطيهـا من وقتـه ،وهــذا العنصر مهم لبنــاء شخصيتـهــا ويسـلط الضوء على الجو الذي نشأت فيه السيدة زينب سلام الله عليها .

* من طريف ما ينقل أنها عليها السلام في طفولتها كانت جالسة في حجـر أبيها وهو عليه السلام يلاطفهـا بالكلام فقال لها : يا بنية قولي واحد فقـالت : واحد فقـال لها : قولي اثنين ، فسكتت فقال لها: تكلمي يا قرّة عيني ، فقالت عليها السلام : ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجـريته بـالواحـد ، فضمّها صلوات الله عليـه إلى صدره وقبّلها بين عينيها[1] . وروي أن هذا السؤال كان من أمـير المؤمنين لـولده العباس عليهما السلام . . . طبعاً من يدرك عمق التوحيـد وتأثـيره على تصرّفـات المؤمن يستطيع أن يعرف معنى هذا الكلام . . .

* أيضاً نجد أن زينب عليها السلام قـالت لأبيها : أتحبّنـا يا أبتـاه ؟ فقال عليه السلام : وكيف لا أحبّكم وأنتم ثمرة فؤادي ، فقالت عليها السلام : يا أبتاه إن الحبّ لله تعالى والشفقة لنا . . . يقول الشيخ جعفر النقـدي الذي نقلت عن كتابه « زينب الكبرى » هذين النصّين يقول : وهـذا الكلام عنهـا عليها السـلام روي متواتراً وإذا تأمله المتأمل رأى فيه علماً جمّاً فإذا عرف صدوره من طفلة كزينب عليها السلام يومذاك بانت له منزلتها في العلم والمعرفة[2] .

* ويلاحظ هنا التربية التي كان يوليها أمير المؤمنين عليه السلام لأطفاله مما يجعلنا نقف عند ضرورة تربيتنا لأطفالنا ، فكثيراً ما ينشغل العامـل في سبيل الله عن أطفاله ، ويكون كما يقال : كالشمعة التي تضيء ما ابتعـد عنها ويبقى مـا في جوارها مظلماً ، مهم جدّاً أن ندرك حقيقة قوله تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** ﴾ وبالنسبـة لأهل البيت عليهم السـلام طبيعي أن تكون عنايتهم بأطفالهم بالمستوى المطلوب . . .

* أيضـاً نجد أن زينب عليهـا السلام حـظيت بـالـرعـايـة من رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت مثلاً ترى مناماً فتأتي إلى رسول الله وتقصّه عليه ، أن يكون لزينب هذا المتسّع من وقت المصطفى صلى الله عليـه وآله وسلم تحـدّثه

---

(١) نفس المصدر / ٣٥ .

(٢) نفس المصدر / ٣٥/ ٣٦ .

بمنامها فهذا أمر مهمّ ، يقول النص على لسان زينب عليها السلام : يا جداه رأيت البارحة رؤيا أنها انبعثت ريح عاصفة سوّدت الدنيا وما فيها وأظلمتها وحرّكتني من جانب إلى جانب فرأيت شجرة عظيمة فتعلّقت بها من شدّة الريح ، فإذا بالريح قلعتها وألقتها على الأرض ، ثم تعلّقت على غصن قوي من أغصان تلك الشجرة فقطعتْها أيضاً ، فتعلّقت بفرع آخر فكسرتْه أيضاً ، فتعلّقت على أحد الفرعين من فروعها فكسرته أيضاً ، فاستيقظت من نومي . . . فبكى صلى الله عليه وآله وسلم وقال : الشجرة جدّك والفرع الأول أمّك فاطمة ، والثاني أبوك علي ، والفرعان الآخران هما أخواك الحسنان ، تسوَدُّ الدنيا لفقدهم وتلبسين لباس الحداد في رزيتهم[1] . . . ومن الواضح أن هذا المنام يلخص حياة السيدة زينب عليها السلام وهو يكشف عن قوة نفسها وصفائها سلام الله عليها .

* أيضاً من مظاهر اهتمام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالسيدة زينب عليها السلام أنه تولّى تسميتها ، تقول الرواية : . . . جاءت بها أمها إلى أمير المؤمنين فقالت : « سمّها قال : ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان في سفر فلما جاء قال : ما كنت لأسبق ربي تعالى ، فهبط جبرئيل يقرىء النبي السلام ويقول : سمّها زينب فقد اختار الله لها هذا الاسم ، ثم أخبره بما يجري عليها من المصائب فبكى النبي وقال : من بكى على مصاب هذه البنت كان كمن بكى على أخويها الحسن والحسين »[2] .

* ومن النصوص التي تكشف عن نشأتها عليها السلام ، أنها عندما توفيت الزهراء سلام الله عليها ، خرجت زينب عليها السلام تقول : يا أبتاه يا رسول الله الآن عرفنا الحرمان من النظر إليك[3] . . .

إن كلامها هذا عليها السلام وهي في السادسة من عمرها يدل على النشأة الـ[illegible] في نشأتها والبعد العقائدي في ارتباطها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إضافة إلى البعد العاطفي . . . فهي لا تكتفي بقولها يا أبتاه أو يا جداه بل تقول

---

(١) نفس المصدر /١٩ .

(٢) نفس المصدر /١٧ .

(٣) المصدر /١٨ .

« يا رسول الله » وكأنها ببقية كلامها تشير إلى وصايا المصطفى المتكررة بالزهراء عليها السلام وأنها بضعة المصطفى من آذاها فقد آذاه .

*** زواجها عليها السلام :**

قبل الحديث عن زوج السيدة زينب عليها السلام عبد الله بن جعفر أودّ التحدّث باختصار عن والده جعفر بن أبي طالب ومكانته عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقدكان يحظى بعناية خاصة منه صلى الله عليه وآله وسلم ، جعفر كان على درجة عظيمة من الإيمان والتقوى والورع وعندما قدم من الحبشة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فتح خيبر ، يقول المصطفى فيما روي عنه : ما أدري بأيهما أنا أسرّ ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[1] . ومما يدل على سموّ مرتبته أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له : (ألا أعطيك) ، ألا أحبوك فظن المسلمون أنه سيعطيه مالاً ، فاشرأبت أعناقهم فإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعطيه صلاة جعفر الطيار ، وهو عطاء يكشف عن نوعية المعطى له . . .

بل نجد في الروايات ما يكشف عن مكانة فريدة لجعفر رضوان الله عليه من ذلك قول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : سادة أهل المحشر سادة أهل الدنيا أنا وعلي وحسن وحسين وحمزة وجعفر ، وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم بعد استشهاد جعفر : على مثل جعفر فلتبك الباكية[2] .

ولجعفر رضوان الله عليه مواقف خالدة في المجال السياسي عندما واجه وفد قريش في الحبشة وفي المجال العسكري خصوصاً في غزوة مؤتة السنة الثامنة للهجرة حيث استشهد . . .

هذه المكانة لجعفر تجعل حب المصطفى والمرتضى لابنه عبد الله أمراً طبيعياً . يقول عبد الله بن جعفر : أنا أحفظ حين دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أمي فنعى إليها أبي ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخي وعيناه تهرقان

---

(١) أعيان الشيعة ١/٢٧٢ .

(٢) النصان من أعيان الشيعة ٤/١٢٥ .

بالدمع[١] .

كما نجد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يلاطف عبد الله بن جعفر في طفولته . يروى أنه صلى الله عليه وآله وسلم وجد عبد الله يبني بيوتاً صغيرة من تراب فدعا له أن يرزقه الله تعالى ويوسع عليه ويقال أن هذا كان سبب غناه . . .

* عبد الله بن جعفر ابن أخ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن الطبيعي أن تكون خصوصيات جعفر موجودة في ولده ، لذلك فإن الكفؤ الطبيعي المتصوّر للسيدة زينب عليها السلام هو عبد الله . . . وموقفه من نصرة الإمام الحسين عليه السلام بشكل خاص يؤكد أن هذه الخصوصيات كانت موجودة فيه ولذلك فمن الطبيعي أن لا تتزوّج السيدة زينب غير عبد الله ، ومن المفيد هنا أن نتذكر أن أم عبد الله هي المرأة الصالحة الطاهرة أسماء بنت عميس رضوان الله عليها ، وهي من « القانتات العابدات ، روت الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعن علي والزهراء وروى عنها كثيرون »[٢] ومن الطبيعي أن يكون عبد الله امتداداً لأبيه وأمه ، خاصة وأنه أتيح له أن ينشأ تحت رعاية المصطفى وأهل البيت عليهم السلام فقد روي أن « عبد الله بن جعفر صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحفظ حديثه ثم لازم أمير المؤمنين والحسنين عليهم السلام وأخذ منهم العلم الكثير »[٣] .

* وهناك نصّ يقول: أن أمير المؤمنين عليه السلام اشترط على عبد الله بن جعفر عند تزويجه زينب عليها السلام أن يأذن لها بالخروج إلى كربلاء مع الإمام الحسين عليه السلام .

وهذا ليس مستبعداً ، باعتبار أن كربلاء كانت شأناً معروفاً تماماً بين المسلمين بشكل عام وعند أهل البيت بشكل خاص . المهم أن موقف عبد الله بن جعفر كان موقفاً إيجابياً جدّاً وهو متوقع من هذا الرجل العظيم الذي كان شديد

---

(١) نفس المصدر .
(٢) زينب الكبرى للنقدي / ٧٧ .
(٣) نفس المصدر / ٧٩ .

الولاء للمصطفى وأهل البيت وكان شديد العداء لأعداء الله عزّ وجل وأعداء المصطفى وأهل بيته وقد نقلت عنه مناظرات غاية في الأهمية ، منها أنه في بعض مجالس معاوية أراد عمرو بن العاص أن يستفزه فلم يعبأ به ووجه كلامه إلى معاوية فأسمعه ما لم يخطر له على بال . . . ثم خرج مغضباً رغم محاولات معاوية إرضاءه[1] .

وقد التزم عبد الله بن جعفر بمضمون هذا الشرط وإن كنا نجد في بعض النصوص أنه ـ بدافع حبه للإمام عليه السلام ـ حاول عبد الله في بداية الأمر أن يقنع الإمام بالإنصراف عن فكرة الخروج إلى العراق كما فعل غيره (محمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر) وعندما لم يوافق الإمام أمر عبد الله ولديه بالإلتحاق بالإمام ليكونا معه ، ويدافعا عنه . . .

أما لماذا لم يخرج بنفسه مع الإمام ، فهناك نص يذكر بلهجة « قيل » أن عبد الله كان مكفوف البصر[2] وعلى أي حال فمن البعيد جداً أن يكون عبد الله بن جعفر قادراً على الخروج ولم يخرج ، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد بن الحنفية الذي روي أنه كان مريضاً . . . كما روي أن يده كانت مشلولة[3] .

* ومن الجدير بالذكر أن عبد الله بن جعفر رضوان الله عليه ، كان مضرب المثل في السخاء والكرم . . . كما كان واسع الثراء . . . حتى أنا نجد أن الزبير استدان منه مليون درهماً ، من هنا نستطيع أن نعرف أن البيت الذي تركته السيدة زينب عليها السلام ـ كما سيأتي ـ كان من الناحية المادية منّعماً . . .

وهذا بالنسبة إليها عليها السلام أمر طبيعي جداً فهي ابنة مولى المتقين الذي لم تكن الدنيا تشكل عنده شيئاً . . . وكانت الخلافة أهون عنده من شسع نعل . . .

إلا أن من يريد الإقتداء بزينب العقيلة عليها السلامَ . . . ويكون في بيئة

---

(١) نفس المصدر /٨٣ .
(٢) نفس المصدر /٨٧ .
(٣) نفس المصدر /٩ .

مترفة منعمة . . . يستطيع أن يستفيد من هذا الدرس . . . فلا تعود الثروة قادرة أن تفصله عن نصرة الإسلام والموقف الكربلائي .

*** على عتبة كربلاء :**

انتقلت السيدة زينب عليها السلام ، إلى بيت الإمام الحسين ، قبل خروج الإمام من المدينة ، وأشير هنا إلى العلاقة الخاصة التي كانت قائمة بين السيدة زينب وأخيها سيد الشهداء عليه السلام في صغرهما . . . كانت زينب عليها السلام لا تجلس إلا بجانبه . . . « وقد أخبرت الزهراء عليها السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فبكى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخبرها بمصائب زينب وما يجري عليها، واشتراكها مع الإمام الحسين عليه السلام في النائبات »[1].

وإذا وضعنا هذا الحب الذي كانت تحمله زينب للإمام الحسين . . . إلى جانب المنام الذي كانت قد رأته في طفولتها . . . فمن الطبيعي أن تنتقل إلى بيته لتكون معه ، وتعيش معه كل الأجواء . . . وتقوم بما يمكنها القيام به لأنها كانت تعلم أنها أصبحت تقف على أعتاب كربلاء . . . وهي مدخرة لهذا اليوم شأنها في ذلك شأن أبي الفضل العباس عليهما السلام .

* « عندما كانت السيدة زينب في بيت الإمام وقبل خروجها من المدينة يأتي عبد الله بن عباس ليقنع الإمام الحسين عليه السلام بعدم الخروج إلى الكوفة ، فلا يوافق الإمام فيقول له ابن عباس : جعلت فداك يا حسين إن كان لا بد من الخروج إلى الكوفة فلا تسر بأهلك ونسائك . فقال عليه السلام : يا ابن العم إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامي وقد أمر بأمر لا أقدر على خلافه وأنه أمرني بأخذهم معي . وقال يا ابن العم : إنهن ودائع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا آمن عليهن أحداً وهن أيضاً لا يفارقنني . فسمع ابن عباس بكاء من ورائه وقائلة تقول : يا ابن عباس تشير على شيخنا وسيدنا أن يخلّفنا ههنا ويمضي وحده ، لا والله بل نحيا معه ونموت معه ، وهل أبقى الزمان لنا غيره ؟ وكانت المتكلمة بهذا الكلام هي زينب عليها السلام . . . فبكى ابن عباس

---

(١) نفس المصدر/٩٥ .

بكاء شديداً . . . »[1] .

* وفي منطقة اسمها « الخزيمية » في الطريق إلى كربلاء أقبلت السيدة زينب عليها السلام صباحاً إلى الإمام الحسين عليه السلام فقالت : يا أخي ، ألا أخبرك بشيء سمعته البارحة فقال الحسين عليه السلام : وما ذاك يا أختاه ، فقالت : إني سمعت الليلة هاتفاً يقول :

ألا يا عين فاحتفظي بجهد ومن يبكي على الشهداء بعدي
على قومٍ تسوقهم المنايا بمقدارٍ إلى إنجاز وعد

فقال لها الحسين عليه السلام : يا أختاه : كل الذي قضي فهو كائن . فاغرورقت عيناها بالدموع وسكنت على نفسها مخافة أن يحس بذلك أحد من العيال[2] .

* أما بخصوص ما قامت به السيدة زينب عليها السلام في بيت أخيها وأثناء الطريق مع النساء من دور توجيهي فلم أجد نصوصاً كافية في هذا المجال ، لكن من الطبيعي جداً أن أم سلمة والسيدة زينب والنساء المدركات لخطورة المرحلة كان لهن الدور الهام في تلك المرحلة في وسط النساء ، غير أن قِصر الفترة التي تفصل بين وصول طلب يزيد البيعة من الإمام الحسين ، وخروج الإمام من المدينة يحول دون أن تكون هناك أنشطة للنساء تظهر في النصوص ، فحركة الخروج من المدينة كانت حركة خفيّة وسريعة بسبب نيّة اغتيال الإمام من قبل يزيد الذي كان أكثر ما يخاف على عرشه من الإمام الحسين عليه السلام وأراد الأمويون أن يكون الإغتيال سريعاً حتى « لا تتّام إليه شيعته » . أمام هذا القرار كان غاية ما يمكن أن يفعله الإمام هو أن يحرّك الناس ويخبرهم بما سيجري ضمن الحدود المتاحة له . وفي حدود تتبعّي للنصوص لم أجد ما يتحدّث عن طبيعة عمل السيدة زينب قبل خروجها من المدينة مع الإمام إلا أن ما تقدّم من قولها لابن عباس : « وهل أبقى الزمان لنا غيره ، بل نحيا معه ونموت معه » كلام مهمّ جدّاً ويسلط الضوء على الدور التعبوي الذي كانت تقوم به عليها السلام .

---

(١) نفس المصدر / ٩٤ .

(٢) نفس المصدر / ٩٥ .

*** الحضور الدائم :**

أما عن دور السيدة زينب عليها السلام إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء وما قبلها في المدينة وأثناء الطريق فهو دور طليعي ومهمّ جداً ، لقد كانت بجانبه دائماً إلى حد أننا نتذكر من خلال مواقفها الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشأن ابنته فاطمة عليها السلام حيث يقول « فاطمة أم أبيها » السيدة زينب كانت « أم أخيها » ، والمتتبّع للنصوص يرى بوضوح كيف كانت السيدة زينب تغمر أخاها باللطف والحنان والمحبّة في مختلف الظروف والمراحل فنجد أنها في الطريق تحدّث الإمام الحسين عليه السلام بكلام الهاتف الذي سمعته .

أو أنها عندما تسمع الإمام يقول :

يا دهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من طالب وصاحب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل ... وكل حي سالك سبيلي
ما أقرب الوعد من الرحيل ... وإنما الأمر إلى الجليل

تتقدم عليها السلام فتقول لأخيها : واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة . . . اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن يا خليفة الماضي وثمال الباقي . . .

فعزاها الحسين وصبرها وكان مما قال :

« يا أختاه تعزي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وكل شيء هالك إلا وجهه ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة »[1] .

وظلت عليها السلام إلى جانب أبي عبد الله في مختلف التطورات . . .

عندما استشهد علي الأكبر رضوان الله عليه تخرج السيدة زينب إلى خارج الخيمة وتنعي ابن أخيها ، يقول بعض الموالين بأن السيدة زينب في موقفها هذا أرادت أن تخفّف وطأة المصيبة على الإمام الحسين باعتبار أن حبه لولده علي الأكبر

---

(١) مقتل المقرم / ٢١٧ .

كان كبيراً . . . فلم ترد أن تتركه وحيداً يفكر بشهادة عـزيزه عـلي الأكبر ولـذلك خرجت من الخيمة خوفاً من شدة وقع المصيبة على سيد الشهداء عليه السلام .

* كما كانت عليها السلام تحدث أخاها حول شؤون المعركة فتسأل إن كان قد استعلم من أصحابه نياتهم . . . وتبين أن الدافع لها إلى هذا السؤال هو خوفها من تخليهم عن الإمام حين تدور رحى المعركة . . .

يتضح من ذلك أن السيدة زينب كانت إلى جانب أخيها في مختلف الظروف والمراحل وكانت حقّاً « أم أخيها » وكان منطقها منطق أخيها الحسين عليه السلام « هوّن ما نـزل بي أنه بعـين الله » . . . ويشتد حضـور زينب عليها السـلام كلما اشتدّت حلقة الحصار على الإمام عليه السلام . . . وعندما رأى سلام الله عليـه مصارع أحبّته عزم على لقاء القوم بمهجته ونادى : هـل من ذاب يَذبّ عن حـرم رسول الله هل من موحّد يخاف الله فينا . . . فـارتفعت أصوات النسـاء بالعـويل فتقدم إلى باب الخيمـة وقال لـزينب عليها السـلام : ناوليني ولـدي الصغير حتى أودّعه ، فأخذه وأومأ إليه ليقبلّه ، فرماه حرملة بن كاهلة الأسدي بسهم فوقع على نحره فذبحه فقال لزينب : خذيه ثم تلّقى الدم بكفيه ثم قال : هوّن علي ما نزل بي أنه بعين الله تعالى . . .

ويلاحظ هنا أن السيدة زينب عليها السلام كانت حـاضرة بجانب الإمـام بحيث يطلب الطفل منها ويردّه إليها ، ولئن كان طلب الطفل منها أمراً عادياً فإن ردّه إليها مذبوحاً يكشف عن ثقة الإمام عليه السلام بـرباطـة جأشهـا وثباتهـا في مواجهة المصائب . . . من هنا فإن من الضروري أن تفسر جميع النصوص الواردة عنها عليها السلام والتي يظهر منها غلبة العاطفة عليها . . . بما لا يتنافى مع صبرها عليها سلام الله ورضاها بقضاء الله تعالى . . .

لقـد كـانت تلك النصـوص تصـدر عنهـا قبـل أن يحمى الـوطيس ويجـد الجد . . . آنذاك كانت تجد متسعاً من الوقت لتعـبر عن عظيم المصيبـة التي هي مقبلة عليها والتي جددت مصيبتهـا بالمصـطفى والمرتضى والـزهراء والمجتبـى كـما صرحت هي بذلك . . .

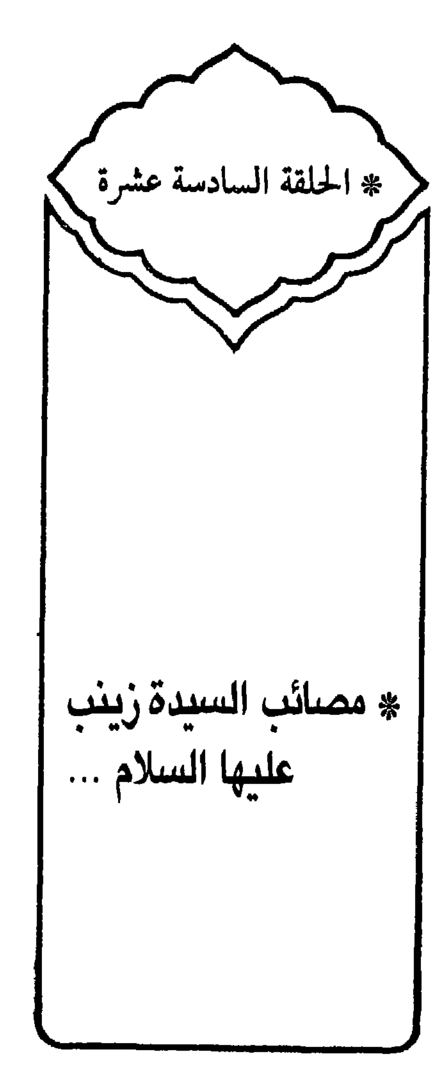
ورغم هذا كله فإنها لم تكن تسمح لنفسها أن يؤثـر موقفهـا سلباً عـلى من

حولها لذلك نجد في النص المتقدم « وسكنت على نفسها مخافة أن يحس بذلك أحد من العيال » .

* يبقى أن أشير في هذا السياق إلى أن أول مسيرة عـاشورائيـة . . . التي شهدتها كربلاء نفسها ـ كما تقدم ـ كانت نتيجة الحركة التعبوية التي قامت بها زينب عليها السلام . . . فعندما سمع نافع بن هلال الجملي كلامهـا مع سيـد الشهداء تأثر كثيراً ونقل ذلك لحبيب بن مظاهر الذي بادر إلى جمع أبطال كربـلاء من غير العلويـين لتجديـد البيعة لسيـد الشهداء سـلام الله عليه وتـطمين السيـدة زينب والهاشميات وقد تقدم ذكر للنص فليراجع .

* * *





السيدة زينب بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام :

* عندما نفكر بمجريات الأحداث بعد الإمام الحسين عليه السلام فمن الطبيعي جداً أن يتجه التفكير مباشرة إلى الإمام السجاد عليه السلام باعتبار أنه حجّة الله تعالى على الناس بعد سيد الشهداء ، ولكن باعتبار أنه سلام الله عليه كان مريضاً ، وباعتبار أن السيدة زينب هي المكلّفة بكل المهام حتى أنها « كانت لها نيابة خاصة عن الإمام الحسين عليه السلام وكان الناس يرجعون إليها في الحلال والحرام حتى بريء زين العابدين من مرضه »[1] أي أنها سلام الله عليها كانت في تلك الفترة بمنزلة الإمام .

لذلك يصبح الحديث عن السيدة زينب أولاً ، أمراً لا يتنافى مع رعاية الأدب مع الإمام السجاد عليه السلام .

بالنسبة للمصائب التي مرّت على

---

(١) زينب الكبرى النقدي/ ٣٥ .

السيدة زينب بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، يقف بعض المحققين[1] عند المقارنة بين المصائب التي واجهها الإمام الحسين والتي واجهتها السيدة زينب عليها السلام فيقول: «إن زينب عليها السلام واجهت من المصائب أضعافاً مضاعفة، فإنها شاركته في جميع مصائبه وانفردت عنه عليه السلام بالمصائب التي رأتها بعد قتله من النهب والسلب والضرب وحرق الخيام والأسر وشماتة الأعداء ثم يقول: أما القتل فإن الحسين عليه السلام قتل ومضى شهيداً إلى روح وريحان وجنة ورضوان وكانت زينب في كل لحظة من لحظاتها تقتل قتلاً معنوياً بين أولئك الظالمين وتذرف دماء القلب من جفونها القريحة»[2]. هذا الكلام منطقي وطبيعي وأضيف إليه أن السيدة زينب لم تشارك الإمام الحسين فقط في مصائبه وإنما شاركت في كل مصائب أهل البيت عليهم السلام ولذلك كان طبيعياً قول الشاعر:

بأبي التي ورثت مصائب أمّها   فغدت تقابلها بصبر أبيها

مصائب أهل البيت تجمعت في مصاب زينب... وصبرهم تجسد في صبرها، فلندخل إذن في خصوصيات هذه المصائب لكي نذكّر أنفسنا بها وهنا أود أن أوضح أن نسيان السيدة زينب والسبايا في أيام السبي هو أمر لا ينسجم مع الولاية لأهل البيت عليهم السلام وإن الحرص على مواكبة أهل البيت في سبيهم ومصائبهم والتذكر الدائم لهذه المصائب يجعل المرء مؤهلاً أكثر للجهاد في سبيل الله ونحن عندما تواجهنا الفتن والإبتلاءات نكون بحاجة كبيرة للرجوع إلى الرسول وأهل بيته عليهم السلام كي نبقى كربلائيين، ونحن نحرم أنفسنا من خير كثير عندما نقطع علاقتنا بعاشوراء في اليوم العاشر من محرم ولا نعيش مع المصطفى وأهل البيت حزنهم على السبايا وما جرى عليهم بعد عاشوراء.

* إذا أردنا أن ندخل في مفردات مصائب السيدة زينب عليها السلام فهناك مفردات كثيرة، يذكر الشيخ النقدي قائمة بها... منها:

١ ـ ما رأته أول ما نزلت في كربلاء من اعتراض الحر طريق الإمام عليه السلام.

٢ ـ كذلك ما شاهدته من القلّة في أصحاب أخيها وكثرة جيوش الأعداء.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر/ ٩٧.

٣ ـ ومنها ما كـان من تفرّق النـاس عن الإمام الحسـين عليه السـلام (في الطريق إلى كربلاء) .

٤ ـ ومنها أيضاً ما كانت تشاهده من اضطراب النساء وخوفهنّ حين نـزلوا كربلاء .

٥ ـ ومنها عطشها وعطش أهل بيتها[1] (وسائر أصحاب الإمام عليه السلام ورؤيتها اضطراب الأطفال من العطش . . . خصوصاً عبد الله الرضيع وذبحه في حضن أبيه) .

وعـلى هـذه فقس مـا سواهـا وهي مفردات كثـيرة جداً بـل لـو لم يكن إلا استشهاد أحبتها واحداً بعد واحد . . . لكفى . . .

بـلى لو لم يكن إلا أنها تتـذكر دائـماً أن الإمام الحسـين عليـه السـلام بقيـة رسول الله وأمير المؤمنين والزهراء عليهم الصلاة والسـلام سوف يقتل وهي تـراه أمامها عطشاناً لكفى . . .

ثم أن هناك أموراً غير منظورة لا يسجلها التاريخ أتصور مثلاً أنه عندما قال ذلـك الشقي للإمـام : يا حسـين أبشر بالنـار أو غير ذلـك مما واجهـوا بـه سيـد الشهداء . . . فإنها عليها السلام كانت تنفجر بالبكاء بـل حتى عندمـا تسمع من يقول « أمير المؤمنين يزيد » وكثير من ألوان المعانـاة هذه التي لا يسجلهـا التاريـخ عـادة ولن يستطيـع إدراك عمق هذه المعـاناة إلا المجـاهدون الـذين يحملون هم الإسلام ويسطرون أروع الملاحم ثم يرون جهودهم تسرق وينبري للتطاول عليهـم من اهتـدى لـلإسـلام بجهـادهم . . . كـذلـك كـان حـال السيـدة زينب في كربلاء . . .

وطبيعي أن نقف في حديثنا عن مصائب السيدة زينب عليهـا السلام عنـد مصابها بأبي الفضل العباس ، ليتصور أحدنا أن السيـدة زينب واقفة أمـام جسد العباس فبماذا تراها تفكّر ؟ أبو الفضـل قطيـع اليدين والمصـاب في رأسه بعمـود الحديد الذي استشهد وفي قلبه حسرة . هذه الحسرة التي كـانت في قلب العباس لا شك أنها أثرت كثيراً في قلب السيدة زينب ، أقصد حسرة العباس عندما قطعت

---

(١) نفس المصدر/ ٩٦ .

يداه الطاهرتان وهو يرى معسكر الإمام أمامه وهو لم يعد يستطيع الدفاع عنه ولا إيصال الماء إليه . . .

ربما كانت هذه الحسرة هي السبب الذي جعله سلام الله عليه يحمل السيف بأسنانه ليواصل القتال . . .

بماذا فكرت السيدة زينب يا ترى حين وقفت أمام جسد أبي الفضل ورأته على تلك الحال . . .

* كذلك مصابها بعلي الأكبر . . . وكأني بها عليها السلام حائرة هل تحزن لفراقه ؟ أم تحزن لما تركته شهادته من أثر كبير في نفس سيد الشهداء . . . فيتولد من هذا الحزن وذاك مزيج حزن لا يمكن وصفه ولا إدراكه . . .

* كذلك تجدد مصابها بالإمام الحسن عليه السلام وهي ترى ابنه القاسم يستشهد في كربلاء وهو في مقتبل العمر . . .

* كذلك مصابها بولديها حين استشهدا في كربلاء[1] وعلى رواية ثانية ولدها وأخيه من أبيه[2] .

* ولا ننسى أنها عليها السلام كانت تخفي غصصها وأحزانها وهي مع ذلك مضطرة للقيام بمهامها في حفظ الإمام السجاد وسائر العيال وهي تنتظر المصيبة تلو الأخرى . . .

إن ذلك لا يمكن أن يتحمله حتى الأشداء من الرجال . . .

* بهذه الأثقال المضنية من الفجائع واصلت عليها السلام مسيرتها الجهادية بعد استشهاد أبي عبد الله . . .

* ولا بد أن يطول تأملنا لوقوف سيدتنا زينب أمام جسد الإمام الحسين عليه السلام جثة بلا رأس . . .

لنتذكر هنا علاقتها الشديدة بالإمام منذ الطفولة حيث لم تكن تجلس إلا

---

(١) نفس المصدر/ ٩٦ .

(٢) مقتل الحسين للمقرم/ ٢٦٢ .

بجانبه . . . ولنتذكر قولها لابن عباس « وهل أبقى لنا الدهر غيره » ولنتذكر قولها للإمام في الطريق عندما نعى إليها نفسه اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي الخ » .

فأي ألم يعتصر قلبها عليها السلام وأي حزن مقيم . . .

لقد وقفت أمام جسده الطاهر عدة مرات . . . لا شك أن أشدها إيلاما عندما جاءت تودعه . . .

وإلى أين تراها تذهب . . . إلى السبي . . . إلى شماتة الأعداء . . . إلى رؤية أبناء الطلقاء يتربعون على منابر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . وابن الرسول موزع الأشلاء في كربلاء . . .

ولم يكن ليخفف من هول مأساتها عليها السلام أنها في النهاية سترجع إلى المدينة فمن يا ترى بقي لها في المدينة ؟

عندما يريد المسافر أن يرجع إلى وطنه فإنه يأنس لأنه سيرجع إلى أهله وذويه حتى المسافر الذي يخرج من معركة طاحنة ويفقد فيها بعض أحبته فإنه يأنس بالوطن لأنه سيرجع إلى بقية أهله ويبثهم الشكوى . . .

أما سيدتنا زينب سلام الله عليها فقد كان الإمام الحسين يمثل بالنسبة إليها كل شيء فهو « خليفة الماضي ، وثمال الباقي » و« لم يبق لها الدهر غيره » وها هم أهلها حولها مجزرين . . . أشلاء مبعثرة . . .

في هذا الجو . . . وقفت تودع أبا عبد الله . . . فكيف ودعته ؟

عند الوداع ينظر الشخص في وجه من يودعه . . . وتنظر زينب فلا ترى رأس أبي عبد الله . . . نعم رأته بعد حين . . . محمولا على الرمح يهدى إلى أبناء الطلقاء . . .

* كذلك ينبغي أن نقف في هذا السياق عند رحلة السبي والحقد الدفين الذي كشف عنه تعامل شيعة آل أبي سفيان مع موكب السبايا . . .

أيسوقها زجر بضرب متونها   والشمر يحدوها بسب أبيها

ولو فرضنا أن معاملتهم لم تكن غاية في الإسفاف واللؤم . . . فإن مجرد

رجوع الإمام السجاد والسيدة زينب وسائر أهل البيت مع هؤلاء الجلاوزة هو في حد ذاته مصيبة كبرى جدير بها أن تبكينا بدل الدموع دما . . .

ولنقف أيضا عند دخول موكب السبايا إلى الكوفة عاصمة أمير المؤمنين بالأمس التي تستقبل اليوم أبناءه وبناته سبايا . . . ومعهم رؤوس من عرفتهم الكوفة ملاذا عند النوائب . . . ما أصعب ذلك على قلب زينب ! ودخول العقيلة بشكل خاص إلى مجلس ابن زياد . . . ثم تسييرها إلى الشام ودخولها إلى مجلس يزيد . . . وسيأتي الحديث عن بعض هذه المحطات بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى . . .

* رغم كل هذه المصائب نجد أنها عليها السلام قد تجسدت فيها صفات المصطفى والمرتضى والزهراء والحسنين ، فإذا هي ذلك الطود العلوي الشامخ ، القدوة للرجال والنساء .

* من الطبيعي جدّاً أن تكون سلام الله عليها أفضل من آسية . . . ومريم وغيرهما . . . فهي رغم كل هذه الفجائع لم تقل بعد شهادة الإمام الحسين مثلاً : ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ مع عظيم الإحترام لسيدتنا مريم عليها السلام . . . إلا أن السيدة زينب لم تقل مثل ذلك . . . بل قالت : ما رأيت إلا جميلاً . . .

إن هذا يكشف عن مخزون من الصبر ولا يمكن لمثلنا أن يدرك حقيقته . . . حيث أننا يستفزنا الشيطان لأدنى حادث ويستبد بنا الجزع ولن نكون كربلائيين إلا إذا قررنا أن نقف عند هذه الدروس لإستلهامها والسعي لتطبيقها في حدود ما يمن الله تعالى علينا بالتوفيق وتسمح به عزائمنا . . .

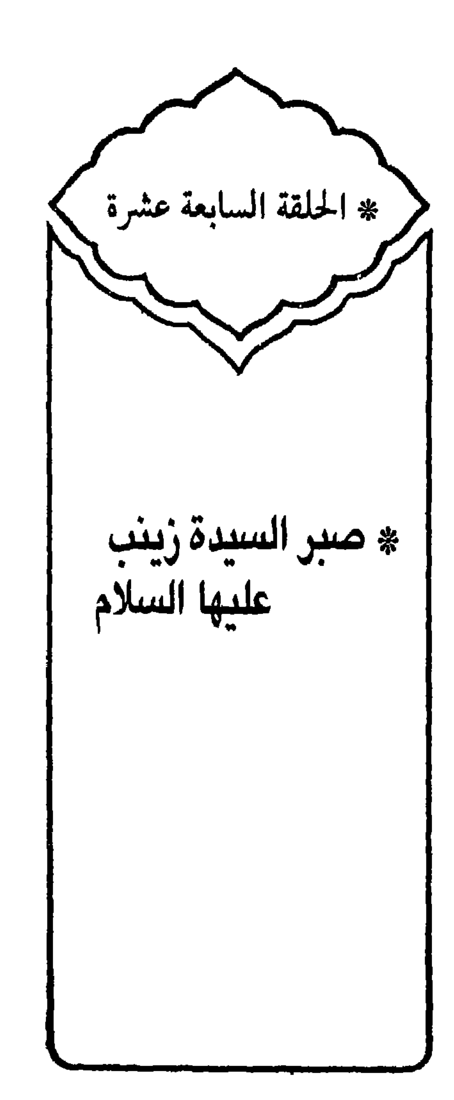
ولا شك أن مدى صبر كل شخص في مواجهة المصائب مرتبط بيقينه وفهمه للحياة والموت . . . الدنيا والآخرة . . . ومدى عمق التوحيد في شخصيته . . .

فما ظنك بصبر من قالت في طفولتها :

« ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد »

اللهم بحرمة سيدتنا زينب منَّ علينا بالصبر . . . إنك أرحم الراحمين .

* * *



*** صبرها عليها السلام :**

في الحديث السابق تم استعراض جوانب من المصائب التي واجهتها سيدتنا زينب عليها السلام . . . والحديث هنا مخصص لمعرفة صبرها عليها السلام ، وكيف واجهت هذه المصائب . . .

الواقع أن صبر السيدة زينب سلام الله عليها وصبر الإمام السجاد عليه السلام وبقيّة أهل البيت في موكب السبي كان منطلقاً لإتمام ثورة الإمام الحسين عليه السلام . لو فرضنا ـ وفرض المستحيل غير مستحيل ـ أن السيدة زينب عليها السلام استبدّ بها المصاب لما كان بإمكانها أن تلفت الأمة وتنبهها إلى خطورة ما حدث في كربلاء ، المفجوع الذي تستبد به المصيبة يفقد القدرة على التصرّف بحكمة ، من هنا كان صبر العقيلة وصبر الإمام السجاد عليه السلام مكمّلاً لثورة الإمام الحسين عليه السلام .

أولاً أقف عند الصبر بشكل عام فقد ورد في الحديث عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : « الإيمان شطران شطر صبر وشطر شكر »[1] . وكأن الصبر هو نصف الإيمان .

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان[2] . وعنه عليه السلام :

سمعت أبا جعفر عليه السلام(الإمام الباقر) يقول : إني لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمر من الحنظل ، إنه من صبر نال بصبره درجة الصائم القائم ودرجة الشهيد الذي قد ضرب بسيفه قدام محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

* ما أريده من الوقوف عند الصبر في ضوء صبر العقيلة سلام الله عليها ، هو الإلفات إلى أمور منها : أن الصبر على المصائب الناتجة عن الجهاد في سبيل الله تعالى يتلازم مع وضوح الرؤية والثبات في خط الجهاد ، أم الشهيد التي تصبر عند استشهاد ابنها ماذا يعني هذا الصبر ؟ يعني أنها موقنة بسلامة خطّه وتعتبر أن شهادته هي قربة إلى الله تعالى ، إذن هي واضحة الرؤية وثابتة في خط الجهاد .

هذا المعنى نلمسه بوضوح وبأجلى صورة في مواقف السيدة زينب سلام الله عليها بعد كربلاء .

* أيضاً أريد أن أقف عند نقطة أن الصبر على المصائب يبلغ بصاحبه درجة عالية من درجات الإيمان هي درجة المخبتين أو الإخبات هذه الدرجة يجعلها أحد الزهّاد الذي ألّف في درجات الإيمان ، الدرجة التاسعة والثلاثين .

ونجد في كتب اللغة أنّ الخبت هو المطمئنّ من الأرض .

ويقال أخبت الرجل : قصد الخبت ، أي توجّه نحو المكان المطمئن ولا يقال أخبت الرجل إذا كان لا يستطيع إلا أن يكونَ في مكان الخبت وبعبارة أخرى

(١) زينب الكبرى /٧٢ .
(٢) ميزان الحكمة /٥/٢٦١ .

فإن الإخبات هو التواضع . فكما يقصد الإنسان المكان المستقرّ من الأرض الذي هو السهل ، فعندما يتوجّه الإنسان نحو التواضع ويصبح مستقرّاً فيه يقال هذا إنسان مخبت .

في القرآن الكريم نجد قوله تعالى : ﴿ **وبشّر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون** ﴾ ، نجد أن من صفات المخبتين ، ﴿ **الصابرين على ما أصابهم** ﴾ من دون الصبر على المصاب لا يبلغ الإنسان درجة المخبتين .

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن المصيبة هي الظرف الطبيعي لكي يستفزّ الشيطان الإنسان . فعندما تواجه شخص مصيبة ، إذا تعامل معها باستعظام واعتراض على الله عزّ وجلّ ـ والعياذ بالله ـ وتمرّدٍ وغطرسة ، هذا الإنسان لم يخبت ، لم يتواضع وإنما تكبّر. مثلاً إذا فقد عزيزاً يعترض على الله تعالى : لم أخذته؟ كيف ابتليتني بفقده ؟ هذا الإعتراض هو تكبر وليس إخباتا ، بينما الصبر على المصيبة والرضا بقضاء الله تعالى هو إخبات وتواضع واطمئنان ، من هنا كان للصبر على المصيبة هذه الدرجة من الأهميّة .

غير المؤمن في مواجهة المصائب يتكبّر ، والمؤمن يخبت . عندما ننظر في تعريف الصبر نجد أن الصبر الممدوح هو « حبس النفس على تحمّل المشاق تسليماً لأمر الله تعالى ، كحبسها عن الجزع والهلع عند المصاب وفقد الأحبّة . . . »[1] . طبعاً مجالات الصبر كثيرة جداً ولكن مجال الحديث الآن الصبر على المصائب الناتجة عن الجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ .

من هنا نستطيع أن نلمح ملمحاً عبادياً جديداً في سيرة السيدة زينب عليها السلام ، هو درجة المخبتين بمستوىً عال ولا شك أن صبرها الكبير الذي تجلّى في مواقف مختلفة وبالتأكيد لم يسجل التاريخ لنا كل مواقفها التي تدل على الصبر ، ما سجل لنا يدل على درجة غير عاديّة من الصبر لا يستطيع الإنسان إلا أن يطيل الوقوف عند قولها عليها السلام : « إلهي تقبل منا هذا القربان »[2] وفي

---

(١) زينب الكبرى /٧٢ .

(٢) مقتل الحسين للمقرم /٣٠٧ .

رواية ثانية : « اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان »[1] ، فرق كبير بين عائلة الشهيد الذين يعتبرون أنفسهم قدمّوا الكثير بشهادة ولدهم وبين أهل الشهيد الذين يرون أنفسهم مقصّرين .

السيدة زينب عليها السلام رغم كل هذا العدد من الشهداء وفي طليعتهم سيد الشهداء عليه السلام تقول : إن هذا القربان قد يتقبّل وقد لا يتقبّل تسأل الله عزَّ وجلَّ بإخبات أن يتقبّل هذا القربان ، وإذا كان النص الصحيح هو الآخر « اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان » فالدلالة أعظم . كذلك دلالة النص الآخر « ما رأيت إلا خيراً » أو « ما رأيت إلا جميلاً » فأية قمة في التوحيد زينب . . . وأي حب لله تعالى هذا الحب الزينبي الذي تخشع في محرابه الأجيال ؟! كل هذه المصائب ليست شيئاً يسمح للشيطان أن يثير في نفسها استنكاراً أو استفزازاً وإنما تراها شيئاً إيجابياً بل « خيراً » و « جميلاً » لأنها بعين الله تعالى وفي سبيله . . .

كذلك نجد أن السيدة زينب عليها السلام تختم خطبتها في مجلس يزيد بقولها : الحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ـ ويبدو أنها تقصد هنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ليغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر » ـ ولآخرنا بالشهادة والرحمة ـ ويبدو أنها تقصد هنا الإمام الحسين عليه السلام ـ. ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد . . . هي تشعر بأنه ليس لها على الله عزَّ وجلَّ أي شيء وإنّما تتوسل إلى الله تعالى أن يكمل لهم الثواب فليس معنى أنهم قاموا بواجبهم أنهم يستحقون الثواب . . . « ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود » وهذا التعبير « يحسن علينا الخلافة » يذكّر بتعبير أبيها أمير المؤمنين عليه السلام « اللهم أنت الصاحب في السفر والمستخلف في الأهل » أو تعبير « الله خليفتي عليكم » . . . فهي بعد هذا المصاب ترى أن الله هو الخليفة عليها وعلى السبايا فلا مجال للخوف ولا للهلع لأنهم بعين الله عزَّ وجلَّ .

ختام خطبتها في مجلس يزيد بهذه الفقرات يدل على اطمئنان لا يمكننا أن ندرك أبعاده لأنها في ذلك الموقف هي أمام يزيد الذي هو بالحسابات المادية

(١) النقدي /٧٥ .

منتصر . . . ومن الطبيعي أن لا يكون الإنسان في المواقف الحرجة بكامل رباطة جأشه وسيطرته على أحاسيسه ونفسه وقواه ، إلا أننا نرى أنها عليها السلام في قمّة الصبر وهي لا تشعر أن وجود هذا المخلوق أمامها يثير أي شيء في نفسها ومن هو حتى يجعلها تنسى علاقتها بالله عزَّ وجلَّ أو تخرج عن الوضع الطبيعي قيد أنملة فلا تعيش العلاقة الإيمانية العميقة بالله عزَّ وجلَّ .

أما ما يروى من مظاهر الهلع والجزع الذي مارسته السيدة زينب عليها السلام من شقّ الجيب واللطم وما شابه فالذي استنتجه ولا أستطيع الجزم به هو التفريق بين ما قبل استشهاد الإمام عليه السلام وإخوته وأصحابه وما بعد استشهاده ، يمكن أن نتعقّل أن السيدة زينب عليها السلام كانت تبكي وتظهر عليها علامات الجزع في حياة الإمام الحسين عليه السلام ـ بشكل عام ولا أتجرأ أن أنسب إليها شق الثوب وما شابه ـ لأنها لم تكن هي المسؤولة عن إدارة القافلة . هذا من جهة ومن جهة ثانية هي تنظر فلا ترى حولها إلا الإمام الحسين عليه السلام من أهل الكساء ، الباقون كلهم انتقلوا إلى جوار الله تعالى ومن الصعب عليها جدّاً خصوصاً إذا لاحظنا حبّها الشديد للإمام الحسين منذ طفولته وطفولتها كما تقدّم أن ترى أخاها يواجه الموت المحتّم . وبما أنها لم تكن في موقع المسؤولية الأولى فقد كان لديها مجال للتعبير عن حزنها الذي لم تكن تسمح له أن يؤثر على من حولها كما تقدم . . . ولكن بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام يختلف الأمر تماماً . . . لذلك فإني أتعامل مع هذه النصوص بحذر إن لم أقل إني أميل إلى رفضها لأن المرأة العادية عندما تستعظم هذا الإستعظام غير العادي ، لا يملك الإنسان إلا أن يتساءل في نفسه عن مدى قوّة إيمانها .

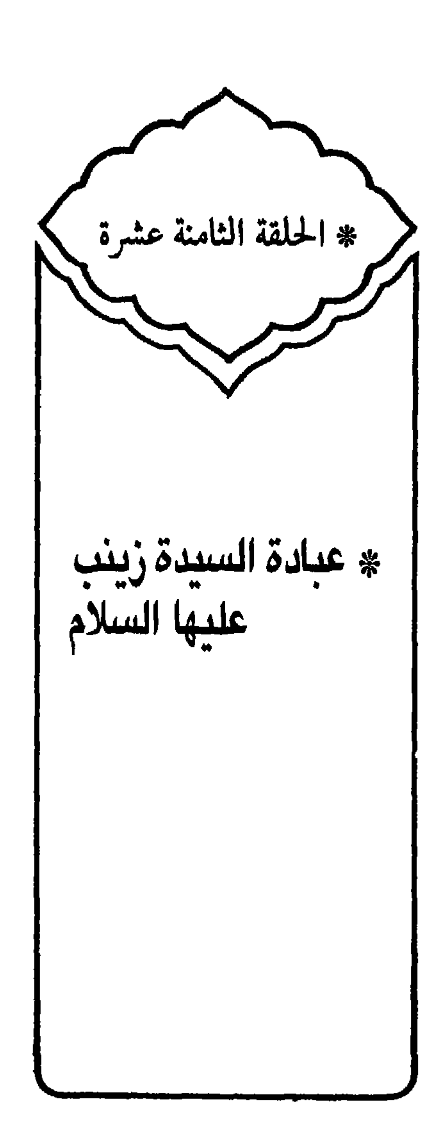
أما السيدة العقيلة سلام الله عليها التي تشير بعض النصوص كما تقدّم أنها كانت لها نيابة خاصة عن الإمام الحسين عليه السلام ، فمن الطبيعي أن تكون أشدّ الناس التزاماً بتعاليم الإسلام . خصوصاً إذا لاحظنا أن الإمام الحسين سلام الله عليه أوصاها أن لا تشق عليه جيباً ولا تخمش وجهاً ، وكيف تخالف السيدة العقيلة وصية الإمام عليه السلام .

أما مسألة نشر الشعر ، فهذا ما ينبغي أن نتوقف فيه أكثر من غيره ولا يصح

أن نذكره ، فبالنسبة لما عداه قد يقال مثلاً :

ليس كل الفقهاء يفتون بحرمة الأمور المتقدمة أما نشر الشعر فهو أمر آخر وحرمته واضحة ، قد يكون حصل شيء اضطراري في حالة معينة ، إلا أن بعض النصوص تدل على أن ذلك حصل في حالة طبيعية ، ونحن نرى أن المرأة المتدينة العادية إذا كانت في وضع طبيعي لا تعرّض شعرها للكشف فلا يمكن التسليم بهذه النصوص والله تعالى العالم .

* * *



عبادة زينب عليها السلام :

زينب سلام الله عليها تلميذة مدرسة المصطفى وأمير المؤمنين والزهراء والحسنين ، تربّت في هذا البيت وفي هذا الجو الذي هو بالتأكيد أفضل جوّ وأفضل بيت عرفته الأرض ، بل والسماء .

مقتضى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أفضل خلق الله ، إنه أكثر خلق الله عبادة ومقتضى أفضلّية أهل البيت عليهم السلام على من عداهم أنهم أكثر عبادة . من الطبيعي جداً أن يكون حجم العبادة في سيرة السيدة زينب عليها السلام غير اعتيادي ، وهو الأساس ، باعتبار أن عبادة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هي تلك العبادة التي لشدّتها أنزل الله تعالى عليه : **﴿ طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾**[1] كذلك عبادة المرتضى وسائر

(١) تفسير نور الثقلين ٣/٣٦٧ .

أهل البيت عليهم السلام . ورد حول السيدة زينب عليها السلام : « أما زينب صلوات الله عليها فلقد كانت في عبادتها ثانية أمّها الزهراء عليها السلام »[1] وهذا يقتضي أن نعرف شيئاً عن عبادة الزهراء سلام الله عليها عندما نقرأ عن خشوع أهل البيت في صلواتهم نجد عنواناً خاصاً لخشوع الزهراء عليها السلام في صلاتها وأنها إنّما سمّيت الزهراء لأنها كانت إذا وقفت في محرابها « زهر نورها لملائكة السماء كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض »[2] .

إذن ، عمق الإخلاص ، وعمق التوجه في صلاة الزهراء عليها السلام بلغ حدّاً لا نستطيع أن نتصوّره ، بحيث أنها عندما يتجلّى خشوعها تكون في وضع تتضائل معه ملائكة السماء أمام خشوعها عليها السلام . ورد عنها صلوات الله عليها أنها كانت تصلي عامّة الليل فإذا اتضّح عمود الصبح أخذت تدعو للمؤمنين والمؤمنات . أو ورد أن الإمام الحسن عليه السلام سمعها حتى الصباح تصلي وتدعو للمؤمنين والمؤمنات ولا تدعو لنفسها فيسألها عن سبب ذلك فتقول : يا بني الجار ثم الدار .

إذن عندما نجد أن السيدة زينب كانت ثانية أمّها الزهراء في العبادة فينبغي أن نكّون من ذلك فكرة ولو مختصرة كيف كانت عبادة السيدة زينب عليها السلام .

* أيضاً نجد نصّاً آخر يقول : « وكانت (أي السيدة زينب عليها السلام) تقضي عامّة لياليها بالتهجّد وتلاوة القرآن »[3] والمراد بعامة لياليها أحد معنيين ، الأول : أكثر الليالي تقضيها كذلك ، الثاني : أكثر كل ليلة ، والثاني هو الأقرب .

بشكل عام كان شغلها في أكثر أوقات لياليها جميعاً التهجّد وتلاوة القرآن . وهذا طبيعي مع ملاحظة خصوصيات السيدة زينب وملاحظة ظروف تربيتها عليها السلام .

وهناك نص آخر يقول : قال بعض ذوي الفضل إنها صلوات الله عليها ما تركت تهجّدها لله تعالى طول دهرها ، حتى ليلة الحادي عشر من المحرّم[4] .

---

(١) النقدي /٦٢ .
(٢) ميزان الحكمة ٣٨٢/٥ .
(٣) النقدي /٦٢ .
(٤) نفس المصدر .

هنا لا يستطيع أحدنا إلاّ أن يذكر صلاة أمير المؤمنين عليه السلام ليلة الهرير. يقول سلام الله عليه : ما تركت صلاة الليل مذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : صلاة الليل نور فقال له أحدهم : حتى ليلة الهرير ؟! قال : حتى ليلة الهرير[1] . وعبادة أمير المؤمنين عليه السلام مضرب المثل حتى أن سيد الساجدين الإمام زين العابدين لم يستطع أن يأتي بمثل عبادته عليه السلام وقال : « ومن يقوى على عبادة علي »[2] .

وكما تأثرت السيدة زينب بعبادة أمها . . . فمن الطبيعي أن تترك عبادة أبيها في نفسها أكبر الأثر . . .

* نجد نصاً عن الإمام السجاد عليه السلام يؤكد أن السيدة زينب ليلة الحادي عشر من المحرّم لم تترك صلاتها ونوافلها يقول الإمام سلام الله عليه : « رأيتها تلك الليلة تصلّي من جلوس »[3] . هذا النص لا يذكر أكثر من هذه الخصوصيّة (صلاتها من جلوس) ويمكن أن نقدّر السبب بشدّة العطش والمصائب التي واجهتها . ويوجد نص آخر يتحدّث عن صلاتها من جلوس في الطريق من الكوفة إلى الشام وفي بعض المنازل ويذكر هذا النص سبباً آخر غير هول الصدمة والمصائب وما شابه ، وهو أنها عليها السلام كانت ترى أن الطعام المخصّص للأطفال قليل لا يكفيهم فكانت تحتفظ بطعامها وتقدّمه للأطفال . يقول النص عن الإمام السجاد عليه السلام : « إن عمّتي زينب كانت تؤدي صلواتها من قيام الفرائض والنوافل عند سير القوم بنا من الكوفة إلى الشام ، وفي بعض المنازل كانت تصلّي من جلوس فسألتها عن سبب ذلك فقالت : أصلّي من جلوس لشدّة الجوع والضعف منذ ثلاث ليال لأنها كانت تقسّم ما يصيبها من الطعام على الأطفال ، لأن القوم كانوا يدفعون لكل واحد منّا رغيفاً واحداً من الخبز في اليوم والليلة »[4] .

إذن رغم كل هذه الأوضاع كانت عليها السلام لا تترك تهجّدها .

---

(١) منتهى الآمال ١/٢٨٨ .
(٢) مناقب آل أبي طالب ٤/١٤٩ .
(٣) النقدي /٦٢ .
(٤) نفس المصدر ٦٢/٦٣ .

* أيضاً إذا أردنا أن نستعرض بقيّة النصوص الواردة في عبادة السيدة زينب عليها السلام . نجد عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ السيدة زينب عليها السلام كانت في الطريق إلى الشام تصلّي النوافل الليلية . صحيح أن هذا النصّ تقدّم ولكن النص الجديد يختلف يقول عليه السلام : إن عمتي زينب مع تلك المصائب والمحن النازلة بها في طريقنا إلى الشام ما تركت نوافلها الليلية[1] .

* أيضاً نجد نصّاً عن الإمام الحسين عليه السلام يفهم منه أن صلاة الليل كانت بالنسبة للسيدة زينب سلام الله عليها شيئاً طبيعياً . يقول النص : إن الحسين عليه السلام لمّا ودّع أخته زينب عليها السلام وداعه الأخير قال لها : « يا أختاه لا تنسيني في نافلة الليل »[2] .

وإني لأخجل من اضطراري للحديث حول كون صلاة الليل بالنسبة إليها أمراً عادياً . . . فهم عليهم السلام معدن القرب . . . ولكننا قد نجهل عبادتهم لبعدنا .

* كذلك نجد نصّاً آخر عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام تقول : وأما عمّتي زينب فإنها لم تزل قائمة في تلك الليلة ، أي العاشرة من المحرّم في محرابها تستغيث إلى ربّها ، فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنّة[3] .

من هذه النصوص نستطيع أن نعرف بعض جوانب عبادة السيدة زينب عليها السلام وأن عادتها المستمرّة في المجال العبادي . . . هي المواظبة على ذكر الله والتهجّد والنوافل ، خصوصاً نافلة الليل مما يجعلنا أمام انطباع يعبّر عنه الشيخ النقدي فيقول : « كانت من القانتات اللواتي وقفن حركاتهن وسكناتهن وأنفاسهن للباري تعالى وبذلك حصلن على المنازل الرفيعة والدرجات العالية التي حاكت برفعتها منازل المرسلين ودرجات الأوصياء عليهم الصلاة والسلام » .

ثم إن هذه النصوص عن عبادة السيدة زينب عليها السلام قبل كربلاء وليلة العاشر والحادي عشر من المحرّم بعد أحداث كربلاء الجسام تجعلنا ندرك

(١) نفس المصدر /٦٢ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

خطورة ما نحن عليه عادة من تركنا للعبادة المستحبة أو التعاطي مع العبادة الواجبة بشكل عرضي خصوصاً عند حدوث أية نازلة تلم بنا أو مشاغل تطرأ علينا بحجّة أولوية العمل الإسلامي أمير المؤمنين عليه السلام في ليلة الهرير كان مشغولاً بعمل إسلامي، وفي صفين أيضاً، لكنه عليه السلام في ساحة المعركة في صفين ينظر إلى الشمس ليصلي صلاة الظهر في أول وقتها . والسيدة زينب عليها السلام كان عندها عمل إسلامي مهمّ جدّاً ، كانت هي الحاملة لراية الإسلام في ذلك الوقت باعتبار أن الإمام السجاد عليه السلام كان مريضاً كما تقدّم ، ومع ذلك لم تترك النوافل ، هذا الأمر يجعلنا أمام وجوب إعادة النظر في فهمنا للعبادات وتقييمنا لها . فهل ندرك حقاً دور العبادات وأهميتها في التزوّد للآخرة ودور المستحبات في الإلتزام بالواجبات بالشكل الأفضل . هل ندرك ما هو الفرق بين الصلاة في أي وقت أمكن ضمن وقتها وبين أدائها في أول الوقت ؟ ما هو أثر صلاة الليل في أن يأتي الإنسان يوم القيامة غنيّاً بالثواب والحسنات ولا يكون فقيراً لأن كثرة النوم بالليل تجعل الرجل فقيراً يوم القيامة . اللهم أعنّا على أنفسنا .

ليست المسألة أن يقرأ أحدنا النصوص وتنتهي القصة وإنما المهمّ أن نقف عند هذه النصوص ، وندرك خطأنا حين نؤخر الصلاة عن أول وقتها ، أو حين نتساهل في حضور مجلس الغيبة ، أو ما شابه ، ينبغي أن لا تكون المشاغل مهما كان حجمها تستطيع فصل الإنسان عن العمل المستحب لأن كل هذه المشاغل لأجل إقامة الدين والدين هو عبارة عن الأحكام الواجبة والمحرّمة والمستحبة والمكروهة والمباحة .

فمن كان حريصاً على إقامة الدين وإعلاء كلمة الله ، لا بد وأن يكون حريصاً على إعلاء كلمة الله في نفسه ، وكلمة الله منها الواجب ومنها الأقسام المختلفة كما تقدّم . الحريص على خدمة الإسلام هو الذي يلتزم بالإسلام وأما أن يقال : أنا حريص على الإسلام وأريد خدمة الأمّة الإسلامية ولكني لا أحرص على إقامة الإسلام في نفسي ، فهذا تناقض ، الطريق إلى إقامة الإسلام أن أقيمه أنا في نفسي ويقيمه الآخر في نفسه والثالث وهكذا ، حتى تصبح عندنا القاعدة التي تشكّل منطلقاً نحو إقامة الحكم الإسلامي وإعلاء كلمة الله عزّ وجلّ .

ومن المناسب أن أشير هنا إلى أن المستحب يبقى مستحباً ، ولكن أهمية القيام به أنه يجعل التفاعل مع الواجبات أفضل وأكمل فمثلاً من لا يصلي إلا الواجب قد يكون متعباً بعض الشيء من صلاة الأربع ركعات ، لكنه لو كان يصلي صلاة جعفر الطيار مرّة في الأسبوع التي هي أطول من الصلاة العادية ، يجد شيئاً فشيئاً أنه يصلي الصلاة الواجبة بارتياح أكبر . لذلك كانت « المستحبات سياج الواجبات » .

والدرس الذي نخرج به من الحديث عن عبادة السيدة زينب عليها السلام أن العبادة أساس في حياة المسلم المجاهد ، ولا جهاد في سبيل الله بدون اهتمام أساسي بالبعد العبادي ، كذلك هي سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكل الأئمة المعصومين وكل الصلحاء والعلماء .

وهنا ندرك خسارتنا الكبيرة عندما لا يكون في سيرة أحدنا وسلوكه خط يوصل سلوكه بسيرة أهل البيت عليهم السلام .

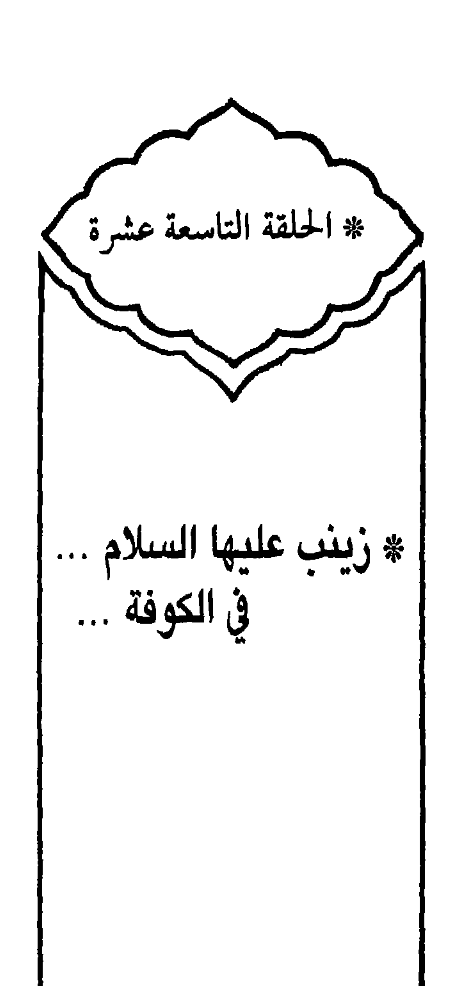
وبالمناسبة أتوجّه لعوائل الشهداء خصوصاً أمهات الشهداء اللواتي قدّمن على طريق الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ وأصبحن بذلك مقتديات بسيدتنا زينب عليها السلام ، أتوجه إليهنّ بضرورة الإهتمام بالعبادة . عندما لا أقتدي أنا الذي لم أقدّم على طريق سيد الشهداء عليه السلام شيئاً بعبادته أو بعبادة السيدة زينب أخسر ، ولكن أم الشهيد التي قدّمت فلذة كبدها فعندما لا تقتدي بعبادة السيدة زينب تكون خسارتها شيئاً آخر ، أم الشهيد الصابرة وصلت إلى مرحلة صار بإمكانها أن تكون مع السيدة زينب عليها السلام بشكل طبيعي جدّاً ، لكن المهمّ أن تواصل الطريق الزينبي طريق الإسلام أن تصبر وتكون حريصة على العبادات باعتبار أنها بشهادة ابنها أصبحت أماً لشهيد وتستطيع الوقوف أمام الزهراء عليها السلام والسيدة زينب وتقول : أنا قدّمت في سبيل الله تعالى كما أمرتم . إلا أن الجانب العبادي ينفع كثيراً في أن تكون أقرب إلى هذا الخط وأن تكون أكثر اقتداء بزينب وسائر أهل البيت عليهم السلام .

نفس الكلام ينطبق على زوجة الشهيد . . . وعلى كل فرد من عوائل

الشهداء تربطه بالشهيـد رابطة حميمة . . . وقد فجع به وصبر لفقده احتساباً له في سبيل الله تعالى على خطى سيد الشهداء عليه السلام .

* * *





*** مع أهل الكوفة :**

الظرف الذي ألقت فيه السيدة زينب عليها السلام خطبتها في مدينة الكوفة يختلف (اختلافاً كبيراً) عن ظرف خطبتها في الشام .

ففي الكوفة مثلاً لا نجد أحداً يسأل من هم هؤلاء ، لكن في الشام نجد سؤال من هم هؤلاء ؟ والسبب واضح ، لأن أهل الكوفة كانوا يعرفون أهل البيت سلام الله عليهم ونساء الكوفة كنّ يعرفن زينب وأخواتها والرجال كانوا يعرفون رأس الإمام الحسين والعباس وسائر الرؤوس في موكب السبي . يمكن أن نجد امرأة في الكوفة تسأل عن رأس الإمام الحسين عليه السلام . رأس من هذا ؟ ولكن بشكل عام كان أهل الموكب معروفين .

وتذكر المصادر أن عدداً كبيراً من الناس تجمعوا في استقبال الجيش والسبايا

وكانت تنتابهم حالة بكاء شديد ! مما يدل على تعاطف مع موكب السبي ، ولكنه تعاطف ملعون ، لأن التعاطف الذي لا يصل إلى حد الموقف ويأتي بعد الخذلان وفوات الأوان ، لا قيمة له على الإطلاق كما سنرى في خطبة السيدة زينب عليها السلام .

وخطبة السيدة زينب عليها السلام في الكوفة بغضّ النظر عن الظرف الذي ألقيت فيه ، توضح بما لا مزيد عليه مسؤولية الناس جميعاً في الظرف الحساس عن مصير الإسلام ، فهي عليها السلام تتحدّث مع أهل الكوفة كلّهم بلهجة الذمّ لهم جميعاً ، وتحملهم مسؤولية قتل الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه بالرغم من أنهم لم يكونوا في ساحة المعركة فالمسؤولية عامة . . .

أفضل استعراض خطبة السيدة زينب عليها السلام وملاحظة فقراتها . . .

يقول الراوي في مقدمة الخطبة : لمّا أومأت زينب ابنة علي عليه السلام إلى الناس ، فسكنت الأنفاس والأجراس ، فعندها اندفعت بخطابها مع طمأنينة نفس وثبات جأش وشجاعة حيدريّة فقالت صلوات الله عليها . . . هنا أحب أن أشير إلى مسألة « التصرّف » ومعنى التصرّف أن يصل المؤمن إلى درجة إذا أراد شيئاً فبإذن الله تعالى يكون . « عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن-فيكون » عندما أراد الإمام السجاد عليه السلام أن يستلم الحجر الأسود وكان هشام بن عبد الملك وهو الحاكم آنذاك لا يستطيع الوصول إلى الحجر من شدّة الزحام ، لكن بمجرّد أن أقترب الإمام السجاد انقسم الناس قسمين فدخل عليه السلام واستلم الحجر بكل سهولة وهدوء أن هذا نوع تصرف . . . ودخول على خط إرادة الآخرين لتعطيلها بإذن الله تعالى . . . هذا الحشد الذي كان متجمهراً في الكوفة في استقبال الجيش العائد من كربلاء ومعه سبايا أهل البيت . . . هو من نفس طينة هذا الجيش الذي تسابق على نهب خيم سيد الشهداء وسلب الأطفال والنساء لذلك فإن إصغاءهم لسيدتنا زينب عليها السلام أمر ملفت . . . وإن كان بكاؤهم أشد إثارة . . . إن الشخصية غير السوية تصبح تصرفاتها كذلك . وبدأت عليها السلام تلقي خطبتها فقالت عليها السلام :

الحمد لله ، والصلاة على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار (لاحظ قولها أبي ، محمد) أما بعد ، يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل ، (أي الخداع والحيلة)

والغدر . . . أتبكون ؟ فلا رقأت الدمعة ، ولا هـدأت الرنـة (دعاء عليهم بـأن يطول بكاؤهم ويستمر) إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قـوة أنكاثاً (وهو مثل قرآني يتحدث عن امرأة حمقاء كانت تغزل هي وجواريها إلى الظهر ثم تأمرهن بتخريب ما غزلن ، تريد عليها السلام أن تقول لأهل الكوفـة عملتم في سبيل الإسلام ثم عملتم لهدم الإسلام . . . وآخر مرة هدمتم فيها الإسلام قتلكم لسيد الشهداء عليه السلام) .

تتخـذون أيمانكم دخـلاً بينكم (أي أن طابـع أهل الكـوفة نقض العهـود والمواثيق والأيمان وشخصيتهم مهزوزة لا يثبتون على موقف ويكثرون من التلون) ألا وهل فيكم إلا الصّلَف (مدح الإنسان نفسه بما ليس فيه) (و) النَّطَف (قيل هو التلطخ بالعيب) والعُجب والكذب والشَّنَف (البغض بغير حق) وملق الإماء (وتملق الإماء جمع أمـة وتملقها أسـوأ من تملق العبد) وغمـز الأعداء (تـطعنون بصـديقكم في حين أنكم تتملقـون له كـما يطعن العـدو) أوكمرعى عـلى دمنـة (كـالـزرع الذي ينبت على مزبلة ، كناية عن تظاهرهم بالإسلام فظاهرهم أخضر نراه . . . إلا أن باطنهم لا علاقة له بالإسلام وهو قبيح ونتن) أو كقصة على ملحودة (وفي بعض المصادر « كفضة » إلا أن المحقق السيد المقرم اختار أن الصحيح قصة وليس فضة وهو وجيه . . . والمقصود بالقصة على ملحودة الجص على القبر بحيث يبـدو ظاهر القبر مبيضاً إلا أن في داخله جثـة مهترئـة) ألا بئس ما قـدمت أنفسكم أن سخط الله عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون .

أتبكـون وتنتحبون ؟ إي والله فـابكوا كثيـراً واضحكوا قليـلاً فلقـد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها (لن تزيلوا وصمـة العار هـذه) بغسل بعـدها أبـداً . . . وأنى ترحضـون قتل سليـل خاتم النبـوة ، ومعـدن الـرسـالـة ومـدره حجتكم ، ومنار محجتكم وملاذ خيرتكم ومفزع نازلتكم وسيد شباب أهل الجنـة ألا ساء ما تزرون .

فتعسـاً ونكساً وبعـداً لكم وسحقاً ، فلقـد خاب السعي ، وتبّت الأيـدي وخسرت الصفقـة ، وبؤتم بغضب من الله ورسـولـه ، وضربت عليكم الـذلـة والمسكنة . . .

ويلكم يا أهل الكوفة ، أتدرون أي كبد لرسول الله فَرَيْتم؟وأي كريمة له أبرزتم ؟ وأي دم له سفكتم ؟ وأي حرمة له أنتهكتم ؟ لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً . . . ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ، كطلاع الأرض (ملء الأرض) وملء السماء . . . أفعجبتم أن مطرت السماء دماً ؟ ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون فلا يستخفنكم المهل (أن الله يمهلكم) فإنه لا يحفزه البدار ، ولا يخاف فوت الثار (إنه عزَّ وجلَّ لا يعجل ولن تفلتوا من قبضته) وإن ربكم لبالمرصاد[1] .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أمور :

أولاً : قوة اليقين الذي يتفجر من كل كلمة في خطبتها عليها السلام . . . بحيث أنك لا تشعر ولا للحظة بهزيمة أو بإنكسار . . . وذلك بالنسبة لسيدتنا زينب عليها السلام أمر طبيعي جداً . . . المهم أن يكون درساً لنا فنواجه مثل هذه المواقف برباطة جأش دون أن يرمش لنا جفن . . . ولا يخفق بالخوف جنان . . . وممن نخاف يا ترى إذا كنا نؤمن حقاً أنه ﴿ **لا حول ولا قوة إلا بالله** ﴾ كما علمنا الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه . . .
ثانياً : الثقافة القرآنية . . . فالمتأمل للخطبة يرى أنها عليها السلام تتكلم بالقرآن وهو أمر يدعو المجاهد إلى أن يكون شديد الصلة بكتاب الله تعالى حتى تصبح ثقافته قرآنية .

ثالثاً : قولها عليها السلام « أفعجبتم أن مطرت السماء دماً ؟ » ألا يدل ذلك على أن السماء أمطرت دماً فتعجب أهل الكوفة من ذلك ؟

يقول السيد المقرم : « بلى لقد تغيرت أوضاع الموجودات واختلفت الكائنات ، فبكته الوحوش وجرت دموعها رحمة له . . . قال أمير المؤمنين عليه السلام : بأبي وأمي الحسين المقتول بظهر الكوفة . . . والله كأني أنظر إلى الوحوش مادة أعناقها على قبره تبكيه ليلاً حتى الصباح ، ومطرت السماء دماً فأصبحت الحباب والجرار ، وكل شيء ملآن دماً وحتى بقي أثره على البيوت

(١) مقتل الحسين للمقرم /٣١١ ـ ٣١٢ .

والجدران مدّة ولم يرفع حجر إلا وجد تحته دم عبيط حتى في بيت المقدس »[1] أما مصادر السيد المقرّم في مسألة بكاء الحيوانات فعديدة منها الخطط المقريزية والصواعق المحرقة والكامل لابن الأثير والنجوم الزاهرة وكنز العمال وأكثرها سنيّة . من هنا ندرك أن علينا قبل أن نرفض بعض الأمور التي نسمعها أن نرجع إلى الكتب الأساسية التي تتحدّث عنها لندرك مدى صحّتها .

* هناك منحى عند البعض برفض كل ما لا يتلاءم مع « روح العصر » كمسألة إمطار السماء للدم . . . والتي رواها الكثيرون ومنهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وابن طيفور في بلاغات النساء والخوارزمي في الجزء الثاني من كتابه مقتل الحسين وشيخ الطائفة الطوسي وغيرهم من أكابر العلماء كما يقول المحقق الشيخ جعفر النقدي .

خطبة السيدة زينب عليها السلام مشهورة أيضاً في أوساطنا وترد فيها عبارة « مطرت السماء دماً » .

والقرآن الكريم حافل بذكر الأمور التي يستغربها العقل المحكوم بالغرائز الصريع تحت بروق المطامع هذا يجعلنا ندرك خطأ منحى الرفض لكل الأمور المستغربة . . . نجد بعض النصوص تقول : ومكث الناس شهرين أو ثلاثة يرون الجدران ملطخة بالدم ساعة تطلع الشمس وعند غروبها . . . وهذا النص ينقله السيد المقرم من شرح قصيدة لأبي فراس الحمداني .

نص آخر يقول : ولم تعرف الحمرة في السماء إلا يوم قتل الحسين عليه السلام والمصدر كتاب الصواعق المحرقة وصاحبه متحامل على الشيعة وقال ابن الجوزي : وكل واحد من الناس إذا غضب أثّر الغضب في وجهه ولّما تنزّه الحق جلّ شأنه عن الجسميّة أظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين بحمرة الأفق إظهاراً لعظيم الجناية[2] . وفي هذا السياق يقع قول الشاعر : وعلى الأفق من دماء الشهيدين علي ونجله شاهدان . . .

---

(١) نفس المصدر /٢٩٣ .

(٢) راجع في جميع هذه النصوص مقتل الحسين للسيد المقرم /٢٩٣/٢٩٥ .

* **في مجلس ابن زياد :**

في البداية أحب أن أقدم فكرة عن ابن زياد وسعة دائـرة حكمه وسيـطرته لكي نعـرف في أي مجلس كـانت زينب عليهـا السـلام ومن هـو صـاحب هــذا المجلس .

ابن زياد لم ينشأ بعيداً عن أهل البيت عليهم السلام فقد كان زياد أبوه موالياً لأمير المؤمنين عليه السلام بل كان شديد الولاء ، وفي بعض الكتب المعتبرة نجـد أنه ظلّ موالياً لأمير المؤمنين طيلة أيامه عليه السلام ، وشهد معه حـروبه كلّهـا ، وظل موالياً له وللإمام الحسن إلى أيام صلحه مع معاويـة ، ثم انفصل عن أهـل البيت وأصبـح عدوّاً لـدوداً لهم . . . وعندمـا تولى زيـاد الكوفـة عرف بـالبطش والإرهاب وقمع الناس وتتبّع الشيعة تحت كل حجر ومدر ، كما يقال. . . وبطبيعة الحال فإن من ينتقـل من فريق إلى فـريق آخر يصبـح عادة أخبث من غـيره ضد الفريق الذي كان معه كما تشهد بعض التجارب المعاصرة . . .

ابن زياد سار سيرة أبيه في الإنحراف عن الولاية وفي البطش والعداوة لأهل البيت وشيعتهم . . .

وعندما نجده يستشهد بالآيات القرآنية في كلامه فلا غرابة في ذلك بسبب الجو الذي كان يعيشه قبل انحرافه . . . فنجده مثلاً يقول لشبث بن ربعي : وإني لأخشى أن تكون من الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . . .

أو كما سيأتي في كلامه للسيدة زينب عليها السلام . . .

وكان ابن زياد بما يمتلكه من مواصفات ومعايشة تجربة أبيه في الكوفة المؤهل لدى يزيد لمهمة مواجهة الإمام الحسين عليه السلام بالسرعة اللازمة . . . وكانت السرعة مطلوبة ليزيد حتى لا يكون لـلإمام متسـع من الوقت فيـأتيه أنصـاره من البصرة وغيرها وهناك نص يدل على هذا . . . ففي ساحة المعركة قال أحد أعداء الإمام الحسين عليه السلام : ويلكم اقتلوه لا تتام إليه شيعته . . . إذن ، كان من الممكن أن يلتحق الشيعة من مختلف المناطق بالإمام الحسين عليه السلام ، ولذلك

كانت السرعة مطلوبة . . . وكان ابن زياد مؤهلاً لذلك . . . ومن المناسب بين يدي الحديث عن دخول السيدة زينب إلى مجلس ابن زياد أن هذا الطاغية كان يحكم العراقين يقول النص : « وضم (يزيد) العراقين إلى عبيد الله بن زياد بعد أن أشار عليه بذلك سرجون مولى معاوية » . . . والعراقين هما البصرة والكوفة . . .

ونجد أيضاً في النصوص التي تتحدّث عن ابن سعد : « وكان معسكراً بحمام أعين في أربعة آلاف ليسير بهم إلى « دستبى » لأن الديلم قد غلبوا عليها وكتب له ابن زياد عهداً بولاية الري وثغردستبى والديلم . . . » .

يلاحظ أن ابن زياد هو الذي كتب كتاب الولاية لعمر بن سعد وهذا يعني أن سلطة ابن زياد كانت ممتدّة إلى الري وهي على ما يبدو طهران اليوم . فيمكن أن يقال أن المنطقة من الكوفة والبصرة إلى طهران كانت تحت سلطة ابن زياد . فكان حاكماً ذا سلطة عريضة ، يوجّه الجيوش لحروب الفتح والحركات المضادة في تلك المناطق . . .

هذا الحاكم الظالم الطاغية ، تدخل عليه السيدة زينب عليها السلام في ظرف غير عادي ، الإمام الحسين عليه السلام قد استشهد ، وابن زياد يعيش زهو النصر . . . وهو بعد ذلك الفظ الحاقد .

يقول السيد ابن طاووس وغيره ممن كتب في مقتل الحسين عليه السلام : أن ابن زياد جلس في القصر وأذن إذناً عامّاً وجيء برأس الحسين عليه السلام فوضع بين يديه وأدخلت عليه نساء الحسين وصبيانه . . . وجاءت زينب بنت علي عليه السلام وجلست متنكّرة ، فسأل ابن زياد من هذه المتنكرة ؟ فقيل له هذه زينب ابنة علي فأقبل عليها فقال : الحمد لله الذي فضحكم وأكذب أحدوثتكم . يقصد حركة الإمام الحسين عليه السلام . . . وهو موقف كما ترى غاية في اللؤم والتشفي . . . فماذا كان موقف العقيلة سلام الله عليها ؟

طبعاً . . . لا بد أن تجيب وتستوعب هجمته وتجعله عبرة لمن اعتبر . . . قالت عليها السلام : إنما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا .

فقال : كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك ـ هجمة أخرى ليفت في عضد السيدة زينب عليها السلام ، ويضعفها ـ فقالت : ما رأيت إلا خيراً . وفي رواية « ما رأيت إلا جميلاً » .

هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم (المعاد دائماً حاضر في منطق المؤمنين) فتحاجّ وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ . إنها تقول له : إذا كنت ترى نفسك منتصراً . . . وأنك الرابح فإن الربح والخسارة بعد العرض على الله ، يوم القيامة وعندها تعرف من هو الرابح ومن هو المنتصر . وبكل تأكيد فإن كلامها عليها السلام نفذ إلى أعماق ابن زياد لما فيه من التحدي له والإستخفاف به ومعاملته على أساس أنه المهزوم ـ وهو كذلك ـ ثم قالت له : ثكلتك أمك يا ابن مرجانة . . . وهنا بلغ الموقف الزينبي الذروة فإنها بعد أن سجلت قناعاتها بشكل واضح ولم يعد لابن زياد ما يدافع به سددت له الرمية القاتلة : « ثكلتك أمك يا ابن مرجانة » وأسقط في يد « ابن مرجانة » وخانه تجلده ، فهو أمام قوة هذا المنطق العلوي لا يلوي على شيء . . . فغضب اللعين وهمّ أن يضربها فقال له عمرو بن حريث : إنها امرأة والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها وعمرو بن حريث هذا طبيعي أن يكون مستشار ابن زياد وهو صاحب قصّة الضبّ الذي بايعه في الصحراء جنوبي الكوفة هو وشبث بن ربعي وبعض الأفراد وقالوا : هذا أمير المؤمنين . . . ثم التحقوا بجيش أمير المؤمنين في المدائن وكان يخطب الجمعة على المنبر وبمجرد أن دخل هؤلاء النفر قال سلام الله عليه ـ ولم يكن قد أخبره أحد بالأمر ـ ليحشرّن قوم يوم القيامة وإمامهم ضبّ ولو شئت لسميّتهم . يقول الراوي : فرأيت عمرو بن حريث يرتجف كالسعفة ويكاد يسقط إلى الأرض[1] . ومع ذلك فإن عمرواً يتدخل لدى ابن زياد ويقول له : إنها امرأة الخ . . . وقد ينتصر الله تعالى لدينه بالرجل الفاجر . . .

فقال لها ابن زياد لعنه الله : لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك . . . وباعتبار أن السيدة زينب عليها السلام قد

---

(١) تفسير نور الثقلين ٣/ ١٩٠ ـ ١٩١ بتصرف ، وقد ورد اسم شبث بن ربعي وآخرين ممن وقفوا ضد الإمام الحسين في كربلاء في إرشاد القلوب للديلمي / ٢٧٥ .

كشفت زيف ابن زياد ونقلته من التظاهر بالتدين وحمد الله . . . والتظاهر بحمل الإسلام عن « الأحدوثة » إلى المواقف التي تكشف عن حقيقته فكأنها رأت أنه لا مصلحة بتطوّر الموقف أكثر من ذلك فقالت : لعمري ، لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن كان هذا يشفيك فقد اشتفيت وهكذا تحكمت مجدداً بدفة الحديث ووجهته نحو الختام . . .

فقال لعنه الله : هذه سجّاعة ولعمري لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً . . . وكأنه أقنع نفسه بأنه حفظ ماء وجهه بهذا الكلام . . . فقالت : يا ابن زياد ما للمرأة والسجاعة وإن لي عن السجاعة لشغلاً[1] . .

هذا ما نقل إلينا ـ في حدود ما رأيت ـ وأنا مطمئن أنه في مثل هذا الجو تحصل أمور كثيرة . . . ومداخلات تجعل المسألة تختلف عمّا نكونه من انطباع من خلال ما وصل إلينا . . .

من الطبيعي ـ بعد كلام السيدة زينب عليها السلام أمام الجماهير لدى وصول السبايا إلى الكوفة وفي مجلس ابن زياد ـ أن يترك ذلك أثراً في نفوس بعض الأفراد فتحصل ردّات فعل تجاه القتلة والمجرمين خصوصاً إذا تذكرنا ما مرّ معنا من أن الكوفة كانت داراً للجند . . . ويمكن القول باطمئنان أن بداية تكوُّنِ حركة التوابين كانت مدينة لمواقف السيدة زينب ، والروح التي بثّتها في أهل الكوفة ، وسيأتي الحديث عن مواقف الإمام السجاد عليه السلام ، وهناك بعض المواقف التي سجلت ، من قبيل موقف عبد الله بن عفيف الأزدي ، الذي سمع ابن زياد يسب الإمام الحسين عليه السلام فقال : يا ابن مرجانة الكذاب ابن الكذاب ، أنت وأبوك ، والذي ولّاك وأبوه يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصدّيقين[2] . . . ويأتي الكلام عن موقف ابن عفيف في مجال لاحق بإذن الله . . .

كذلك نجد أن المختار بن أبي عبيدة الثقفي كان آنذاك موجوداً في السجن . . . وينقل « أنه زفر زفرة شديدة وجرى بينه وبين ابن زياد كلام أغلظ

(١) زينب الكبرى / ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) المقرم/ ٣٢٧ .

فيه المختار فغضب ابن زياد وأرجعه إلى الحبس ويقال إنه ضربه بالسوط على عينه فذهبت »[1] . . .

ومن العوامل التي أثّرت في أهل الكوفة وساهمت في إنقاذ من يمكن إنقاذه وجود رأس الإمام الحسين عليه السلام في المدينة فقد روي أن زيد بن أرقم ـ وهو من الصحابة ـ كان في غرفة يقول : فمرّوا علي بالرأس وهو يقرأ ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ ، فوقف شعري وقلت : والله يابن رسول الله رأسك أعجب وأعجب[2] . . .

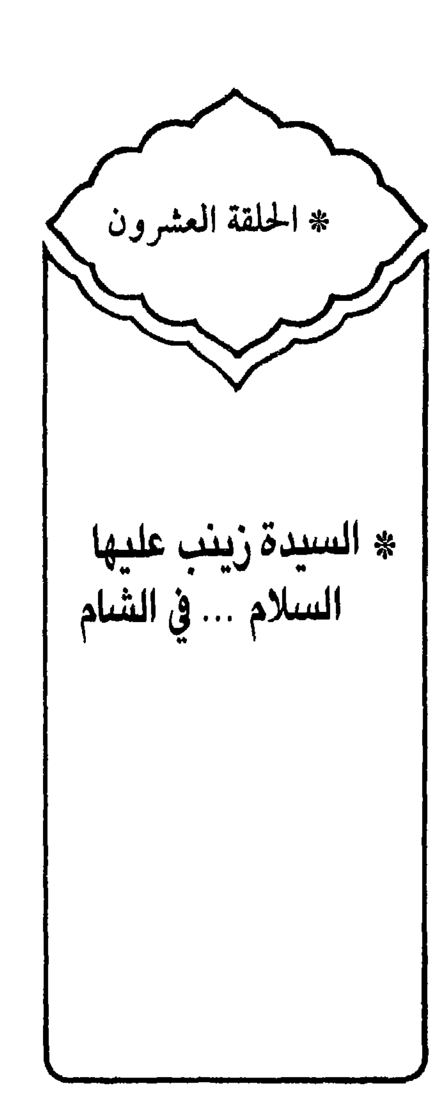
على كل حال تبقى في طليعة العوامل التي أثّرت في أهل الكوفة مواقف السيدة زينب عليها السلام .

* * *

---

(١) نفس المصدر / ٣٣٠ .

(٢) نفس المصدر / ٣٣٢ وهناك تفاصيل هامة حول موقف زيد وبعض المواقف الأخرى في نفس المهموم ٤٠٣ ـ ٤٠٦ .



* الدخول إلى الشام :

لأنني لم ألمح موقفاً لسيدتنا زينب عليها السلام أثناء الطريق من الكوفة إلى الشام لذلك سوف أؤجل الحديث عن تلك المرحلة لمناسبة استعراضي لمواقف الإمام السجاد عليه السلام وسوف أبدأ هنا بدخول موكب السبايا إلى الشام ، يقول نص : « ولما قربوا من دمشق أرسلت أم كلثوم إلى الشمر تسأله أن يدخلهم في درب قليل النظّار (على رأي أن أم كلثوم هي السيدة زينب عليها السلام) ويخرج الرؤوس من بين المحامل لكي يشتغل الناس بالنظر إلى الرؤوس ، فسلك بهم على حالة تقشعّر منها الأبدان وترتعد لها فرائص كل إنسان ، وأمر أن يسلك بهم بين النظّار وأن يجعلوا الرؤوس وسط المحامل »[1] . . .

(١) نفس المصدر /٣٤٨ .

* لشدة حرصها عليها السلام على أن لا ينظر أحد في وجوه حرم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أرادت أن تكون الرؤوس أمام الموكب لينظر الناس إليها باعتبارها شيئاً ملفتاً وبالتالي سيقلّ النظر تلقائياً إلى وجوه السبايا وخصوصاً النسوة وفي المقابل ، هذا الذي كان بالأمس من شيعة أهل البيت (الشمر) الذي حارب في صفين تحت راية أمير المؤمنين عليه السلام يصر على ما يسيء أهل البيت ويتصرف بحقد المرتد . . .

وكان وصول السبايا إلى الشام في أوائل صفر « فأوقفوهم على باب الساعات وقد خرج الناس بالدفوف والبوقات وهم في فرح وسرور ودنا رجل من سكينة وقال : من أي السبايا أنتم ؟ قالت : نحن سبايا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1] . .

ونلاحظ هنا الفرق بين الناس في الشام وبينهم في الكوفة من حيث الظاهر أما في الواقع فإن الموقف واحد . . . أهل الشام لم يكونوا يعرفون أهل البيت كما كان يعرفهم أهل الكوفة ، أهل الشام كانوا مضللين يعتبرون أن الذي يمثل الإسلام هو يزيد وأبوه ويزيد بن أبي سفيان الذي كان فتح الشام في أيامه وعلى فرض أن أهل الشام عرفوا أن موكب السبي هو لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم يكن ذلك ليغير كثيراً من مواقفهم باعتبار نظرتهم المحدودة لموقع أهل البيت عليهم السلام وخروجهم بالدفوف على فرض معرفتهم بحقيقة السبايا ليس مستبعداً بحكم تشيعهم لآل أبي سفيان . . .

وكان يزيد جالساً في منظرة على « جيرون » ، ولما رأى السبايا والرؤوس على أطراف الرماح وقد أشرفوا على ثنيّة جيرون نعب غراب فأنشأ يزيد يقول :

لما بدت تلك الحمول وأشرقت	تلك الرؤوس على شفا جيرون
نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل	فقد اقتضيت من الرسول ديوني[2]

هذا الكلام من يزيد يجعلنا نعرف حقيقة هذا الذي كان يجلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . ومن هنا يقول السيد المقرم : (بعض

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ٣٤٨/٣٤٩ « بتصرف » .

علماء السنّة) يكفر يزيد كابن الجوزي والقاضي أبو يعلى والتفتازاني والسيوطي والآلوسي في تفسير قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم ﴾ . يقول : أراد بقوله (أي يزيد) فقد اقتضيت من الرسول ديوني . . . أنه قتل (الإمام الحسين عليه السلام) بما قتله رسول الله يوم بدر كجدّه عتبة ويضيف الآلوسي وهذا كفر صريح ومثله تمثّله بقول ابن الزبعرى قبل إسلامه : ليت أشياخي ببدر شهدوا[1] .

* وأثناء دخول السبايا إلى الشام نلمح ملمحاً آخر لديهم في الحفاظ الحرص على أن لا يتصفح الناس وجوه النساء . . . يقول نص : « ودنا سهل بن سعد الساعدي من سكينة بنت الحسين وقال : ألك حاجة ؟ فأمرته أن يدفع لحامل الرأس شيئاً فيبعده عن النساء ليشتغل الناس بالنظر إليه ففعل سهل »[2] .

من هنا نستنتج أن المرأة المسلمة ينبغي أن تكون حريصة على أن لا ينظر إليها الرجال . وأن يكون غضّ البصر هو الحد الذي يقف عنده الرجل وتقف عنده المرأة وأن تكون المرأة ميالة إلى عدم الاختلاط ، وإن كان هناك خروج إلى الشارع أو شيء يدعو إلى الاختلاط فيقتصر على ما لابد منه ، مثلاً في مجال العلم الضروري أو الطبابة وما شابه أو الخروج إلى السوق لشراء الأمور الضرورية عندما لا يكون هناك سبيل آخر .

أما أن يصبح الاختلاط مألوفاً ويصبح الرجل يتحدث مع المرأة دون غض النظر . . . أو تتحدث المرأة مع الرجل دون أدنى غض للبصر . . . فإن ذلك غريب عن النهج الزينبي وروح الإسلام . . .

*** في مجلس يزيد :**

* هذا عن الدخول إلى الشام بشكل عام ، فماذا جرى في مجلس يزيد ؟ هنا نجد أن الدخول إلى مجلس يزيد كان كالتالي :

« ودعا يزيد برأس الحسين عليه السلام ووضعه أمامه في طست من ذهب

---

(١) نفس المصدر ٣٤٨/ ٣٤٩ بتصرف .
(٢) نفس المصدر /٣٤٩ .

وكان النساء خلفه ، فقامت سكينة وفاطمة تتطاولان للنظر إليه ويزيد يستره عنهما ، فلما رأينه ضجّنّ بالبكاء ثم أذن للناس أن يدخلوا ، وأخذ يزيد القضيب وجعل ينكت ثغر الحسين . . . في هذا الجو المفجع للسيدة زينب عليها السلام والسبايا يحاول يزيد أن يقرح قلوب أهل البيت أكثر فيقول : يوم بيوم بدر لأن الفكرة التي كانت تشغل يزيد والتي نلمحها في النصوص المختلفة هي فكرة الثأر . . . هذه الفكرة وغيرها تصلح للدخول في محور خاص حول الثورة المضادة التي كانت تنمو بالتدريج لتطيح بثورة الإسلام . وأنشد يزيد قول الحصين بن الحمام :

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت   قواضب في أيماننا تقطر الدما
نفلّق هاماً من رجال أعزة   علينا وهم كانوا أعق وأظلما[1]

وهنا صدرت بعض المواقف في مجلس يزيد ، منها قول « أبو برزة » الأسلمي وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أشهدُ لقد رأيت النبي يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول : أنتما سيدا شباب أهل الجنة قتل الله قاتلكما ولعنه وأعد له جهنم وساءت مصيرا . . . فغضب يزيد منه وأمر به فأخرج سحبا[1] .

* كذلك نجد موقف رسول قيصر إلى يزيد الذي كان في المجلس ورأى ما يحصل ، ويمكن أن نستنتج من الموقف موقفاً كربلائياً . . . ويمكن أن نستنتج من موقفه أنه كان مسلماً سرّاً أو أنه ـ على الأقل ـ كان يمتلك من الصفاء ما يجعله يرتقي في وقت قصير كرقي السحرة الذين جاء بهم فرعون لمواجهة موسى عليه السلام أو كزهير بن القين الذي كان يكره رؤية الإمام الحسين ثم ارتقى ليصبح قمّة من قمم كربلاء ، يقول النص عن رسول قيصر : « والتفت رسول قيصر إلى يزيد وقال إن عندنا في بعض الجزائر حافر حمار عيسى ونحن نحجّ إليه في كل عام من الأقطار ونهدي إليه النذور ونعظّمه كما تعظّمون كتبكم فأشهد أنكم على باطل فأغضب يزيد هذا القول وأمر بقتله ، فقام إلى الرأس وقبّله وتشهّد الشهادتين وعند قتله

(١) نفس المصدر / ٣٥٤ .
(٢) نفس المصدر / ٣٥٥ .

سمع أهل المجلس من الرأس الشريف صوتاً عالياً فصيحاً : « لا حول ولا قوّة إلا بالله »[1] .

* ومن الطبيعي أن تسجل زينب عليها السلام موقفاً في هـذا الجو ، ومن الطبيعي جدّاً أن يكون الموقف متناسباً مع الأفكار التي يروّج لها يزيد ويحـاول أن يبني حكمه على أساسها . . . فلنحاول التعرف على « منطق » يزيد . . .

وهنا أسجل أن يزيد كان يحاول أن يطرح بعض الأفكار بينما لـم يكن عند ابن زياد إلا السباب . . . وإن كـان قد حـاول التظاهـر في البدايـة بطرح بعض الأفكـار . . . نجد نصّـاً يصوّر لنـا جانبـاً من منطق يـزيد يقـول لأهل الشـام : « أتدرون من أين أُتيَ ابن فاطمة (في محاولة للتبرير) وما الحامل له على مـا فعل والذي أوقعه فيما وقع ؟ قـالوا : لا . . . قـال : يزعم أن أبـاه خير من أبي وأمّـه فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وجدّه خير من جدّي وأنه خير مني وأحق بهذا الأمر منّي ، فأما قوله أبوه خـير من أبي فقد حـاج أبي أباه إلى الله عـزّ وجلّ فعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمّه خير من أمي فلعمري إن فاطمة بنت رسول الله خير من أمي . وأما قوله جدّه خير من جدّي فلعمري مـا أحد يؤمن بـالله واليوم الآخر وهو يرى أن لرسول الله فينا عدلاً ولا ندّاً ولكنـه إنما أتي من قلّة فقهـه ولم يقرأ : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾[2] .

يُـلاحظ أن يزيـد بهذا الكـلام يثبت القـرآن ونبـوّة محمـد صـلى الله عليـه وآله وسلم وقد تقدّم إنكاره لذلك في الأبيات التي استشهد بها والجمع بين الأمرين ممكن باعتبار التفريق بين المجلس الخاص والمجلس العام ففي المجلس الخاص كان يصرّح بكفـره وفي المجلس العام كـان يحافظ عـلى موقعـه أمـام النـاس كخليفـة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

على أي حال هذا جانب من « منطق » يزيد والذي كان على السيدة العقيلة

---

(١) نفس المصدر .

(٢) المقرم / ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

عليها السلام أن تواجهه وتكشف زيفه ، هذا النص يـذكّرنـا بمفهوم الجبر الذي حاول الأمويون تثبيته وترسيخه وإقناع الناس به أي أن الحاكم عندما يكون فاجراً فهذا قدر الأمة ، ولا يصح لها أن تخرج على الحاكم الجائر والفـاجر ، لـو لم يكن الحاكم قدراً لما ملّكه الله تعالى ، يزيد يريد أن يؤسس هذا المفهوم . . .

ومن الـطبيعي جـداً أن تنسف خـطبة السيـدة زينب هـذا المفهـوم من أساسه . . . ويجب أن نستحضر لدى الحديث عن مجلس يزيد . . . أن يزيد هذا لم يكن حاكماً بمستوى حاكم لبنان أو الأردن أو العراق . . . فقد كان يـزيد يحكم العالم الإسلامي المترامي الأطراف . . . كان بحسب المصطلح الحديث حاكم دولة عظمى . . . كالرئيس الأمريكي الشيطان الأكبر .

إذا استحضرنا ذلك وتذكرناه جيداً نستطيع أن ندرك بعمق مدى القـوة في كل كلمة من كلمات خـطبة السيـدة زينب عليها السـلام . . . خصوصـاً عندمـا تستصغر قدره وتعبر عن شديد حزنها لأنها اضطرت إلى الكلام معه رغم أنه خارج من معـركة يعتـبر نفسه المنتصر فيهـا . . . وهي عليها السـلام وسـائـر من معهـا « سبايا » يمكنه أن يصدر الأمر بقتلهم . . .

بهذا الجو ندخل إلى الحديث عن خطبة سيدتنا العقيلة سلام الله عليها . . .

*** خطبتها عليها السلام في مجلس يزيد :**

بدأت عليها السلام خطبتها عندما سمعت يزيد يستشهد بأبيات الشعر التي تقدّمت : ليت أشياخي ببدر شهدوا يقول ابن نما، وكذلك السيد ابن طاووس : لما سمعت زينب بنت علي عليهما السلام يزيد يتمثل بأبيـات ابن الزبعـرى . . . قالت : « الحمد لله رب العالمين وصلىَّ الله على رسوله وآلـه أجمعين ، صـدق الله سبحانه حيث يقول : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السؤاىَ أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون ﴾ ، أظننت يا يزيد ، حيث أخذت علينا أقطار الأرض ، وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسراء أن بنا هواناً على الله وبك عليـه كرامة وأن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفـك تضرب

أصدريك فرحاً وتنفض مذوريك مرحاً[1] ، جذلان مسروراً . . . » .

* في البداية تتحدّث سلام الله عليها عن سوء العاقبة وعن مفهوم تراكم الذنوب الذي مرّ معنا في الحديث عن أهل الكوفة وأن الإنسان نتيجة المعاصي لا بد وأن يكفر ، ثم نقف عند عدم إدراك يزيد لحقائق الأمور تقول له بأنك تنظر إلى ظاهر الأمور وتتصور أن مجرّد قدرتك الظاهرية وانتصارك الظاهري دليل على أنك مع الحق ! . . .

ثم تبدأ عليها السلام بالحديث عن مفهوم « الإستدراج » وهو عبارة عن أن صاحب الذنوب يطلب شيئاً حراماً ، فإن لم يكن عنده من الحسنات ما يجعله أهلاً لتسديد الله سبحانه وتعالى فإن الله يستدرجه فيعطيه طلبه المحرّم ، وهكذا حتى يصل تلقائياً إلى مرحلة لا يمكنه معها الخروج من دائرة الحرام . . . فيموت على غير الإيمان . . .

« . . . حين رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقّة وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ . . .

وهذا الكلام لا بد وأن يفاجىء أهل الشام من يعرف منهم حقيقة السبايا ، ومن لا يعرف ، لأنه منطق القرآن الذي يعرفه عامة المسلمين آنذاك . . .

ثم بعد تركيز هذين المفهومين (سوء العاقبة ، والإستدراج) تكون السيدة زينب عليها السلام قد أبطلت المفهوم الذي يبني يزيد ملكه على أساسه ، فإن يكون الظاهر الحسن دليلاً على الحق ، ذلك منطق متداع جدّاً . . . ثم من أنت يا يزيد ؟

« أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك » فهي تريد عليها السلام أن تقول لأهل الشام أن آباء هذا المدعي للخلاقة ، لم يسلموا إلا كرهاً يوم فتح مكّة . . . وأن من يسبينا الآن قد تعامل جدّنا مع آبائه بالإحسان

---

(1) من قولها عليها السلام تضرب إلى مرحاً كناية عن رقص يزيد فرحاً ، وأصدريك بمعنى « منكبيك » .

عندما قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » بعد أن ظلّوا يحاربون الإسلام ويتآمرون عليه حتى آخر لحظة .

وكل إناء بالذي فيه ينضح . . . **« وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهنّ وأبديت وجوههن ، تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ويستشرفهنّ أهل المناهل والمناقل »** .

شيء مؤلم جدّاً أن يرى أحدنا المرأة المتدينـة العفيفة لا تحفظ كـرامتها ولا تعامل باحترام والمرأة غير المؤمنة تعامل بالإحترام ، فكيف بحرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والسيدة زينب عليها السـلام حين تـركز عـلى هذا الجـانب فإنها تخاطب أحاسيس المسلم لقد قرنت سلام الله عليها قولها ليزيد « أمن العدل يابن الطلقاء » بمسألة الخدر وسبي المخدرات وتسييرهن من بلد إلى بلد ، لتوضـح أن يزيد الذي يدعي ما ليس له لا يراعي أبسط الحقائق الإيمانية ، فمهما كان الإنسان المسلم مضللاً تبقى مسألة العرض عنده مهمّـة بل إن الإنسـان صاحب الفـطرة السليمة نوعاً ما ، ولو لم يكن مهتدياً إلى الإسلام يحرص على مسألة العرض وجاء الإسلام ليكرّس ذلك .

« يتصفّح وجوههن القريب والبعيد ، والـدنيّ والشريـف ، ليس معهن من رجالهن ولي ، ولا من حماتهن حميّ ،وكيف يـرتجى مراقبـة ابن من لفظ فوه أكبـاد الأزكيـاء ونبت لحمه من دمـاء الشهداء » بـين فكرة « أمن العـدل يابن الـطلقاء »

وفكـرة « من لفظ فـوه أكبـاد الأزكيـاء » التي تتحـدّث فيهـا عـمّا جـرى لحمـزة عليه السلام يوم أحد ما زالت تثير السيدة زينب عليها السلام مسألة الستر التي لم يراعها يزيد : وتضيف إليها أيضاً تعريفاً بيزيد وأنه ابن هند التي فعلت مع أسد الله وأسد رسوله حمزة ما فعلت . . . ومن كانت هند أمه فكيف يرتجى منه أن يهتم بالستر . . . **« وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن »** تقول : إن عداوتكم معنا هي فرع عداوتكم للإسلام . . . فبغضكم لنا نـاشيء عن الحقـد الدفـين في قلوبكم . . . وهو بـدوره نـاشيء من بـدر وأحـد وحنـين وغيرهن . . . **« ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تُشل »** .

« منحنياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذريّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونجوم الأرض من آل عبد المطلّب » .

ثم ترجع إلى أشياخ يزيد لتبيّن للناس حقيقتهم وعداءهم للإسلام .

« وتهتف بأشياخك ، زعمت أنك تناديهم فلتردنّ وشيكاً موردهم ، ولتودّن أنّك شللت ، وبكمت ، ولم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت ، اللهم خذ لنا بحقّنا وانتقم لنا ممن ظلمنا وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا » .

ثم تنتقل عليها السلام إلى مفهوم آخر وهو أن الظالم يظلم نفسه . . .

« فوالله يا يزيد ما فريت إلا جلدك ولا حزرت إلا لحمك ولتردنّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما تحمّلت من دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته ، حيث يجمع الله تعالى شملهم ويلّم شعثهم ويأخذ بحقهم ، ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون ﴾ . . . وحسبك بالله حاكماً وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم خصيماً وبجبرئيل ظهيراً . . . » .

يلاحظ أن منطق يزيد هو منطق الظاهر ، بينما منطق السيدة زينب عليها السلام هو منطق الحقائق « إلى الله تصير الأمور » العاقل هو الذي يفكر بعواقب الأمور ، أما الذي يفكر بما يجده الآن أمامه فليس بعاقل ، لإنه يتعامل مع حواسه ، وليس مع عقله ، قيمة العقل في الإنسان أنه يجعله ينفذ من الظاهر إلى الباطن ، مثلاً الفقر بحسب منطق الظاهر هو شر ، ولكن بمنطق العقل والواقع قد يكون خيراً وقد يكون شرّاً . ثم يأتي دور بيان حقيقة معاوية . . . وأن الابن لن يكون إلا مثل أبيه الظالم .

« وسيعلم من سولّ لك وأمكنك من رقاب المسلمين ، بئس للظالمين بدلًا (و) أيكم شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً » وهنا تتجلى عزة المؤمن في نفسها . . . خاصة وأنها ترى الصورة الحقيقية ليزيد فهو أمامها قطعة من جهنم . . . فيغلب عليها الحزن لأنها اضطرت لمخاطبته فتقول له : « ولئن جرت علي الدواهي مخاطبتك ،

إني لأستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، وأستكثر توبيخك . . . لكن العيون عبرى ، والصدور حرّى ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء فهذه الأيدي تنطف من دمائنا ، والأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر ، الزواكي ، تنتابها العواسل (الذئاب السريعة العدو) ، وتعفرها أمهات الفراعل (الضباع) ولئن اتخذتنا مغنماً ، لتجدنا وشيكاً مغرماً ، حين لا تجد إلا ما قدّمت يداك ، وما ربك بظلام للعبيد وإلى الله المشتكى وعليه المعوّل » . . .

ثم تتحدث عليها السلام عن يقينها بأن الحق منتصر والباطل إلى زوال وعن ثقتها بوعد الله تعالى . . . أن المستقبل للإسلام في الدنيا ، وأن يوم الحساب قريب . . . « فكد كيدك واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمدنا ولا تدحض عنك عارها وهل رأيك إلا فَنَد وأيامك ، إلا عدد وجمعك إلا بدد . . . يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين . . . والحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ولآخرنا بالشهادة والرحمة ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل »[1] . وماذا كانت ردة فعل يزيد تجاه هذه الخطبة المدوية . . .

لم تترك له عليها السلام متنفساً . . . أوضحت بما لا مزيد عليه ضحالة وهم النصر الذي يعيش . . . وبينت أن كربلاء حلقة في سلسلة حروب خاضها آل أبي سفيان ضد الإسلام . . . وكشفت زيف إسلامهم . . . وقد عرضت ذلك كله بلغة القرآن والحجة القاطعة واللهجة الواثقة الموقنة . . . فماذا يقول يزيد . . . لم يزد على تمثله ببيت من الشعر :

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

وهو جواب العاجز ، الذي يريد أن يتظاهر بالحلم إلا أن « حلمه » سرعان ما فارقه فلجأ إلى الشتم كما سيأتي . . . وعلى أي حال . . . فإن خطبة سيدتنا

---

(١) النقدي ، زينب الكبرى /٥٢ ـ ٥٥ .

زينب كانت لهباً كربلائياً طال ضرامه الشام ، وستكشف الأحاديث التالية عن بعض تفاعلاته . . .

* وهناك مواقف أخرى للعقيلة في الشام من أهمها عندما أراد شامي أن يتملك فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام فتعلقت فاطمة بعمتها . . . فقالت لها العقيلة : « لا عليك لن يكون أبداً . . .

فقال يزيد : لو أردت لفعلت . . .

فقالت : إلا أن تخرج عن ديننا . . .

فقال : إنما خرج من الدين أبوك وأخوك .

قالت : بدين الله ودين جدي وأبي وأخي اهتديت أنت وأبوك إن كنت مسلماً . . .

قال : كذبت يا عدوة الله . . .

فرقت عليها السلام، وقالت: أنت أمير مسلط تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك وعاود الشامي الطلب ـ أن يأخذ بنت الإمام ـ فنهره يزيد وقال له :.وهب الله لك حتفاً قاضيا »[1] .

وهناك مواقف أخرى تأتي في مطاوي الحديث إن شاء الله تعالى . . .

* * *

(١) المقرم /٣٥٦ ـ ٣٥٧ .



* الحلقة الواحدة والعشرون

* ملامح من سيرة الإمام السجاد عليه السلام ...

* ولد الإمام السجاد عليه السلام على ما في بعض الروايات عام ٣٦ للهجرة ، على أبواب عودة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من حرب الجمل في البصرة . . .

ومعنى ذلك أنه ولد ونشأ في أجواء الأحداث الجسام التي عصفت بالعالم الإسلامي في مدة خلافة جده أبي الحسن عليه السلام . . . والتي أدت إلى شهادة الأمير . . . والصراع بين عمه الإمام الحسن ومعاوية . . . وصولاً إلى أحداث كربلاء العاصفة . . .

* كان عمره الشريف في كربلاء حوالي ٢٢ سنة أو ٢٤ . . . على اختلاف الروايات . . . وعاش بقية عمره في ذروة الحكم الأموي الذي أراد استثمار نصره الظاهري في كربلاء لإخضاع المسلمين والقضاء على إمكانية أي تحرك ثوري ، فعمد إلى إباحة المدينة ورمي الكعبة

بالمنجنيق ، ومطاردة العلويين وسائر الأحرار والتنكيل بهم . . .

* قبل كربلاء كان الناس بشكل عام منصرفين عن أهل البيت عليهم السلام إلى من ابتلاهم الله بالدنيا والسلطة . . . إلى الحكام الظلمة . . . فكيف سيكون الحال بعد كربلاء . . . بعد أن تجرأ الحكم الأموي حتى على الإمام الحسين عليه السلام إن هذا يعطينا فكرة عن الجو الذي تحمل الإمام السجاد عليه السلام فيه أعباء الإمامة . . . ومدى الفرص التي كانت متاحة له لتوجيه الأمة . . . والسير بها إلى الله تعالى . . .

ورغم ذلك فقد تمكن سلام الله عليه من إسماع الأمة صوت الحق وإقامة الحجة عليها . . . كما سنرى . . .

* الطابع العام لحياة الإمام السجاد عليه السلام هو الطابع الكربلائي . . . طابع الحزن على سيد الشهداء عليه السلام . . . كان دائم البكاء . . . حتى عوتب في ذلك . . . فقال له بعض مواليه : إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين . . . فقال عليه السلام :

« يا هذا . . . إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون إن يعقوب كان نبياً ، فغيب الله عنه واحداً من أولاده ، وعنده اثنا عشر وهو يعلم أنه حي فبكى عليه ، حتى ابيضت عيناه من الحزن . . . وإني نظرت إلى أبي وإخوتي وعمومتي وصحبي مقتولين حولي ، فكيف ينقضي حزني . . . وإني لا أذكر مصرع بني فاطمة إلا خنقتني العبرة . . . وإذا نظرت إلى عماتي وأخواتي ذكرت فرارهن من خيمة إلى خيمة »[1] .

ولقد كان نقش خاتمه عليه السلام « خزي وشقي قاتل الحسين عليه السلام » . . .

إننا وبعد مرور حوالي أربعة عشر قرناً على أحداث كربلاء . . . لا نستطيع عندما نتذكر بعض أحداثها التي رواها الرواة أن نتمالك أنفسنا عن البكاء . . . فكيف بمن عايش كل حدث من أحداثها . . . وذهبت نفسه حسرات أمام

---

(١) نفس المصدر/٣٧٧ .

فجائعها . . . وهو بعد ابن الإمام الحسين . . . الذي يعيش في ظل الحكومة الأموية . . . خصوصاً في المدينة التي عمد الحكم فيها إلى الشماتة والإنتقام فنشر فيها مظاهر الإبتهاج والفرح والتشفي بمقتل الإمام الحسين سلام الله عليه . . .

ولكربلاء في نفس الإمام السجاد ، حتى قبل شهادة أبيه ، حديث ذو شجون . . . ألم يتقدم معنا أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان في مجلس عاشورائي مستمر ، كذلك سائر أهل البيت عليهم السلام . . .

إذن كان الألم الكربلائي يعتصر قلب المولى زين العابدين من قبل أحداث كربلاء . . . ثم عاش كل مفرداتها . . .

* رأى كتب أهل الكوفة تتوالى . . . حتى اجتمع منها خرجان . . . ثم رأى تبدل موقفهم . . . وكيف جاءت جموعهم كالسيل لحرب أبيه وأهل بيته وصحبه . . . على قلة عددهم . . .

* وقد سمع عليه السلام كل كلام قالوه . . . أو اطلع عليه . . . بما كان كلامهم يمثل من جرأة على الله تعالى ورسوله وأهل بيته . . . ووقاحة وصلف . . .

* ولقد كان المجاهد في كربلاء يندفع إلى ساحة المعركة باحثاً عن الشهادة ليخفف بذلك وطأة المصائب عليه . . . أولاً نجد بأن العباس عليه السلام يقول للإمام الحسين « قد ضاق صدري من هؤلاء المنافقين وأريد أن آخذ ثأري منهم » .

أما الإمام السجاد عليه السلام فلم يكن بإمكانه أن يأخذ ثأره . . . كان عليه أن يتجرع الغصص وضيق الصدر والكمد . . . لأن الله تعالى شاء أن يحفظ بحفظه خط الإمامة . . .

* وكم كان مفجعاً للإمام السجاد عليه السلام دخوله الكوفة . . . عاصمة جده بالأمس . . . فهذا هو البيت . . . والمنبر والمحراب . . . وفي كل زاوية لأمير المؤمنين حكاية . . .

وها هم جند جده بالأمس يسبون أبناءه . . . والأهم من ذلك سبي بناته . . .

* ولو لم تكن من غصص الإمام السجاد عليه السلام إلا سبي عمته وسائر الهاشميات لكفى . . .

* فكيف إذا أضفنا إلى ذلك دخوله وهن معه إلى مجلس ابن زياد ثم إلى مجلس يزيد . . .

* هذه الأمور تجعلنا نكوّن فكرة عن الخطوط العامة لسيرة الإمام السجاد عليه السلام خاصة وأن حكم بني أمية ازداد قوة بعد أحداث كربلاء . . .

ومع ذلك فقد استطاع عليه السلام اعتماد النهج الذي يمكنه من حفظ المسيرة المؤمنة وترسيخ دعائم الإسلام . . .

ولقد كان من شأن « الحزن الكربلائي المقيم » الذي خيم عليه طيلة حياته الشريفة أن يشكل أعظم رافد لعودة الأمة إلى الإسلام . . . فكربلاء مدرسة حفظ الإسلام وبمقدار ما تكون حاضرة في ذهن الأمة فإنها تحصنّها من مزالق الإنحراف اليزيدي . . .

صحيح أن الإمام السجاد عليه السلام كان يعيش هذا الحزن بشكل عفوي . . . إلا أن الصحيح أيضاً أن هذا العيش العفوي لفجائع كربلاء أبلغ أثراً . . . خاصة في نفوس الذين عايشوا تلك الأحداث فلم يقفوا مع الحق . . . أو في نفوس الذين يعيشون تحت سلطة هؤلاء الحكام الذين سفكوا دماء عترة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم . . .

ولقد تفاعلت الأمة مع حزن الإمام السجاد . . . إلى حد أن المختار كان يعلم أنه بأمس الحاجة إلى كلمة تأييد منه عليه السلام . . . إلى جانب ذلك كانت سيرة الإمام السجاد عليه السلام على الصعيدين الفردي والإجتماعي تشكل التجسيد الحقيقي لسيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في عصر تغلبت فيه الردة عن الإسلام وأصبح المدعي لخلافة المصطفى « رجل فاسق شارب الخمر » ، يلاعب القردة . . . والراقصات . . . وإذا بالولاة كمولاهم والناس على دين ملوكهم . . . والذين جاؤوا بعد يزيد وولاته لم يكونوا سوى امتداد ملعون لهذا الإسفاف . . .

في مثل هذا الجو ندرك حجم المعاناة التي كان يصطلي بنارها كل مسلم سلمت زاوية من فطرته من تحريف الطغاة . . . كما ندرك عمق الحاجة للقدوة التي تقدم النموذج العملي للإسلام . . .

* أقف هنا عند مفردات ملامح من سيرة الإمام السجاد عليه السلام ، تسلط الضوء على هذا النموذج العملي الذي أتاح للأمة أن تتواصل مع صدر الإسلام رغم جبال الحقد والفسق والفجور الأموية التي حاولت فصل الأمة عن الوحي « فلا خبر جاء ولا وحي نزل » .

أولاً : عبادته عليه السلام ، التي تتحدث عنها النصوص من طرق السنة كما تتحدث عنها النصوص من طرقنا . . . هناك نص رواه العلماء السنة عن جابر الأنصاري يقول فيه :

كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والحسين في حجره وهو يلاعبه ، فقال : « يا جابر ، يولد لابني الحسين ابن يقال له علي . . . إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : ليقم سيد العابدين ، فيقوم علي بن الحسين . . . ويولد لعلي ابن يقال له محمد . . . يا جابر إن رأيته فأقرأه مني السلام . . . »[1] وكل أئمتنا عليهم السلام كانوا الغاية في عبادة الله تعالى . . . وعندما نستعرض كلمات العلماء السنة حولهم عليهم السلام نجد أن الأمة أجمعت على مرجعيتهم وأنهم القدوة . . . رغم كل محاولات الطواغيت . . .

وللإمام السجاد عليه السلام موقع مميز . . . كما هو واضح من النص المتقدم . . .

* وهناك نص طريف يكشف عن النهج العبادي الذي كان سلام الله عليه قد نهجه . . . يقول الإمام الصادق عليه السلام وهو يصف لنا عبادة جده سيد العابدين : « ولقد دخل ابنه أبو جعفر عليه السلام (أي الإمام الباقر) عليه ، فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد ، فرآه قد اصفر لونه من السهر ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة . . .

---

(١) كشف الغمة ٢ / ٣٣٠ ـ ٣٣١ .

قال أبو جعفر : « فلم أملك حين رأيته بتلك الحال ، البكاء ، فبكيت رحمة له ، وإذا هو يفكر ، فالتفت إلي بعد هنيهة من دخولي وقال : يا بني ، أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ، ثم تركها من يده تضجراً وقال : ومن يقوى على عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام »[1] .

إذن الإمام السجاد عليه السلام . . . كان من كثرة العبادة قد بلغ ما لم يبلغه أحد في زمانه ، اصفر لونه من السهر . . . عيناه تغير وضعهما . . . جبهته تأثرت بكثرة السجود حتى عرف بذي الثفنات (اللحم الميت على الجبهة والركبتين من كثرة السجود) ومع ذلك عندما نظر في بعض الأوراق التي فيها عبادة علي ـ بعضها وليس كلها ـ رأى أن عبادة علي لا تطاق . . . فأين نحن منهم . . . صحيح أننا لا نستطيع أن نبلغ معشار ما بلغوه . . . ولكن ألا يجب علينا أن نقتدي بهم فنسير في خط العبادة بمقدار ما نستطيع . . .

ومن الواضح أن هذا لا يكشف لنا عن كل أبعاد عبادته . . . إنما هو أمام بحر عبادته كما تأخذ البعوضة بجناحها من ماء البحر . . .

ثانياً : الدعاء بشكل خاص . . . فقد كان عليه السلام كثير الدعاء . . . بل دائم الدعاء وانتشر عنه في هذا المجال ما سيبقى مخلداً إلى يوم القيامة . . .

نظرة في الصحيفة السجادية توضح لنا كيف أنه عليه السلام ثقف الأمة بمفاهيم الإسلام وربا على المفاهيم القرآنية والنبوية . . . لم يترك شاردة ولا واردة إلا تناولها . . . غاص في أعماق النفس البشرية وحللها . . . ذكر الأمراض وحدد العلاج . . . حتى غدت الصحيفة السجادية مدرسة فريدة لتخريج الشخصية السوية المتكاملة . . .

تحدث عن التوحيد والنبوة والمعاد . . . وتحدث عن أهل البيت وموقعهم والعلاقة بالله تعالى . . . وعن مكارم الأخلاق . . . والتوبة إلى الله تعالى مركزاً على البعد الجهادي . . . ودعاء أهل الثغور شاهد في هذا المجال . . . وعلى البعد السياسي والدعاء على الظالمين شاهد . . .

---

(١) نفس المصدر /٢٩٧ .

لئن كان ظرف الإمام السياسي لم يسمح له بمخاطبة الناس مباشرة فإنه خاطبهم من خلال مناجاة الله . . . وهو خطاب أكثر صفاء وأشد تأثيراً . . . ويتجلى ذلك حتى في الأسلوب الذي يشعر أهل كل عصر أنه خاص بهم . . .

ثالثاً : البيت . . . المدرسة . . .

كان بيت الإمام السجاد عليه السلام مدرسة يتخرج منها سنوياً عدد كبير من العبيد يشتريهم فيربيهم ثم يعتقهم « وما استخدم خادماً فوق حول كامل ، إذا ملك عبداً في أول السنة أو في وسط السنة أعتقه ليلة عيد الفطر واستبدل به غيره »[1] .

ومن طريف النصوص . . . ما يحدثنا عن معاملته عليه السلام لغلمانه . . . كان إذا دخل عليه شهر رمضان يكتب على غلمانه ذنوبهم ، حتى إذا كان آخر ليلة دعاهم ثم أظهر الكتاب وقال : يا فلان فعلت كذا ولم أؤذك . . . فيقرون أجمع . . .

فيقوم في وسطهم ويقول لهم : « ارفعوا أصواتكم وقولوا : يا علي بن الحسين ربك قد أحصى عليك ما عملت ، كما أحصيت علينا ، ولديه كتاب ينطق بالحق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، فاذكر ذل مقامك بين يدي ربك الذي لا يظلم مثقال ذرة وكفى بالله شهيداً . . . فاعف واصفح يعف عنك المليك لقوله تعالى : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ ويبكي وينوح »[2] .

رابعاً : في التعامل مع الناس . . .

ومن الواضح أن من كانت هذه سيرته مع الله تعالى . . . سيكون مثلاً أعلى في التعامل مع الناس وهناك نصوص كثيرة تتحدث عن هذا البعد في سيرته عليه السلام أذكر منها :

* انتهى عليه السلام إلى قوم يغتابونه فوقف عليهم فقال لهم : إن كنتم صادقين فغفر الله لي ، وإن كنتم كاذبين فغفر الله لكم[3] .

---

(١) المراقبات للتبريزي / ١٦٠ بتصرف .

(٢) مناقب آل أبي طالب ٤/١٥٧ ـ ١٥٨ وتجد النص مطولاً في المراقبات /١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٣) المناقب ٤/١٥٨ .

* سبه رجل ، فسكت عنه ، فقال : إياك أعني . . . فقال عليه السلام : وعنك أغضي (أُعرض)[1] .

* وشتمه آخر فقال عليه السلام : يا فتى . . . إن بين أيدينا عقبة كؤوداً (عقبة الحساب يوم القيامة) فإن جزت منها فلا أبالي بما تقول ، وإن أتحير فيها فأنا شر مما تقول[2] .

وخامساً : اهتمامه بالفقراء . . .

وهو أمر يدخل ضمن العلاقة مع الناس إلا أنه لخصوصيته عنوان مستقل . . . وتوجد نصوص كثيرة حوله أذكر كذلك بعضها :

* قال أبو حمزة الثمالي : كان زين العابدين عليه السلام يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به ويقول : إن صدقة السر تطفيء غضب الرب ، ولما مات عليه السلام وغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار في ظهره فقالوا : ما هذا ؟ قيل : كان يحمل جراب الدقيق على ظهره ليلاً ويوصلها إلى فقراء المدينة .

* قال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين عليهما السلام .

* لما مات علي بن الحسين عليهما السلام وجدوه يقوت مائة بيت من أهل المدينة كان يحمل إليهم ما يحتاجون إليه[3] .

هذا غيض من فيض من سيرته الطاهرة . . . وما هي إلا « ملامح » تساعدنا على فهم النصوص التي تتحدث عنه سلام الله عليه في كربلاء والكوفة والشام والرجوع إلى المدينة . . .

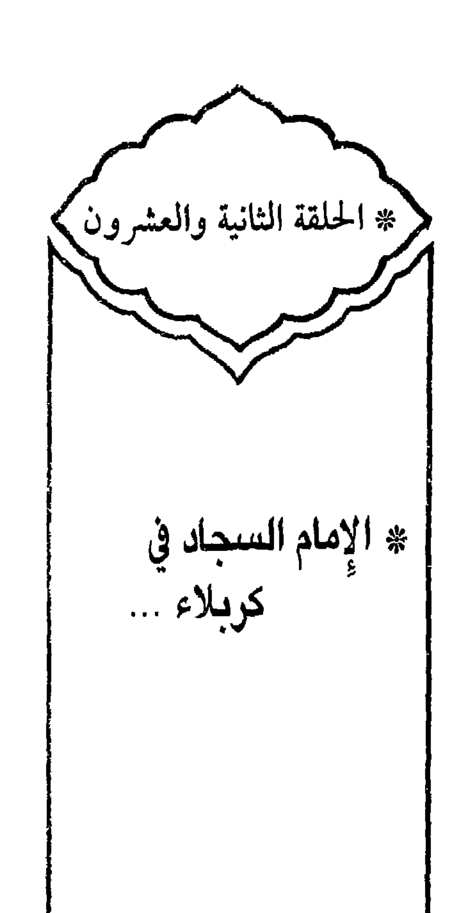
* * *

---

(١) نفس المصدر /١٥٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) النصوص الثلاثة ـ كشف الغمة ٢/٣١٨ .



* المهم أن نتـذكـر في أيـام السبي بـاستمـرار أن مـوكب أهـل البيت عليهم السـلام، ينتقـل من بلد إلى بلد، لنكـون حقيقـة نحـزن لحـزن أهـل البيت، الإمـام السجـاد عليه السـلام والسيـدة زينب وحتى الإمام الباقر عليه السلام كذلك كل فـرد من أفـراد السبـايـا كيف كـان وضعـه في تلك المرحلة .

وفي الأحاديث التالية يتم - إن شاء الله - استعراض النصوص المرتبطة بالإمام السجاد عليه السلام بخصوص كربلاء وما بعدها كذلك لا بـد من وقفة عنـد رجوع الإمام إلى المدينة وماذا جرى عليه فيها .

وأبدأ هنا بنص حول الإمام السجاد سلام الله عليه في ليلة العـاشر من المحرم « قال علي بن الحسين سمعت أبي في الليلة التي قتـل في صبيحتها يقـول وهـو يصلح سيفه :

يـا دهـر أفٍّ لـك مـن خـليـل　　كـم لـك بـالإشراق والأصيـل
مـن صـاحـب وطـالـب قـتـيـل　　والـدهـر لا يـقـنـع بـالـبـديـل
وإنـمـا الأمـر إلى الجـلـيـل　　وكـل حـي سـالـك سـبـيـلي

فأعادها مرتين أو ثلاثاً ففهمتها وعرفت ما أراد وخنقتني العبرة ولزمت السكوت وعلمت أن البلاء قد نزل[1] » .

يكشف لنا هذا النص عن أولى اللحظات الحرجة التي عاشها الإمام السجاد عليه السلام في كربلاء . . . كما يكشف لنا عن جانب من صبره وتجلده . . . وهذا النص هو فيما يبدو أول ما نطل من خلاله على الإمام السجاد عليه السلام في كربلاء .

* أيضاً نجد في نصّ آخر زمانه اليوم العاشر من المحرّم : « ولما قتل العباس التفت الحسين عليه السلام فلم ير أحداً ينصره ونظر إلى أهله وصحبه مجزّرين كالأضاحي وهو إذ ذاك يسمع عويل الأيامى وصراخ الأطفال فصاح بأعلى صوته : هل من ذاب عن حُرم رسول الله ؟ هل من موحّد يخاف الله فينا ؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا ؟ فارتفعت أصوات النساء بالبكاء » . . .

وبالتأكيد فإن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن ينادي بانكسار وإنما كان ينادي الأجيال كلها ، ليوضح لها الطريق . . . أما تأثير هذا النداء على الإمام السجاد عليه السلام فيضيف النص : « ونهض السجاد عليه السلام يتوكأ على عصا ويجر سيفه لأنه مريض لا يستطيع الحركة ، فصاح الحسين بأم كلثوم احبسيه لئلا تخلو الأرض من نسل آل محمد فأرجعته إلى فراشه »[2] .

ألا ترى معي أن هذا الموقف وحده يكفي ليظل الإمام السجاد عليه السلام يبكي طيلة عمره كلما تذكره من جهة يسمع الإمام الحسين عليه السلام ينادي : « هل من ذاب عن حرم رسول الله » « هل من موحد يخاف الله فينا » « هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا ؟ » ومن جهة أخرى يسمع ارتفاع أصوات النساء بالبكاء . . . وهو بعد لا يستطيع أن ينزل إلى ساحة المعركة . . .

(١) مقتل الحسين ، المقرم /٢١٧ .
(٢) نفس المصدر/ ٢٧١ .

* وهنـاك نص آخر عن مـرحلة ما بعـد استشهـاد الإمـام الحسـين عليـه السلام ، يتحـدّث هذا النص عن فـترة السلب والنهب ، وهو كـما يـلي : « وانتهى القوم إلى علي بن الحسين وهو مريض على فـراشه لا يستـطيع النهـوض فقائل يقول لا تدعوا منهم صغيراً ولا كبيـراً (بطبيعـة الحال كـان هؤلاء بالأمس شيعة) وآخر يقول لا تعجلوا حتى نستشير الأمـير عمر بن سعـد . وجرّد الشمـر سيفه يريد قتله فقال له حميد بن مسلم : يا سبحان الله ، أتقتل الصبيان إنمـا هو صبي مريض ، فقال : إن ابن زياد أمر بقتل أولاد الحسين وبالغ ابن سعد في منعه خصوصاً لما سمع العقيلة زينب ابنة أمير المؤمنين تقول : لا يقتل حتى أقتل دونـه فكفوا عنه »[1] .

كان الشمر عيناً لابن زياد على ابن سعد . . . ويلاحظ أنه دائماً كان يتصرف على هذا الأسـاس . . . وكان ابن سعـد يحاول أن يثبت أمـام الجيش ولاءه لابن زياد . . . من ذلك عندما رمى بأول سهم إلى معسكر الحسين عليه السلام وقال : اشهدوا لي عند الأمير . . . وكان الشمر قد حمل رسالة لابن سعد . . . إن عمل بها وإلا تولى الشمر قيادة الجيش في كربلاء . . .

هنا يظهر كيف أن البعض يحتج على الشمر بابن سعد . . . ويحاول منع قتل الإمام السجاد بحجة أنهم لا يعرفون رأي ابن سعد . . . إلا أن الشمر يحاول قتل الإمام محتجاً بتعاليم ابن زياد . . .

ويظهر كذلك أثر موقف العقيلة زينب في الحيلولة دون قتل الإمام السجاد عليه السلام . . .

* هناك نص آخر يتحدث عن وداع الإمام السجـاد لأبيه وأهله . . . ومـا أشد مضاضة تلك اللحظات . . .

يقول السيد المقرم : « وأما علي بن الحسين فـإنه لمـا نظر إلى أهله مجـزرين وبينهم مهجة الزهراء بحالة تنفطر لها السماوات وتنشق الأرض وتخـر الجبال هـدا عظم ذلك عليه واشتد قلقه » .

---

(١) نفس المصدر / ٣٠١ .

فلما تبينت ذلك منه زينب الكبرى بنت علي عليها السلام ، أهمها أمر الإمام ، فأخذت تسليه وتصبره وهو الذي لا توازن الجبال بصبره وفي ما قالت له :

« ما لي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي فوالله إن هذا العهد من الله إلى جدك وأبيك ولقد أخذ الله ميثاق أناس ، لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون في أهل السماوات ، أنهم يجمعون هذه الأعضاء المقطعة ، والجسوم المضرجة ، فيوارونها ، وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يمحى رسمه على كرور الليالي والأيام ، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلال في محوه وتطميسه ، فلا يزداد أثره إلا علواً »[1] .

إذن لقد بلغ أسى الإمام زين العابدين عليه السلام ، أنه كان يجود بنفسه . . . وهل نجد تعبيراً أبلغ من ذلك في الدلالة على عمق الفاجعة في نفسه الكبيرة الطاهرة . . . هذا وهو يكابد المرض . . . وهنا ينفجر معين حنان العقيلة « يا بقية جدي وأبي وإخوتي » لتخفف بذلك من عصف اللوعة ، وتحدث الأجيال عن خلود كربلاء وبقاء علمها مرفرفاً لا يدرس أثره . . . ليدرك كل الناس أن كربلاء لم تكن حركة جهادية تعي ظروفها آنذاك وحسب . . . وإنما كانت تدرك بعمق حركة التاريخ كله . . . وأنها كانت لتظل البوصلة التي تحدد الإتجاه . . . اجتهد أئمة الكفر وأشياع الضلال في محاولات طمسها .

* وبعد وداع الشهداء . . . يأتي حديث « موكب السبايا » . . . فها هو ابن سعد يأمر جيشه بالرحيل . . . وها هم شيعة أهل البيت بالأمس . . . شيعة آل أبي سفيان اليوم فرحين . . . وها هم أهل البيت « سبايا » وكل ذلك بمنطق الظاهر . . . إلا أنه ظاهر مفجع . . . « وإلى الله المشتكى وعليه المعول » .

في حرب الجمل . . . كانت الغلبة لأمير المؤمنين عليه السلام فكيف تعامل مع « عائشة » لقد أكرمها ووكل بها أخاها محمد بن أبي بكر . . .

والسيدة زينب أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من زوجته عائشة . . . وكذلك الإمام السجاد عليه السلام وسائر أبنائه وبناته فكيف تعامل معهم هؤلاء الطغاة . . .

---

(١) نفس المصدر /٣٠٨ .

« وبعد الزوال (من اليوم الحادي عشر) ارتحل (ابن سعد) إلى الكوفة ، ومعه نساء الحسين وصبيته وجواريه ، وعيالات الأصحاب ، وكن عشرين امرأة ، وسيروهن على أقتاب الجمال بغير وطاء كما يساق سبي الترك والروم ، وهن ودائع خير الأنبياء ، ومعهن السجاد علي بن الحسين وعمره ثلاث وعشرون سنة وهو على بعير ظالع بغير وطاء وقد أنهكته العلة ، ومعه ولده الباقر ، وله سنتان وشهور . . . »[1] .

رغم هذا كله ظل أهل الكوفة وأميرهم وخليفتهم يصلون ويتحدثون بالإسلام ويخدعون أنفسهم بأنهم مسلمون . . . والأدهى من ذلك أنهم ظلوا يقرأون في كتاب الله تعالى ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى** ﴾ .

حقاً لو أن أمرءاً مات من هذا كمداً . . . لما كان ملوماً . . .

إلا أن الأهم من ذلك أن نراقب أنفسنا فلا نفعل فعل أهل الكوفة ونحن لا نكاد نصدق . . . إن كل مجتمع مسلم يتفرق عن حملة راية الإسلام ويسمح للطواغيت باستفرادهم هو مجتمع كوفي . . . مهما كانت درجة تظاهره بالإسلام .

ذلك هو الدرس الكربلائي الأول الذي يصح لنا بعد فهمه والإلتزام به أن نقول : يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً .

* * *

---

(١) نفس المصدر / ٣٠٥ .





* مع أهل الكوفة :

* تحت شعار « ويحكم اقتلوه لا تنام إليه شيعته » كانت حركة الحكم الأموي سريعة . . . وكان تخاذل أهل الكوفة وسقوطهم المدوي مفاجئاً حتى ليزيد وابن زياد . . . وبدأت الأخبار تصل من كربلاء إلى الكوفة . . . حتى بلغهم نبأ مقتل سيد الشهداء عليه السلام . . . فكيف واجه أهل الكوفة النبأ الصاعقة . . .

ها هم يخرجون لإستقبال « السبايا » . . . وكأنهم لم يفعلوا شيئاً . . . كأن المعني بالأمر غيرهم . . . أما هم فليسوا إلا متفرجين . . . ويبكون « فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنة » .

قال العلامة المجلسي رحمه الله في البحار :

رأيت في بعض الكتب المعتبرة ، روى مرسلاً عن مسلم الجصاص قال :

دعاني ابن زياد لإصلاح دار الإمارة بالكوفة ، فبينا أنا أجصص الأبواب وإذا أنا بالزعقات قد ارتفعت من جنبات الكوفة ، فأقبل عليَّ خادم كان معنا فقلت : ما لي أرى الكوفة تضج ؟ قال : الساعة أتوا برأس خارجي خرج على يزيد ، فقلت من هذا الخارجي فقال : الحسين بن علي . . .

قال : فتركت الخادم حتى خرج ولطمت وجهي وخشيت على عينيَّ أن تذهبا ، وغسلت يديَّ من الجص وخرجت من ظهر القصر ، وأتيت إلى الكناسى (الساحة العامة) فبينما أنا واقف والناس يتوقعون وصول السبايا والرؤوس إذ قد أقبلت نحو أربعين شقة تُحمل على أربعين جملاً ، فيها الحرم والنساء ، وأولاد فاطمة عليها السلام . . . »[1] .

لا شك أن هذا الجصاص من أفضل أهل الكوفة ، ومع ذلك فهو من مدرسة « نريد أن نعيش » يعلم أن « إمامه » في كربلاء يواجه جيشاً عرمرماً ، وهو يبحث عن « معاشه » و« قوته » ولو في قصر الإمارة . . . فهل يغنيه بكاؤه ولطمه عينيه حتى خشي أن تذهبا ؟! ما قيمة تشيعه إن لم يكن مستعداً لنصرة من تشيع له وتقديم نفسه في سبيل الله بين يديه . . . إن هذا هو الفرق الأساسي بين تشيعين . . . طائفي ومبدئي ثم إن النص يدلنا على أهمية المتابعة السياسية للأحداث ليتمكن الإنسان من اتخاذ الموقف المناسب في الوقت المناسب ولا يكون كهذا الجصاص . . .

وفي رواية أخرى أن رأس الإمام الحسين عليه السلام ، كان قد أرسل إلى الكوفة قبل دخول السبايا ، فلما وصل موكب السبايا إلى مشارف الكوفة « أمر ابن زياد أن يستقبلوا برأس الحسين عليه السلام ، فحملوا الرأس الشريف على الرمح وكذلك سائر الرؤوس وسلكوا بها قدام السبايا حتى دخلوا البلد ـ على هذه الحال ـ ثم طافوا بالرؤوس الشريفة السكك والأسواق »[2] .

مما لا شك فيه إذن أن تجمهر أهل الكوفة لم يكن تحدياً لابن زياد . . . فهو الذي أراد ذلك ، وهو واثق من تخاذل أهل الكوفة إلى حد أنه يأمر أن يطاف

---

(١) نفس المهموم للمحدث القمي / ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .
(٢) نفس المصدر / ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

بالرؤوس والسبايا في شوارع الكوفة . . .

ويغلب على ظني أن بكاء أهل الكوفة لم يكن تحدياً . . . بل كان بكاء الخائف الذي يبادر إلى مسح دموعه حتى لا يراه جلاوزة ابن زياد ولا شك أن هذا لم يكن شأن كل فرد فردٍ منهم . . . إلا أنه كان بالتأكيد الطابع العام . . . اللهم لا تجعلنا كوفيين . . . هكذا إذن دخل موكب السبايا إلى هذا البلد الشيعي الطليعي بالأمس الذي ابتلي بسوء العاقبة والخذلان . . . وفي هذا الموكب كان الإمام السجاد ولكن على أية حال ؟

وجيء بعلي بن الحسين ، على بعير ظالع ، والجامعة في عنقه ، ويداه مغلولتان إلى عنقه ، وأوداجه تشخب دماً ، فكان يقول :

يا أمّة السوء لا سقيا لربعكم ... يا أمةً لم تراع جدّنا فينا
لو أنّنا ورسول الله يجمعنا ... يوم القيامة ما كنتم تقولونا ؟
تسّيرونا على الأقتاب عارية ... كأننا لم نشيّد فيكمُ دينا !

وأومأ إلى الناس أن اسكتوا فلمّا سكتوا حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه ثم قال :

في هذا الجو كان طبيعياً أن يعرّف الإمام النّاس بنفسه حتى يظهر أمامهم كيفية تعامل يزيد وابن زياد مع أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . .

« أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أنا ابن من انتهكت حرمته وسلبت نعمته وانتهب ماله ، وسبي عياله ، أنا ابن المذبوح بشط الفرات من غير ذحل ولا تراث ، أنا ابن مَنْ قتل صبرا وكفى بذلك فخرا » وبما أن الإمام عليه السلام يقف في جموع أهل الكوفة الذين غدروا بالإمام الحسين عليه السلام بعدما جاءته كتبهم ، كان من الضروري أن يذكرهم بهذه المسألة .

« أيها الناس ناشدتكم الله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهوُد والميثاق والبيعة وقاتلتموه ، فتبّاً لكم لما قدمتم

لأنفسكم ، وسوأة لرأيكم ، بأية عين تنظرون إلى رسـول الله ، إذ يقول لكم : قتلتم عترتي ، وانتهكتم حرمتي فلستم من أمتي » .

فارتفعت الأصوات بالبكاء وقالوا : هلكتم وما تعلمون . وما أشد غـرابة هـذا العذر الأقبـح من ألف ذنب . . . إنهم الآن يكتشفـون أنهم هلكـوا « ومـا يعلمون » !! ومما لا شك فيه بأن خطبـة الإمام السجـاد عليه السـلام في الكوفـة وخطبة السيدة زينب وسائر الخطب كان لها الأثر الفاعل في تعميق عقدة الـذنب لدى أهل الكوفة وفي ردّات الفعل التي حصلت ضد سلطة يزيد وابن زياد .

ثم قال عليه السلام : « **رحم الله امرءاً قبـل نصيحتي ، وحفظ وصيّتي في الله وفي رسوله وأهل بيته ، فإن لنا في رسول الله أسوة حسنـة فقالـوا بأجمعهم : نحن يا ابن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك ، غير زاهدين فيك ، ولا راغبين عنك ، فمرنا بأمرك يرحمك الله فإنا حرب لحربك ، وسلم لسلمك ، نبرأ ممن ظلمك وظلمنا** » . الملفت هنا أن الإمام السجاد عليه السلام يركز عـلى الإلـتزام بـأهـل البيت والـولايـة . . . إنمـا سقط أهـل الكـوفـة لأنهم لم يلتزمـوا بالولاية . . . الفرق بين الشيعة الذين كانوا ضد الإمام الحسين والذين كانوا معه هو في مسألة الولاية ودرجة الحب لأهل البيت فلا بد أن بعض الذين وقفـوا ضد الإمام الحسين عليه السلام كانوا يحملون في أنفسهم درجة معينة من التعاطف معه لكن هـذا التعـاطف لم يكن أكـثر من حبّهم لأنفسهم وأولادهم . . . « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وتكون عترتي أحب إليه من عترته » فدرجة الحب لأهل البيت هي المهمة وليس أصل الحب . . . وإذا صحّت رواية بكاء ابن سعد على الإمام فلأنه يحمل درجة معينة من المعرفة والتعاطف مع أهل البيت ، إلا أنها لم تنفعه لأنها كانت دون مستوى حبه لنفسه بكثير . . .

المسألة التي تنفعنا كشيعة في هذا العصر أن يكون الوقوف مع الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف أقوى وأهمّ عندنا من كل شيء . . . فإذا قدّر لنا أن ندرك عصر الظهور فالإمام سوف يتعامل عـلى أساس الـواقع ، فقـد يأمـر بقتل شخص يحترمه عدد كبير منّا ، ينبغي أن نكون مسلّمين ، قد يأمر بقتل رب عائلة فيجب أن يكون أولاده ملتزمين مسلّمين بذلك وهكذا . . .

مسألة حبنا لأهل البيت عليهم السلام ينبغي أن تكون بمستوى لا يحول يننا وبين الإلتزام بأمرهم شيء . . . ولا شك أن مواقفنا فعلاً من الفقيه الجامع للشرائط ، ولي أمر المسلمين ، تدل على مواقفنا غداً من الإمام المنتظر صلوات الله عليه هؤلاء الذين يخاطبهم الإمام عليه السلام يؤكد عليهم مسألة الولاية وحب أهل البيت ، أما هم فإنهم يتصرّفون من منطلق وَهْمِ الولاية فالإمام الحسين عليه السلام لم يدفن بعد وهم يقولون : « نحن يابن رسول الله سامعون مطيعون » فقال عليه السلام : « هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة ، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم ، أتريدون أن تأتوا إلي كما أتيتم إلى أبي من قبل كلا وربّ الراقصات (وهي النجوم) فإن الجرح لمّا يندمل ، قتل أبي بالأمس وأهل بيته ولم ينس ثكل رسول الله ، وثكل أبي وبني أبي ، إن وَجْدَه والله لبين لهاتي ، ومرارته بين حناجري ، وحلقي ، وغصته تجري في فراش صدري »[1] .

الإمام عليه السلام ، يحدثهم عن الولاية وهم يقولون بأنهم حاضرون لتنفيذ أمره ، لكنه يقول لهم بأن ما تتصورونه في حالة الإندفاع وفي حالة السرّاء قد لا يدوم - كما لم يدم من قبل - المهم أن يكون المسلم حاضراً أن يقف الموقف الصعب عندما يدعوه داعي الجهاد . . .

وهذا يجعل من واجبنا أن يسأل كل منا نفسه : لو أني كنت في الكوفة غداة دخلها مسلم بن عقيل رضوان الله عليه . . . فما هو الموقف الذي كنت سأختاره ؟ ثم هل كنت سأتحدى كل الجو الذي فرضه إرهاب ابن زياد وتخاذل الناس لأجرد سيفي مواجهاً الجلاوزة الذين يحاصرون الكوفة لألتحق بالإمام الحسين عليه السلام ؟ إذا رأى أحدنا نفسه تجيب على السؤال بما يطمئنه . . . فلينتقل من التاريخ إلى الحاضر وليسألها :

إذا كنت صادقة في الجواب فما هو موقفك الآن من الحسينيين . . . المجاهدين في سبيل الله . . .

هل أنت مع الحسينيين . . . أم أنك مع اليزيديين . . .

فكل يوم عاشوراء . . . وكل أرضٍ كربلاء . . .

---

(١) نفس المصدر /٣١٦ - ٣١٧ .

*** في مجلس ابن زياد :**

يزداد المتأمل في النصوص اقتناعاً بأن ابن زياد بالإضافة إلى أنه كان فظّاً غليظ القلب ، لم يكن يمتلك شيئاً في عالم الفكر وكل النصوص التي نقلت عنه تكشف هذه الناحية ونلاحظ الفرق بين كلام ابن زياد وكلام يزيد فهذا الأخير كان يحاول أن يطرح فكرة معينة لكن ابن زياد لم يحاول أن يطرح فكرة وإنما طرح الشعارات والتشفّي . . .

كان الإمام السجاد عليه السلام جالساً عندما دار الكلام بين السيدة زينب وابن زياد « **والتفت (ابن زياد) إلى علي بن الحسين وقال : ما اسمك؟ قال: أنا علي بن الحسين فقال له : أو لم يقتل الله عليّاً ؟ فقال السجّاد عليه السلام : كان لي أخ أكبر مني يسمّى علياً قتله الناس فردّ عليه ابن زياد بأن الله قتله قال السجاد : الله يتوفّى الأنفس حين موتها** » أي عندما يقتل الناس شخصاً فإنهم هم قتلوه . . . والله تعالى توفى نفسه . . .

فكبر على ابن زياد أن يردّ فأمر أن تضرب عنقه (وهذا يدل على أن الجواب كان مسكتاً لابن زياد) **لكن عمتّه العقيلة اعتنقته وقالت : حسبك يا ابن زياد من دمائنا ما سفكت وهل أبقيت أحداً غير هذا فإن أردت قتله فاقتلني معه .**

فقال السجاد عليه السلام : أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة فنظر ابن زياد إليهما وقال : دعوه لها عجباً للرحم ودّت أنها تقتل معه[1] . . .

ما يستوقفني هنا الطريقة التي انتهى بها الحوار بين الإمام السجاد وابن زياد وإحجامه عن قتل الإمام ففي مثل هذا الجو كان من الطبيعي أن يقتل الإمام ولا نتصور أن ابن زياد الفظ الغليظ الذي تولى قتل الإمام الحسين ويضع رأسه أمامه في مجلسه أخذته العاطفة من موقف السيدة زينب عليها السلام تجاه ابن أخيها . . . إلا أن ما أراده الله تعالى كائن . . .

* هناك مسألة في تاريخ الأنبياء والأولياء وهي أن مسيرتهم بعين الله

---

(١) نفس المصدر / ٣٢٥ .

عـزَّ وجلَّ وليست مـتروكـة ، فلماذا لم يتـدخـل الإمـداد الغيبي لنصرتهم في كـل مواجهة . . . لماذا لم ينتصر الإمام الحسين عليه السلام بالإمداد الغيبي . . .

والجواب : أن الله تعالى شـاء أن تجري الأمـور بأسبـابها والإمـداد الغيبي حاضر عندما يلزم الأمر إلا أنه ليس الأصل . . . في بـدر تدخـل الإمداد الغيبي لكنه لم يتدخل في أحد . . . وفي كربلاء وعـلى هذا الأسـاس يمكن القول إن من الاستثناءات التي تدخـل فيها الإمـداد الغيبي واللطف الإلّهي حفظ حياة الإمـام السجاد عليه السلام رغم أنه كان في معرض القتل . . .

إن الله عزَّ وجلَّ شاء أن تكون مسيرة الأنبياء والأولياء والأوصياء مسيرة وفق الـظاهر ، أوليس الهـدف من الدين اختبـار الناس ؟ الإختبـار لا يتمّ إذا كـانت مواقف الأنبياء دائماً مؤيدة بـالمدد الغيبي ، نعم تكـون هناك دواع لتـدخل المـدد الغيبي في بعض الحالات . . . فيتدخل . . .

بعد انتهاء الموقف بين الإمام السجاد عليه السلام وابن زياد ينتقل الإمام إلى دار بجنب مسجد الكوفة ، يقول نصّ في هذا السياق : **« ولمـا وضح لابن زيـاد ولولة الناس ولغط أهل المجلس خصـوصاً لـما تكلمت معه زينب العقيلة خـاف هياج الناس فأمر الشرطة بحبس الأسارى في دارٍ إلى جنب المسجد الأعظم . قال حاجب ابن زياد : كنت معهم حين أمر بهم إلى السجن فرأيت الرجـال والنساء مجتمعين يبكون ويلطمون وجوههم »**[1] .

يمكن أن يتصور أحد أن أهل الكوفة كانوا صالحين لكنهم ارتكبوا خـطأ ، وقتل الإمام الحسين عليه السلام لكنهم بكوا عليه . . . لكن من يقول هذا الكلام يجد أن هناك موقفاً يصفعه مباشرة ويكشف خطأه . . .

« قال حميد بن مسلم : أمر ابن زياد أن ينادى الصلاة جـامعة فـاجتمعوا في الجامع الأعظم ورقى ابن زياد المنبر فقال : الحمد لله الذي أظهـر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب بن الكذاب ، الحسين بن عـلي وشيعته » .

---

(١) نفس المصدر /٣٢٦ .

مع من تكلم ابن زياد بهذا الكلام . . . أن الناس الذين كانوا يبكون في استقبال السبايا ، وكانوا يلطمون وجوههم ، هم أنفسهم الذين كانوا تحت منبر ابن زياد ، فماذا كانت ردة فعلهم يا ترى . . . يضيف النص : « **فلم ينكر عليه أحد من أولئك الجمع الذي غمره الضلال إلا عبد الله بن عفيف الأزدي** . . . » .

وهذا يجعلنا نقف عند الفكرة التي تقدّمت الإشارة إليها أكثر من مرّة وهي أنه ليس المهم وهْم التشيّع ، والتبجح بالقدرة على المواقف البطولية بل المهم أن يكون المسلم مستعداً حقيقة لتحمل المسؤولية في اللحظات الحرجة والمصيرية . . .

وتتلخص كربلاء في أنها معركة ضد التشيع الحقيقي ، التشيع المحمدي العلوي . . . خاضها الطاغية المنحرف بجنود يحملون وهم التشيع ولا يفرقون بين الفهم الطائفي للتشيع والفهم المبدئي . . .

*** بعض أجواء الكوفة :**

في مطاوي الأحاديث السابقة تمّ التركيز على أجواء الكوفة والكوفيين وأشير هنا إلى أن نصوصاً عدّة ينبغي أن تلحظ لنكوّن فكرة قريبة إلى الواقع عمّا كانت عليه الكوفة آنذاك . . . فمن جهة نرى أن أهل الكوفة استقبلوا السبايا . . . ومن جهة أخرى لم يظهر منهم أي موقف إيجابي فعلي يعبّر عن ندمهم على ما اقترفوه بحق السبايا وأهلهم الذين قتلوا في كربلاء ، من ذلك نستطيع أن نرى بوضوح أن ابن زياد كان يسيطر على الكوفة ، وأن الرعب كان يملأ أفئدة الكوفيين . . .

ولكن رغم ذلك نجد أن الكوفة شهدت بعض المواقف الكربلائية العظيمة ونجد الحديث عنها في النصوص التي تتحدث عن موقف عبد الله بن عفيف الأزدي رضوان الله عليه وأجوائه ، وسأترك الحديث عن موقف هذا المجاهد الخالد إلى الحديث عن أبطال كربلاء من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام . . .

أكتفي هنا بذكر بعض مجريات الأحداث التي تكشف عن أجواء الكوفة آنذاك ، منها مثلاً موقف جندب بن عبد الله الأزدي ، تدخل الأزد فأنقذوا عبد الله بن عفيف ، وفي الليل داهم الجيش منزله ، وأمر ابن زياد بحبس جماعة منهم ، ثم دعا : « **بجندب بن عبد الله الأزدي وكان شيخاً كبيراً فقال له : يا**

عدو الله ألست صاحب أبي تراب في صفين ؟ قال : نعم وإني لأحبه وأفتخر به وأمقتك وأباك سيّما الآن وقد قتلت سبط الرسول وصحبه وأهله ولم تخف من العزيز الجبار المنتقم فقال ابن زياد : إنك لأقل حياء من ذلك الأعمى (عبد الله بن عفيف) وإني ما أراني إلا متقرّباً إلى الله بدمك ، فقال ابن جندب : إذاً لا يقرّبك الله ، وخاف ابن زياد من نهوض عشيرته فتركه وقال : إنه شيخ ذهب عقله وخرف وخلّ سبيله »[1] . . .

* أيضاً نجد أن المختار أودع السجن مرّة ثانية ، فقد كان في السجن وأطلق سراحه وكان له موقع اجتماعي بحيث أنه حضر مجلس ابن زياد وكان سجنه أول مرّة عندما قتل مسلم بن عقيل رضوان الله عليه . . . بعد ذلك أطلق سراحه وحضر مجلس ابن زياد ، الذي حضره السبايا فظهر عليه الحزن ودار بينه وبين ابن زياد كلام فأرجع إلى الحبس وكان معه في الزنزانة عبد الله بن الحارث بن نوفل ابن عبد المطلّب أي ابن عم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وميثم التمار ، ويتضمن النص التالي تفاصيل ذلك كله مع تفاصيل أخرى . . .

« ولما خطب ابن زياد بعد قتل ابن عفيف ونال من أمير المؤمنين عليه السلام ثار المختار في وجهه وشتمه وقال : كذبت يا عدو الله وعدّو رسوله » . . .

يتضح من النص الآتي أيضاً أن المختار كان قد سمع من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أنه يقتل ابن زياد ولذلك من الطبيعي أن يتكلم معه بجرأة وربما لم يكن يعلم بأنه يسجن ثم يطلق . . . بقية النص : **« . . . بل الحمد لله الذي أعز الحسين وجيشه بالجنة والمغفرة وأذلك وأذلّ يزيد وجيشه بالنار والخزي فحذفه ابن زياد بعمود حديد فكسر جبهته وأمر به إلى السجن ولكن الناس عرّفوه بأن عمر بن سعد صهره على أخته وصهره الآخر عبد الله بن عمر وذكروا ارتفاع نسبه فعدل عن قتله وأبقاه في السجن ثم تشفّع فيه ثانياً عبد الله بن عمر . . . »**

« . . . ثم أخذ المختار يخبر الشيعة بما علمه من خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من نهضته بثأر الحسين وقتله ابن زياد والذين تألّبوا على الحسين

---

(١) نفس المصدر / ٣٢٩ .

عليه السلام . . . » وكـان يسمع حـديث المختار في السجن عبـد الله بن الحارث وميثم التمار فيقول عبد الله بأنه قد يقتله ابن زياد ، فيقول لـه المختار : **« والله لا يقتلك ولا يقتلني ولا يـأتي عليـك إلا القليـل حتى تـلي البصرة ، وميثم يسمــع كلامهما ، فقال للمختار : وأنت تخرج ثائراً بدم الحسين وتقتل هذا الذي يـريد قتلنا وتطأ بقدميك على وجنتيه . فكان الأمر كما قال »** .

ثم يدخل النص في بعض تفاصيل ما فعل المختار وكيف قتل فيما بعد عدداً كبيراً من قتلة الإمام الحسين عليه السلام . . .

ومما يلفت في النص أنه بعد ثورة المختار هرب حوالي عشرة آلاف رجل إلى مصعب بن الزبير ومن جملة هؤلاء الهاربين شبث بن ربعي ـ الذي تقدم ذكر بعض تناقضاته وكيف هوى إلى الحضيض بذنوبه . . . يذكر النص هنا ما انتهى إليه أمره فيقول : « جاء راكباً بغلة قد قطع أذنها وذنبها في قباء مشقوق وهو ينادي « واغوثاه سر بنا إلى محاربة هذا الفاسق الذي هدم دورنا وقتل أشرافنا . . . » .

هـذا بعض ما كـان يجري في الكـوفة . . . عنـدمـا كـان الإمـام السجـاد عليه السلام فيها . . . وفي هذه الفترة بالذات توجه الإمام السجـاد عليه السـلام من الكوفة إلى كربلاء في مهمة إلهية سرية بعيداً عن أنظار ابن زياد وجلاوزته . . . ليتـولى دفن أبيه سيـد الشهداء عليـه السـلام . . . أمـا كيـف أمكنـه ذلـك . . . فالجواب عليه مرتبط بمعرفة قدرة الإمام المعصوم التي يهبها الله تعالى له . . . سواءً في مجال « التصرف » أو في مجال « طي الأرض » وغير ذلك . . . كما ذهب الإمام أمـير المؤمنين عليـه السلام إلى المـدائن ليتـولى دفن سلمان المحمـدي رضي الله عنـه . . . وكما ذهب الإمام الجواد عليه السلام من المدينة إلى خراسان ليتولى دفن أبيه الإمام الرضا عليه السلام كذلك ذهب سيد الساجدين ليتولى دفن أبيه . . . كما يحـدثنا بذلك النص التالي :

« وفي اليوم الثالث عشر من المحرّم أقبل زين العابدين لدفن أبيه الشهيـد عليه السلام لأن الإمام لا يلي أمره إلا إمام مثله . . . ولما أقبل السجاد عليه السلام وجد بني أسد مجتمعين عند القتلى متحيرين لا يدرون ما يصنعـون ولم يهتدوا إلى

معـرفتهم وقد فـرّق القـوم بـين رؤوسهم وأبـدانهم وربمـا يسـألـون عَنْ أهلهم وعشيرتهم »[1] .

ومما يذكر هنا أن حبيب بن مظاهر هو من بني أسد وعندما وصل إلى كربلاء تحدث مع الإمام الحسين عليه السلام حول وجود بني أسد في منطقة قريبة وسأله الأذن له بالذهاب إليهم وإقناعهم بنصرة الإمام فأذن له الإمام ، ذهب حبيب إلى بني أسـد فانتسب لهم فعـرفوه ثم حـدثهم بما عنـده ودعـاهم إلى نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجابه تسعون رجـلاً إلا أن شخصاً من بني أسد بادر لإخبار ابن سعد بذلك فأرسل ابن سعد أربعمائـة رجلاً لقـطع الطريق عليهم . . . وفعلاً دارت معركة قتل فيها جماعة من بني أسد وفر الباقون ، ورجع حبيب إلى الإمام الحسين عليه السلام وأخبره بما جرى[2] . . .

من هنا يتضح وجود موالين للإمام الحسين بين بني أسد . . .

يضيف النص : « **فـأخبرهم عليـه السلام عـمّا جاء إليـه من مـواراة هـذه الجسوم الطاهرة وأوقفهم على أسمائهم ، كما عرّفهم بالهـاشميين من الأصحـاب فارتفع البكاء والعويل وسالت الدموع منهم كل مسيل »[3] .**

وأترك النص يحدثنا كيف دفن الإمام السجاد جسد أبيه وجسد عمه العباس وسائر الشهداء عليهم صلوات الرحمن :

« ثم مشى الإمام زين العابدين إلى جسد أبيه واعتنقه وبكى بكاءاً عالياً وأتى إلى موضع القبر ورفع قليلاً من التراب فبان قبر محفور وضريح مشقوق ، فبسط كفيه تحت ظهره وقال : « بسم الله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله ، صدق الله ورسوله ، ما شاء الله ، لا حـول ولا قوّة إلا بـالله العظيم » . وأنـزله وحـده لم يشاركه بنو أسد فيه وقال لهم : إن معي من يعينني ، ولما أقره في لحده وضع خدّه على منحره الشريف قائلاً : « طوبى لأرض تضمّنت جسدك الطاهر ، فإن الدنيا بعدك مظلمة والآخرة بنورك مشرقة أما الليل فمسّهد والحزن سرمد أو يختار الله

(١) نفس المصدر / ٣١٩ ـ ٣٢٠ .
(٢) نفس المصدر / ٢١٠ .
(٣) نفس المصدر / ٣٢٠ .

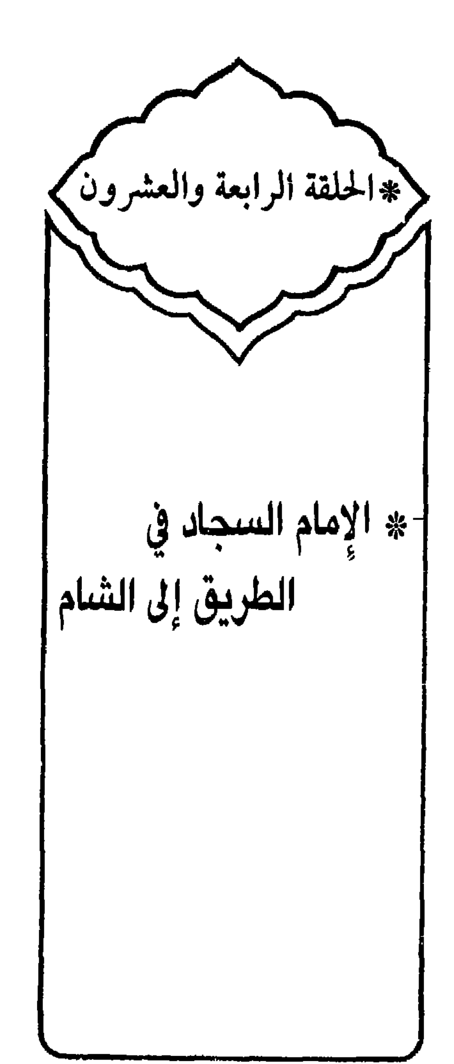
لأهل بيتك دارك التي أنت بها مقيم وعليك مني السلام يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته . وكتب على القبر : هذا قبر الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قتلوه عطشاناً غريباً .

ثم مشى إلى عمّه العباس عليه السلام فرآه بتلك الحالة التي أدهشت الملائكة بين أطباق السماء ، وأبكت الحور في غرف الجنان ، ووقع عليه يلثم نحره المقدس ، قائلاً : على الدنيا بعدك العفا ، يا قمر بني هاشم ، وعليك مني السلام ، من شهيد محتسب ، ورحمة الله وبركاته ، وشقّ له ضريحاً ، وأنزله وحده ، كما فعل بأبيه الشهيد ، وقال لبني أسد إن معي من يعينني :

نعم ترك مساغاً لبني أسد (سمح لهم) بمشاركته في مواراة الشهداء ، وعيّن لهم موضعين ، وأمرهم أن يحفروا حفرتين ، ووضع في الأولى بني هاشم ، وفي الثانية الأصحاب » .

« وأما الحرّ الرياحي فأبعدته عشيرته إلى حيث مرقده الآن »[1] .

(١) نفس المصدر / ٣٢٠ ـ ٣٢١ .



*** في الطريق إلى الشام :**

في البداية أودّ أن أقف عند نقطة تعامل الأمة مع المصطفى وعترته ، ودلالة هذا التعامل ، خصوصاً في الفترة ما بين وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وشهادة الإمام الحسين عليه السلام . . . نجد مثلاً أن الزهراء عليها السلام ظلمت . . . وظلمها مؤشر على موقف الأمة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . بعد فترة نجد أن أمير المؤمنين عليه السلام قد توجت ظلامته بقتله ، مع أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أوصى به وقال : « حربك حربي وسلمك سلمي » . وكل ظلم حلّ بأمير المؤمنين عليه السلام مؤشر على الموقف من رسول الله .

وبعد فترة نجد أن الإمام الحسن عليه السلام سقي السم بعد أن تجرع الغصص ، وهذا مؤشر على موقف الأمة

من رسول الله لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بالقرآن والعترة . والموقف من العترة يكشف عن الموقف من رسول الله والدين وعن الموقف من الله سبحانه وتعالى .

كل ما حدث قبل كربلاء لم يصل إلى ما وصل إليه الأمر في كربلاء . . . في كربلاء كان الموقف هو الحضيض الذي لا حضيض بعده ، أن يذبح الإمام الحسين عليه السلام بعد أن يمنع الماء ويحاصر ، ويمنع حتى طفله الرضيع من شربة ماء ، ثم تسلب بناته وأخواته وتنهب الخيام وتحرق . . .

* هذا الموقف يدل على أن المجموع المكوَّر للأمة قد وصل إلى الدرك الأسفل من البعد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

هذه الأحداث التي وقعت لأهل البيت عليهم السلام تكشف عن مستوى التدين عند الناس بشكل عام . . .

أقول هذا الكلام بين يدي الحديث عن تسيير السبايا من الكوفة إلى الشام فلو تجاوزنا كل مصائب كربلاء واعتبرناها لم تحصل ولم يكن إلا تسيير بنات رسول الله من بلد إلى بلد ، مع الأخذ بعين الإعتبار الواجب القرآني « المودة في القربى » هذه المسألة تكشف عن عدم اعتقاد هؤلاء بالله والرسول ، لأن حفظ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في أولاده ـ وخصوصاً هؤلاء ـ من لوازم الإيمان .

ثم لو كان قتل يزيد للإمام الحسين عليه السلام بحجة طلبه للملك وغير ذلك فما الحاجة إلى تسيير حرم الرسول سبايا ، وحمل الرؤوس على الرماح ؟!

لم يكن الداعي لذلك إلا التشفي وإرواء الحقد الدفين ليزيد على الإسلام والرسول صلى الله عليه وآله وسلم . ولقد كان ابن زياد رغم حقده وفظاظته ورغم أن مصلحته الشخصية تقضي بتسيير السبايا والرؤوس إلى الشام ، يستبعد ـ فيما يبدو ـ أن يكون يزيد يريد تسيير السبايا إلى الشام ، لذلك أبقاهم في السجن في الكوفة وأرسل رسولاً إلى يزيد، ، ليرى أمره فيهم . . . **« وبعث ابن زياد رسولاً إلى يزيد يخبره بقتل الحسين ومن معه ، وأن عياله في الكوفة ، وينتظر أمره**

فيهم ، فعاد الجواب بحملهم والرؤوس معهم »[1] فيزيد يريد أن يرى الرؤوس ليزداد تشفياً . . . في تلك الأثناء كان السبايا في السجن لا يستطيع أحد الدخول إليهم ، وكانت تصلهم بعض الأخبار عبر بعض المتعاطفين بطرق خاصة : « فبينا القوم محتبسون إذ وقع حجر في السجن معه كتاب مربوط وفي الكتاب : « خرج البريد إلى يزيد بأمركم في يوم كذا ويعود في كذا ، فإذا سمعتم التكبير فأوصوا وإلا فهو الأمان » ، ورجع البريد من الشام يخبر بأن يسرّح آل الحسين إلى الشام »[2] .

وهذا النص يكشف أن المتوقع كان إما القتل وإما الأمان ، أما التسيير إلى الشام فلم يكن متوقعاً ، أما وقد تقرر ذلك فمن سيتولى وصمة العار هذه . . . أي « مسلم » يقول « أشهد أن محمداً رسول الله » سيتولى حمل رؤوس أبنائه والسبايا من أولاده إلى ابن الطلقاء . . . « فأمر ابن زياد زجر بن قيس ، وأبا بردة بن عوف الأزدي ، وطارق بن ظبيان في جماعة من الكوفة أن يحملوا رأس الحسين ورؤوس من قتل معه إلى يزيد ، وقيل ذهب برأس الحسين مجبر بن مرّة بن خالد بن قتاب بن عمر بن قيس بن الحرث بن مالك بن عبيد الله بن خزيمة بن لؤي .

وسرّح في أثرهم علي بن الحسين مغلولة يداه إلى عنقه وعياله معه على حال تقشعر منها الأبدان » .

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فهناك بعض أصحاب الذنوب الذين لا يصح إلا أن يسجلوا في قائمة حاملي رأس الإمام إلى يزيد « وكان معهم شمر بن ذي الجوشن ، ومجفر بن ثعلبة العائذي وشبث بن ربعي ، وعمرو بن الحجاج ، وجماعة ، وأمرهم أن يلحقوا الرؤوس ويشهروهم في كل بلد يأتونها ، فجدوا السير حتى لحقوا بهم في بعض المنازل »[3] .

إلى أين يجد السير شبث يا ترى ؟ وكذلك ابن الحجاج الذي حاصر بالأمس

---

(١) مقتل الحسين للمقرم / ٣٤٤ .

(٢) نفس المهموم ٤١٣ والمقرم / ٣٤٤ .

(٣) المقرم / ٣٤٤ - ٣٤٥ .

دار الإمارة يطالب بالإفراج عن العظيم هانيء بن عروة . . . يا لسوء العاقبة . . . ولم يكلم الإمام السجاد أحداً منهم فمن غضب عليه الله لا بد وأن يواجه بغضب ولي الله ، يقول الشيخ المفيد رضوان الله عليه : « ولم يكن علي بن الحسين يكلم أحداً منهم في الطريق كله حتى بلغوا دمشق »[1] .

* ومن جملة الحوادث التي وقعت في الطريق إلى الشام ما يحدث به ابن لهيعة ، من « أنه رأى رجلاً متعلقاً بأستار الكعبة يستغيث بربّه ثم يقول : ولا أراك فاعلاً . فأخذته ناحية وقلت : إنك لمجنون فإن الله غفور رحيم ، ولو كانت ذنوبك عدد القطر لغفرها لك . قال لي : اعلم أني كنت ممّن سار برأس الحسين إلى الشام ، فإذا أمسينا وضعنا الرأس وشربنا حوله ، وفي ليلة كنت أحرسه وأصحابي رقود ، فرأيت برقاً وخلقاً أطافوا بالرأس ففزعت وأدهشت ولزمت السكوت . فسمعت بكاءاً وعويلاً وقائلاً يقول : يا محمد إن الله أمرني أن أطيعك ، فلو أمرتني أن أزلزل بهؤلاء الأرض كما فعلت بقوم لوط فقال له : يا جبرئيل إنّ لي موقفاً معهم يوم القيامة بين يدي ربي سبحانه .

فصحت يا رسول الله الأمان فقال لي : إذهب فلا غفر الله لك فهل ترى الله يغفر لي[2] ؟

ومما يلفت في النص « وشربنا حوله » فعندما يكون يزيد فاسقاً شارب الخمر فمن هم جنوده يا ترى . . . ثم إن شاربي الخمر هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم حماة الإسلام . . . والحسين خارجي خرج على أمير المؤمنين . . . وما أشبه الليلة بالبارحة . . . يتحدث الفسقة العملاء باسم الإسلام ويصفون المجاهدين البدريين الكربلائيين بأنهم أعداء الإسلام !

* ومن الأمور التي حصلت في الطريق إلى الشام ورآها حاملو الرؤوس كتابة على حائط : « وفي بعض المنازل وضعوا الرأس المطهّر فلم يشعر القوم إلا وقد ظهر قلم حديد من الحائط وكتب بالدم :

أترجو أمة قتلت حسيناً ... شفاعة جدّه يوم الحساب

(١) نفس المهموم / ٤٢١ نقلاً عن الإرشاد .

(٢) نفس المصدر / ٣٤٥ ونفس المهموم / ٤٢٤ .

فلم يعتبروا بهذه الآية وأرداهم العمى إلى مهوى سحيق ونعم الحكم الله تعالى .

* وتتحدث النصوص كذلك عن نقطة دم قطرت على صخرة خارج الموصل . . . حين منع أهل الموصل حاملي الرؤوس من الدخول إلى بلدهم . . . هذه النقطة كانت تغلي كل عام في يوم عاشوراء ، وكان الناس يجتمعون هناك ، ويقيمون المأتم على سيد الشهداء عليه السلام ، ويكثر العويل حوله ، وبقي هذا الأمر إلى أيام عبد الملك بن مروان ، فأمر بنقل الحجر ، فلم ير له أثر بعد ذلك ، ولكنّهم بنوا في محل الحجر قبّة سمّوها مشهد النقطة[1] .

وقد نقل المحدث القمي رحمه الله عن بعض المصادر المعتبرة ما يدل على أن الطريق التي سلكها موكب السبايا قد بنيت فيه عدة مشاهد للرأس الشريف عرف كل منها بمشهد الرأس « من كربلاء إلى عسقلان وما بينهما في الموصل ونصيبين وحماة وحمص ودمشق وغير ذلك » .

كما ذكر رحمه الله أن عدداً من تلك المشاهد ما يزال معروفاً إلى الآن . . . فيما لم يستطع العثور على بعضها[2] .

* وفي سياق ذكر حوادث الطريق ، أصل إلى ذكر الراهب الذي يجعلنا مجدداً أمام حسن العاقبة وسوء العاقبة . . . فشبث بن ربعي تضعه ذنوبه مع يزيد وهذا الراهب النصراني تضعه سلامة نفسه مع الإمام الحسين عليه السلام . . .

« روى السبط ابن الجوزي مسنداً (. . .) أن القوم كلما نزلوا منزلاً أخرجوا الرأس من صندوق أعدوه له فوضعوه على رمح وحرسوه طول الليل إلى وقت الرحيل ثم يعيدوه إلى الصندوق ويرحلوا . . . فنزلوا في بعض المنازل وفي ذلك المنزل دير فيه راهب فأخرجوا الرأس على عادتهم ووضعوه على الرمح وحرسه الحرس وأسندوا الرمح إلى الدير . . . فلما كان في نصف الليل رأى الراهب نوراً من مكان الرأس إلى عنان السماء ، فأشرف على القوم وقال : من أنتم؟ قالوا : نحن

---

(١) نفس المهموم /٤٢٦ .

(٢) نفس المصدر .

أصحاب ابن زياد قال : وهذا رأس من ؟ قالوا : رأس الحسين بن علي بن أبي طالب ابن فاطمة بنت رسول الله . . .

قال : نبيكم ؟ قالوا : نعم . . .

قال : بئس القوم أنتم ، لو كان للمسيح ولد لأسكناه أحداقنا .

ثم قال لهم : هل لكم في شيء ؟ قالوا : وما هو ؟

قال : عندي عشرة آلاف دينار ، تأخذونها وتعطوني الرأس يكون عندي تمام الليلة وإذا رحلتم تأخذونه . . .

قالوا : وما يضرنا ، فناولوه الرأس وناولهم الدنانير فأخذه الراهب فغسله وطيَّبه ، (. . .) وقعد يبكي الليل كله ، فلما أسفر الصبح قال :

يا رأس ، لا أملك إلا نفسي وأنا أشهد أن لا آله إلا الله ، وأن جدك محمداً رسول الله وأشهد أنني مولاك وعبدك ، ثم خرج عن الدير وما فيه وصار يخدم أهل البيت عليهم السلام .

ثم يتحدث النص أن تلك الدنانير تحولت خزفاً كتب على أحد جانبي كل دينار ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون** ﴾ وعلى الجانب الآخر ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾ فرموها في بردى »[1] .

ولديَّ صورة قيل إنها صورة رأس سيد الشهداء عليه السلام . . . وأنها أخذت عن تمثال لرأسه الشريف نحته هذا الراهب في هذه الليلة التي بقي الرأس الشريف عنده . . . وأن التمثال موجود في أحد المتاحف . . . ولا مجال للتأكيد على صحة انتساب هذه الصورة ـ إلا أن بعض أهل العبادة رجح ذلك ـ والله العالم . . .

وفي بعض المصادر أن الراهب لم يتمكن إلا من تقبيل الرأس الشريف يقول السيد المقرم : « وفي أثناء الليل سمع الراهب تسبيحاً وتهليلاً ورأى نوراً ساطعاً من الرأس المطهر ، وسمع قائلاً يقول : السلام عليك يا أبا عبد الله ، فتعجب حيث لم يعرف الحال . . . وعند الصباح استخبر من القوم ، فلما تبين له الأمر

---

(١) نفس المصدر / ٤٢٣ .

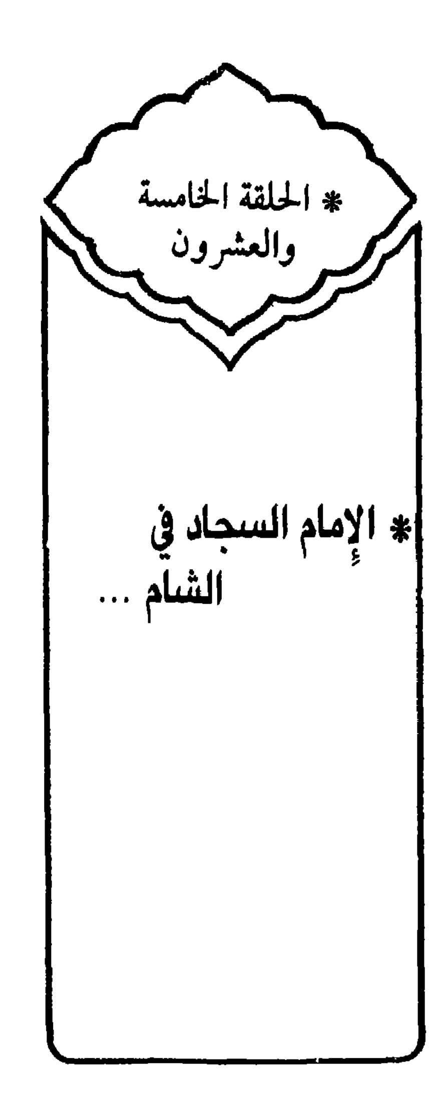
قال : تباً لكم أيتها الجماعة صدقت الأخبار في قولها : إذا قتل تمطر السماء دماً . . .

وأراد منهم أن يقبل الرأس فلم يجيبوه إلا بعد أن دفع إليهم دراهم ثم أظهر الشهادتين وأسلم ببركة المذبوح دون الدعوة الإلهية ولما ارتحلوا عن هذا المكان نظروا إلى الدراهم وإذا مكتوب عليها : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** ﴾ »[1] .

* * *

(١) مقتل الحسين /٣٤٧ بتصرف يسير .





*** في الشام :**

تقـدّم جانب مهمّ من الكـلام عن دخـول السبـايـا إلى مـدينـة الشـام لـدى الحديث عن سيدتنا زينب عليها السلام ، وهنا أقف عند تفاصيل نصّ تقـدّم يرتبط بالدخول إلى الشام . . .

« ودنا سهل بن سعد الساعدي من سكينة بنت الحسين وقال : ألك حاجة ؟ فأمرته أن يدفع لحامل الرأس شيئاً فيبعده عن النساء ليشتغل الناس بالنظر إليه ففعل « سهـل » » هـذا النّص المختصر نجـد تفـاصيـل وافيـة حـولـه في نفس المهمـوم للمحدث الشيخ عباس القمي رحمه الله . سهل بن سعد الساعدي هو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كـان في سفـر إلى بيت المقدس ، ثم دخـل إلى الشام فرأى الزينة على قدم وساق ورأى أن النسـاء في لهـو ورقص فتسـاءل : ألأهـل الشام عيد لا نعرفه ؟

ثم تبين له أنهم فرحون وقد خرجوا في بهجة وسرور لأن موكباً من السبايا قادم ، وأثناء استفساره تحدّث سهل مع بعض الناس الذين يملكون بعض التدين ، وكان يؤلمهم ما يرون ، فقالوا له : « يا سهل ، ما أعجبك السماء لا تمطر دماً والأرض لا تنخسف بأهلها ؟ قال : وما الأمر ؟ قالوا : هذا رأس الحسين عترة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يهدى من أرض العراق » ثم يأتي مضمون النص المختصر المتقدم حول طلب سكينة من سهل أن يطلب من حامل رأس الإمام عليه السلام أن يقدم الرأس أمام النسوة فينشغل الناس بالنظر إليه عن النظر إليهن . . . فدفع له أربعمائة دينار[1] . . .

وقبل الدخول في بعض التفاصيل أشير إلى احتمال تحريف في العبارة التي قالها بعض أهل الشام لسهل « يا سهل ما أعجبك الخ » والظاهر أن الأصل يا « سهل ما أعجبك السماء تمطر دماً ، والأرض لا تنخسف بأهلها » هكذا تستقيم العبارة ويصبح للعجب مجال أوضح وهو أن السماء تمطر دماً أما الأرض فلا تنخسف بأهلها خصوصاً هؤلاء الذين يرقصون فرحاً ، وهكذا تنسجم العبارة مع ما تقدم من أن السماء أمطرت دماً . . . وأن ذلك بلغ بيت المقدس . . .

* وإذا أردنا أن نتأمل المضامين في هذا النص الطويل عن سهل . . . فماذا نجد ؟ نجد أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحمل كل ذكرياته عن المصطفى وحبه للحسين . . . واقفاً يراقب من يقولون أنهم من أمة رسول الله فرحين بقتل الحسين ورأس الحسين أمامه على الرمح وهو لا يستطيع أن يقدم للسبايا من آل بيت رسول الله الذين أمرت الأمة بمودتهم خدمة أكثر من أن ينقل الرأس من مكان إلى مكان . . . أي ذهول استبد بسهل . . . وأية أعاصير اجتاحت مشاعره . . . ساعد الله قلوب تلك الثلة الصالحة من صحابة رسول الله الذين عايشوا هذه الأحداث المدوية . . .

ورغم ذلك . . . فإنهم رضوان الله عليهم . . . عاشوها من خارج دائرة المعاناة . . . فكيف بالإمام السجاد عليه السلام . . . وسائر أهل بيت المصطفى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم ؟ خصوصاً عندما وصلوا إلى مشارف الشام

---

(١) خلاصة نص طويل ، نفس المهموم / ٤٣١ والبحار / ٤٥ / ١٢٧ ـ ١٢٨ .

ووجدوا أن مصيبة المصطفى والمرتضى والزهراء بعزيزهم أبي عبد الله عليه السلام قد تحولت عند أهل الشام إلى فرح لا يوصف « أوقفوا أهل البيت على باب الشام ثلاثة أيام حتى يزينوا البلدة ، فزينوها بكل حلي وزينة ومرآة كانت فيها فصارت بحيث لم تر عين مثلها ، ثم استقبلهم من أهل الشام زهاء خمسمائة ألف من الرجال والنساء مع الدفوف ، وخرج أمراء الناس مع الطبول والصنوج والبوقات ، وكان فيهم ألوف من الرجال والشبان والنسوان يرقصون ويضربون بالدف والصنج والطنبور وقد تزين جميع أهل الشام بألوان الثياب والكحل والخضاب[1] . . .

والسؤال هل لهذا الإحتفال معنى غير انتقام الجاهلية من الإسلام . . . وغلبة أبي سفيان لمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . تلك الغلبة الموهومة . . . التي تبين أنها أفضل انتصار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن دماء الحسين عليه السلام هي التي حفظت الإسلام وأبقت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله خفاقة مرفرفة .

* وفيما كان الإمام السجاد يرى جموع الشاميين من حوله وهو على تلك الحال المفجعة ، يدنو منه شيخ من أهل الشام فيتحدّث بحقد أموي على الإمام وأهل البيت يقول النص : « **ودنا شيخ من السجاد عليه السلام وقال له : الحمد لله الذي أهلككم وأمكن الأمير منكم** » !

ههنا أفاض الإمام من لطفه على هذا المسكين المغرر بتلك التمويهات لتقريبه من الحق وإرشاده إلى الصراط ، وهكذا هم أهل البيت عليهم السلام تشرق أنوارهم على من يعلمون صفاء قلبه وطهارة طينته واستعداده للهداية . فقال عليه السلام له : يا شيخ أقرأت القرآن ؟ قال : بلى قال عليه السلام أقرأت ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى** ﴾ وقرأت قوله تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقّه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى** ﴾ ؟ قال الشيخ : نعم قرأت ذلك .

فقال عليه السلام : نحن والله القربى في هذه الآيات .

---

(١) نفس المصدر / ٤٣٢ .

ثم قال له الإمام : أقرأت قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم **الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ ؟ قال : بلى .

فقال عليه السلام : نحن أهل البيت الذين خصّهم الله بالتطهير .

قال الشيخ : بالله عليك أنتم هم ؟ فقال عليه السلام : وحق جدّنا رسول الله إنا لنحن هم من غير شك .

فوقع الشيخ على قدميه يقبلهما ويقول : أبرأ إلى الله ممن قتلكم وتاب على يد الإمام بمّا فرّط في القول معه وبلغ يزيد فعل الشيخ وقوله فأمر بقتله »[1] . . .

ومصادر هذا النص على ما يذكره السيد المقرّم رضوان الله عليه عديدة منها : تفسير ابن كثير ، وروح المعاني للآلوسي ، ومقتل الخوارزمي . إذن ورد النص في مصادر سنيّة ، وربّما كان في بعضها مختصراً كأن يرد مثلاً أن السجاد قرأ على الشيخ آية المودة فأذعن له .

* أما بالنسبة لمسألة التعامل مع المضللين التي نستفيدها من هذا النص وغيره فبعض علمائنا يقول أن من شروط العالم تحمّل جفاء المخلوقين ، بمعنى أنه مهما سمع من أذى ، ووجّه إليه من تهم ينبغي أن يكون شعاره ﴿ **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون** ﴾ لأن العالم هو وريث المصطفى والعلماء ورثة الأنبياء .

يقول صاحب هذا الرأي وهو آية الله البهاري الهمداني ـ من كبار علمائنا المجتهدين والعباد الزهاد ما حاصله : العالم الذي يستحق وراثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تشترط فيه أمور ، من جملة هذه الأمور أن يتحمّل جفاء المخلوقين . . .

يقول لعالمٍ يخاطبه : العلماء ورثة الأنبياء بم يرث العلماء الأنبياء ؟ يرثونهم في التبليغ ؟ فإذا كان العالم لا يبلّغ فهو ليس وريثاً للمصطفى حتى لو كان أتقى الأتقياء وإذا بلّغ فينبغي أن يتحمّل جفاء المخلوقين لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحمّل جفاء المخلوقين . . . كان يأتيه الأعرابي فيقول : يا محمد إعدل . . . وقد بلغ أذى الكافرين والمنافقين له أن قال : ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت . . .

---

(١) مقتل الحسين للمقرم /٣٤٩ .

الإمام السجاد عليه السلام نوره من هذه المشكاة ، لذلك يتصرف مع هذا الشامي المضلل الذي تصرّف معه بحقد ، بمنتهى اللطف والحلم ورحابة الصدر والحرص على هداه . . .

ينبغي أن يكون التعامل مع المضللين كما يتعامل الطبيب مع المريض فلو أن مريضاً قام بضرب الطبيب مثلاً فمقتضى التصرف العاقل لهذا الطبيب هو الصبر والتحمّل . . . ولا يعني هذا أن يكون حالنا في كل المجالات « من ضربك على خدّك الأيمن فأدر لـه خدّك الأيسر » فهـذا الكلام صحيح ولكن في حدود . . . فالإنسان المضلل ما دام هناك أمل في هدايته وإصلاحه فطريق المحبة واللطف هو المطلوب أما إذا أصبح يشكل خطراً على الإسلام ، فلا بد من المواجهة بحسب الحاجة إلى ذلك . . . وحتى في ساحة المعركة فإن الدعوة إلى الله واجبة ، كما فعل الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره الأبرار في ساحة المعركة . . .

هذا الشامي يأتي ليسبّ الإمام ويشفي غليله بذلك ، فيـواجهه سـلام الله عليه بالحقائق القرآنية حول مبدأ المودّة في القربى ، وإذا بالنتيجة أن موقفـه يتغير ويصبح من شهداء كربلاء . . .

نعم . . . إذا كان شخص بعد صفين بقرون يضرب على رأسه ضربة لأنه كان يدافع عن موقف الإمام أمير المؤمنين في صفين . . . بعدها يرى الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه فيقول له : فما ظنك بمن يقتل دفاعاً عن أهل البيت وسبايا كربلاء إثر كربلاء مباشرة وعلى يد يزيد . . . أو ليس هذا من شهداء كربلاء . . .

والملفت أيضاً في هذا النص هـو السرعة التي انتقـل فيها هـذا الشامي إلى كربلائي . . . ليست هداية هذا الشخص لمجرّد أنه اقتنع ، فليس من الطبيعي أن يتحوّل فجأة من شخص يفرح لإنتصار يزيد إلى شخص مستعد للإستشهاد دون أن يتراجع عن موقفه لأن من البعيد أن يكون تم قتله دون أن يعطى فرصة للتراجع عن موقفه . . . خلاصة القول إن الله تعالى شاء أن يتخذه شهيداً لقابلية فيه . . . استحق معها موعظة الإمام . . . وعطفه . . . فكان شهيداً . . .

* ثم تـأتي بعد ذلـك النصوص التي تتحـدّث عن دخول السبـايا والإمـام

السجاد عليه السلام إلى مجلس يزيد وهنا تقع أمور عديدة لا بد من الوقوف عندها ، لكن قبل كل شيء ، يلفت النظر ، كيف كان دخول الإمام السجاد والسيدة زينب وأهل البيت إلى مجلس يزيد . . .

تقدّم معنا أن أصل تسيير السبايا ، دون قتل الإمام الحسين عليه السلام ، وأصحابه وأهل بيته ، مسألة كبيرة ، وجريمة لا حدّ لخطورتها نفس الكلام ينطبق على دخول السبايا إلى مجلس يزيد ، فلو لم تكن هناك كربلاء ولم يكن هناك سبي ، لو لم يكن إلا دخول الموكب بتلك الحالة إلى مجلس يزيد لكان أمراً عظيماً يكفي آل أمية عاراً وإثباتاً لوصولهم إلى الدرك الأسفل يقول النص : « **وقبل أن يدخلوهم إلى مجلس يزيد أتوهم بحبال فربطوهم بها فكان الحبل في عنق زين العابدين إلى زينب أم كلثوم وباقي بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلّما قصّروا عن المشي ضربوهم حتى أوقفوهم بين يدي يزيد وهو على سريره فقال علي بن الحسين عليه السلام : ما ظنك برسول الله لو يرانا على هذا الحال ؟ فبكى الحاضرون وأمر يزيد بالحبال فقطعت** »[1] .

هذا المنظر وحده يكفي لمعرفة فظاظة يزيد وقسوة قلبه والحد الذي وصلت إليه أحقاد بدر وحنين وغيرهن في تأثيرها في قلب يزيد وأشباهه .

وهنا نجد نصاً يحدثنا عن هذه النقطة وهو منقول عن السيدة سكينة بنت الإمام الحسين عليه السلام تقول فيه : « والله ما رأيت أقسى قلباً من يزيد ، ولا رأيت كافراً ولا مشركاً شرّاً منه ولا أجفى منه »[2] .

أذكر هذا الكلام حتى لا يتبادر إلى الذهن أن يزيد أمر بقطع الحبال لأنه رقّ للسبايا وإنما هو أقسى القساة ولا بد أنه فعل ذلك لسبب آخر كما سيأتي وهو الذي أمر بإدخالهم على هذه الحال . . .

وابن زياد لم يكن إلا مظهراً من مظاهر هذا القلب القاسي وسيئة من سيئات يزيد ، ويزيد كلّه سيئة من سيئات معاوية ، ومن المناسب أن نتذكر هنا أن معاوية

---

(١) نفس المصدر / ٣٥٠ .

(٢) نفس المهموم / ٤٤٢ .

كان قد ترك كتاباً يولي فيه ابن زياد الكوفة وعزل النعمان بن بشير[1] .

* من الأمور التي حدثت في هذا المجلس قول يزيد لعلي بن الحسين عليهما السلام : واعجباً لأبيك سمّى علياً وعلياً ، فقال الإمام عليه السلام : إن أبي أحب أباه فسمّى باسمه مراراً[2] . . .

وكأنه عليه السلام يشير بذلك إلى أن جد يزيد لا يحب . . . ويشير إلى مواقفه في الحرب على الله ورسوله . . . ومن الأمور التي حدثت قبل خطبة الإمام ما ورد في كتاب العقد الفريد ، على ما نقله المحدث القمي رحمه الله تعالى :

« . . . ولما وضع الرأس بين يديه تمثل بقول حصين بن الجمام المزني :

نفلّق هاماً من رجال أعزة عليــنا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له علي بن الحسين وكان في السبي : كتاب الله تعالى أولى بك من الشعر ، يقول الله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ » . . .

* ومن الواضح أن اختيار الإمام عليه السلام لهذه الآية يتضمن أولاً إلفات الناس إلى أن أهل البيت هم أهل القرآن . . . وثانياً : تتضمن الآية الجواب على غطرسة يزيد . . . وأن أولياء الله يرضون بقضاء الله تعالى وقد أدرك يزيد ذلك . . . ولم يكن الجواب حاضراً لديه . . .

يضيف النص : **« فغضب يزيد وجعل يعبث بلحيته كأنه يبحث عن الجواب ثم قال : غير هذا من كتاب الله أولى بك وبأبيك قال الله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ »** . . . ولكي لا يسترسل في هذا المنحى في الحديث ويرد عليه الإمام بآية أخرى فيعجز يزيد عن العثور على آية ثانية غير الكلام وقال : **ما ترون يا أهل الشام في هؤلاء ؟ فقال له رجل منهم : الكلمة الملعونة** (والكلمة الملعونة ورد الحديث عنها في عدّة نصوص

---

(١) مقتل الحسين للمقرم /١٤٨ .

(٢) نفس المهموم /٤٤٢ .

وبعضها يصرّح بأنهم قالوا له أن يقتل الإمام السجاد ، قال النعمان بن بشير الأنصاري : « **انظر ما كان يصنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم به لو رآهم في هذا الحالة فاصنعه بهم** »[1] . . .

ونجد موقفاً آخر للنعمان بن بشير حيث يقول ليزيد إن معاوية كان يكره قتل الإمام الحسين عليه السلام فيقول له يزيد بأن ذلك كان قبل أن يخرج ولو خرج لقتله . . . هذان الموقفان للنعمان بن بشير يجعلاني أتوقف قليلاً لإعطاء نبذة عنه . النعمان بن بشير هو الذي كان والياً على الكوفة عندما دخل عبيد الله بن زياد إليها متنكراً بزي الإمام الحسين عليه السلام . . .

عندما وصل ابن زياد إلى القصر تحصّن فيه النعمان بن بشير وهو يظن أن القادم هو الإمام الحسين فقال : الله ، يا ابن رسول الله لا أستطيع أن أدفع إليك أمانتي . . . هذا « الإحتياط » للنعمان بعدم دفع أمانة يزيد إلى الإمام الحسين بحسب اعتقاده هو الذي جعله في مجلس يزيد يدلي بمواقفه التي تكشف أن قلبه مع الحق وليس له سيف ليكون إلى جانب قلبه . . . وهو الذي أرسله يزيد في نهاية الأمر مع السبايا ليرافقهم إلى المدينة . . . مجموع النصوص التي نجدها عن النعمان تجعلنا نقف أمام شخصية سيئة إلا أنها أفضل من شبث بن ربعي . . . ما نستفيده من مواقف النعمان بن بشير وأمثاله أنه ليس من المهم أن يكون الإنسان مخلصاً للحق بينه وبين نفسه بل المهم هو القدرة على الوقوف في الموقع الذي يفرضه هذا الإخلاص . . . ليس المهم لمن عاصر الإمام الحسين أن يحبه . . . المهم أن يقف معه في كربلاء . . . وكذلك في كل عصر ومكان . . .

* بعد ذلك أشار جلساء يزيد عليه بقتل الإمام السجاد عليه السلام فقال الإمام : « **يا يزيد لقد أشار عليك هؤلاء بخلاف ما أشار به جلساء فرعون عليه حين شاورهم في موسى وهارون فإنهم قالوا له : أرجه وأخاه ولا يقتل الأدعياء أولاد الأنبياء وأبناءهم فأمسك يزيد مطرقاً** »[2] .

---

(١) نفس المهموم /٤٤١ ـ ٢٤٢ .

(٢) مقتل الحسين /٣٥١ وتجد في نفس المهموم /٤٣٧ اختلافاً في آخر النص منه قول الإمام السجاد ولا يقتل الأنبياء وأولادهم الا أولاد الأدعياء .

ثم من الطبيعي أن نجد أن كثيراً من الحوادث وقعت في هذا المجلس وقبل الدخول إلى خطبة الإمام السجاد لا بد من التمهيد بعدّة أمور :

* **أولاً** : تصرّف يزيد بمنتهى الحقد وكان يواجه أهل البيت عليهم السلام في الشام بمنتهى الغلظة والفظاظة . . . بداية الأمر . . . فبدأت ردود الفعل من هنا وهناك تضغط على يزيد حتى اضطر لتغيير لهجته ، فسمح للإمام بالكلام بناء على ضغط أهل المجلس . . . (مفردات الضغط) وهذه الحقيقة (حقد يزيد) يجب أن تلاحظ دائماً وخصوصاً بين يدي الحديث عن خطبة الإمام السجاد عليه السلام في مجلس يزيد .

* ثانياً : يلاحظ أن بعض المصادر ترتب الخطب في الكوفة بحيث تكون خطبة السيدة زينب هي الأولى ثم خطبة غيرها من النساء ثم خطبة الإمام السجاد عليه السلام . . . بينما في الشام نجد أن خطبة الإمام هي الأولى في بعض المصادر ثم خطبة السيدة زينب وبعض المصادر لا تجعل خطبة الامام هي الأولى .

ومن الطبيعي أن تكون خطبة الإمام السجاد في الشام هي الأولى ولا تتقدم السيدة زينب عليه في الكلام ، أما في الكوفة فيمكن ذلك بسبب مرض الإمام سلام الله عليه آنذاك .

ويؤيد تقدم كلام السجاد على كلام السيدة زينب في مجلس يزيد نصّ يقول : **روي أن يزيد لعنه الله أقبل إلى عقيلة الهاشميين أن تتكلم ، فأشارت العقيلة سلام الله عليها إلى علي بن الحسين عليه السلام ، وقالت : هو سيدنا وخطيب القوم ، فأنشأ السجاد عليه السلام يقول :**

لا تطمعوا أن تهينونا فنكرمكم	**وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا**
الله يعلم أنّا لا نحبكم	**ولا نلومكم إن لم تحبّونا**

قال يزيد : صدقت يا غلام ، ولكن أراد أبوك وجدّك أن يكونا أميرين والحمد لله الذي قتلها وسفك دماءهما ، فقال عليه السلام : لم تزل النبوة والإمرة لآبائي وأجدادي من قبل أن تولد »[1] .

---

(١) نفس المهموم /٤٤٢ .

*** ثالثا** : حول جوّ الخطبة وما سبقها يرد حديث : أن يزيداً أمر خطيباً أن يثني على معاوية وينال من الحسين ، فأكثر الخطيب من الوقيعة في علي والحسين ، فصاح به السجاد عليه السلام : لقد اشتريت مرضاة المخلوق ، بسخط الخالق ، فتبوأ مقعدك من النار . وقال ليزيد : أتأذن لي أن أرقى هذه الأعواد ، فأتكلم بكلام فيه لله تعالى رضا ، ولهؤلاء أجر وثواب ، فأبى يزيد ، وألح الناس عليه ، فلم يقبل ، فقال ابنه معاوية : ائذن له ، ما قدر أن يأتي به ؟ فقال يزيد : إن هؤلاء ورثوا العلم والفصاحة وزقوا العلم زقاً ، وما زالوا به حتى أذن له .

خطبة الإمام السجاد عليه السلام :

من الطبيعي أن يركز الإمام السجاد والسيدة زينب عليها السلام في الشام على الأمور التي تمس حاجة المجتمع الشامي إليها . . . منطلقين في بيان ذلك من مأساة كربلاء بما تمثله من جرأة يزيد على الله ورسوله . . .

وبما أن خطبة الإمام السجاد عليه السلام قد قطعت . . . فلا بد أن السيدة زينب عليها السلام تناولت النقاط التي لم يتح المجال للإمام لبيانها . . . دون أن تقف عندما تكفل هو عليه السلام ببيانه . . .

من هنا فإن الخطبتين كل متكامل . . . يركز على النقاط التالية :

أولاً : أهل البيت . . . التعريف بهم وبموقفهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتعريف بالإمام الحسين خاصة . . .

ثانياً : نسف الأساس الفكري الذي كان يزيد يحاول تبعاً لأبيه تثبيت ملكه عليه الجبر ومنطق الغلبة الظاهرية . . .

ثالثاً : التعريف بآل أبي سفيان . . . وبيزيد خاصة . . .

هذه النقاط تشكل محاور الخطبتين معاً . . . ومحاور الأحاديث المختلفة مع الناس . . . ومع يزيد . . .

ولئن كان وقع خطبة الإمام السجاد قد ألجأ يزيد إلى قطعها فيما كان عليه السلام يتحدث عن المحور الأول . . . فإنه عليه السلام تحدث في المحورين

الآخرين خارج الخطبة كما تقدم . . .

* **قال عليه السلام :**

الحمد لله الذي لا بداية له ، والدائم الذي لا نفاد لـه ، والأول الذي لا أوليـة له ، والآخـر الذي لا آخـر له ، والبـاقي بعد فنـاء الخلق ، قـدر الليـالي والأيام ، وقسم فيها بينهما الأقسام فتبارك الله الملك العلام . . .

إلى أن قال :

أيها الناس ، أعطينا ستاً وفضلنا بسبـع ، أعطينـا العلم والحلم والسماحـة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين . . .

وفُضلنا بأن منا النبي والصديق والطيار وأسد الله وأسد رسوله وسبطا هذه الأمة . . . أيها النـاس من عرفني فقـد عرفني ، ومن لم يعـرفني ، أنبأتـه بحسبي ونسبي . . .

ثم يذكر عليه السلام في مقام التعريف بنفسه الأماكن التي تهفو إليها قلوب المسلمين : **أيها الناس أنا ابن مكة ومنى أنا ابن زمزم والصفا** ، كما يتحدث مطولاً عن رسـول الله والحديث عنـه صلى الله عليـه وآلـه وسلم يـلامس شغـاف قلوب المسلمين : **أنا ابن من حمل الركن بأطراف الردا أنا ابن خير من ائتزر وارتـدى وخير من طاف وسعى وحج ولبّى ، أنا ابن من حُمل على البراق وبلغ به جبرئيل سـدرة المنتهى فكان من ربـه كقاب قـوسين أو أدنى ، أنـا ابن من صلى بمـلائكة السماء ، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى .**

وهنـا آن الأوان للحديث عن نقـطة الخلاف المركزيـة وهي أمير المؤمنـين عليه السلام : **أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله ببـدر وحنين ولم يكفر بالله طرفة عين ، أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيين ، ويعسـوب المسلمين ونـور المجاهدين وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ومفرّق الأحزاب أربطهم جأشاً ، وأمضاهم عزيمة ذاك أبو السبطين الحسن والحسين علي بن أبي طالب .**

أشير هنا إلى أن بعض المصادر لا تذكر من كلامه عليه السلام حول جـده أمير المؤمنين في مجلس يزيد إلا قوله أنا ابن علي المرتضى . . . وعلى كل حال فإن نسخ الخطبة متعددة . . . وما ذكرناه هنا إحـداها . . . **أنـا ابن فاطمـة الزهـراء**

وسيدة النساء وابن خديجة الكبرى ، ثم يتحدّث عن الإمام الحسين عليه السلام : أنـا ابن المرمَّل بالـدماء أنـا ابن ذبيح كـربلاء ، أنـا ابن من بكى عليه الجن في الظلماء ، وناحت الطير في الهواء[1] .

فلما بلغ إلى هذا الموضع ضج الناس بالبكاء وخشي يزيد الفتنة فأمر المؤذن أن يؤذن للصلاة فقال المؤذن : الله أكبر ، قال الإمام : الله أكبر أجل وأعلى وأكرم مما أخاف وأحذر ، فلما قال المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله قال عليه السلام : نعم أشهد مع كل شاهد أن لا إله غيره ولا رب سواه . فلما قـال المؤذن : أشهد أن محمداً رسول الله قال الإمام للمؤذن : أسـألك بحق محمـد أن تسكت حتى أكلم هذا ! « حتى أكلم هذا » ولم يقل يزيد أو الأمير أو ما شابه مما يدل على استخفاف الإمـام به . . . وأن الامـام كان هـو المسيطر عـلى جو المجلس وحجم يـزيد هـو « هذا » .

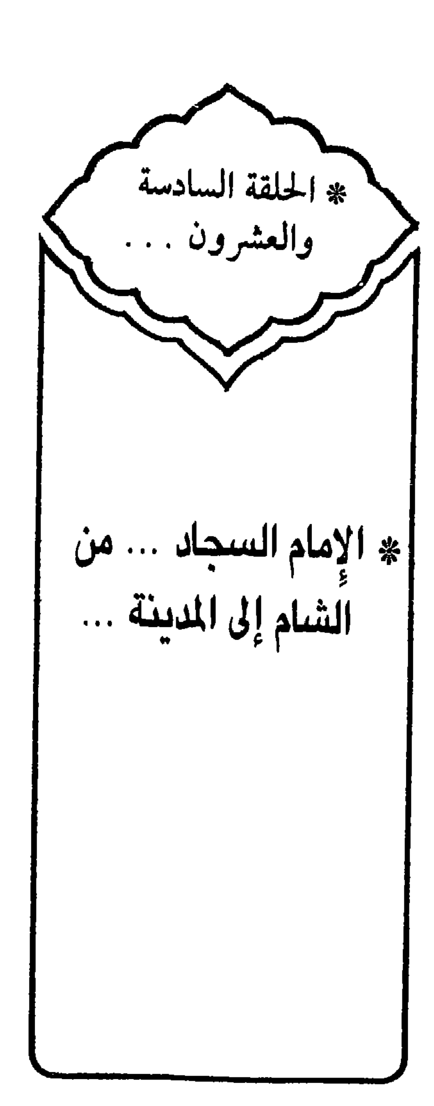
« والتفت إلى يزيد وقال : هذا الرسول العزيز الكريم جدّك أم جـدّي ؟ فـإن قلت جـدّك ، علم الحـاضرون والنـاس كلهم ، أنـك كـاذب ، وإن قلت جدّي ، فلم قتلت أبي ظلماً وعدواناً ، وانتهبت ماله ، وسبيت نساءه ، فويل لك يوم القيامة ، إذا كان جدّي خصمك .

فصاح يزيد بالمؤذن : أقم للصلاة فوقع بين الناس همهمة وصـلى بعضهم وتفرّق الآخر »[2] .

* هذا الموقف وغـيره من المواقـف لـلإمام السجـاد عليه السـلام في مرحلة السبي كذلك مواقـف سائر السبايا وتأثيرهـم في نفوس الناس في الكوفة وفي الشام يجعلنا نتعقّل كيـف أن رحلة السبي كانت مكمّلة لثورة الإمام الحسين عليه السلام وأنه لولا السبايا لبقي استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيتـه وأصحابـه مجرّد حدث في الصحراء تحاصره السلطات الغاشمة وتضلل النـاس على غـرار ما نرى من تضليل في كل عصر ومصر .

* * *

(١) مقتل الحسين /٣٥٢ - ٣٥٣ .
(٢) نفس المصدر ، ونفس المهموم /٤٥١ .



* من الشام إلى المدينة :

فيما تقدّم وجدنا أن هناك نمطين من تعاطي يزيد مع الإمام السجاد والسبايا في الشام .

النمط الأول هو التعامل المنسجم مع طبيعة يزيد الذي كشف عن مدى فظاظته وقسوة قلبه .

النمط الثاني من التعامل هو ما اضطر إليه يزيد بعد أن اضطرب الناس حوله واشتدّ تذمرهم ممّا جرى للإمام الحسين عليه السلام عندها لم ير يزيد بدّاً من الإسراع في عودة موكب السبايا إلى المدينة المنورة .

وعندما يضطر يزيد إلى مداراة أهل البيت أمام الناس فإنه سيقتصر على ذلك . . . ولعل هذا ما يكشفه لنا النص الذي يتحدث عن أن إقامتهم في الشام كانت في خربة لا تكنهم من حر أو برد .

وفيما كان عليه السلام في هذه

الخربة مع سائر أهل البيت عليهم السلام ، خرج الإمام ذات يوم يتمشّى فلقيه المنهال بن عمر والمنهال هو الذي نقل للمختار الثقفي فيما يروى أنه سمع الإمام السجاد عليه السلام يدعو على حرملة بن كاهل الذي ذبح الطفل الرضيع . كان المنهال عند الإمام السجاد فسمع الإمام يقول : « **اللهم أذقه حرّ الحديد اللهم أذقه حرّ النار . ثم جاء إلى الكوفة فوجد المختار وقد جيء بحرملة ، ثم كان عقاب حرملة على يديه بالحديد وبالنار، فأخبره المنهال فسجد المختار شكراً لله عزَّ وجلَّ إذن نستنتج من هذا النص أن المنهال كان موالياً .**

في الشام ، قال المنهال للإمام السجاد عليه السلام : كيف أمسيت يا ابن رسول الله فقال الإمام عليه السلام : أمسينا كمثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، أمست العرب تفتخر على العجم ، بأن محمداً منها ، وأمست قريش تفتخر على سائر العرب ، بأن محمداً منها وأمسينا معشر أهل بيته ، مقتولين ، مشرّدين ، فإنا لله ، وإنا إليه راجعون . قال المنهال : وبينا يكلمني إذ امرأة خلفه خرجت تقول له : إلى أين يا نعم الخلق ؟ فتركني وأسرع إليها فسألت عنها قيل : هذه عمّته زينب »[1] .

* هذا النص بما يحمل من دلالات لا يستطيع أحدنا أن يتجاوزه دون الوقوف عنده . من ناحية كلام الإمام سلام الله عليه ومن ناحية عبارة السيدة زينب سلام الله عليها : « إلى أين يا نعم الخلق » التي تكشف عن لهفتها على الإمام السجاد وحرصها على سلامته ، والسبب أنه الخلف بعد السلف بل هو نعم الخلف ، وبقية جدها وأبيها وإخوتها كما تعبر هي سلام الله عليها . . .

وكلام الإمام السجاد للمنهال يطل بنا على حقيقة الغربة ، وأن المؤمنين في الدنيا غرباء وطوبى للغرباء . أهل البيت الذين يفتخر العرب على العجم بأن محمداً منهم أهل بيت رسول الله الذين تفتخر قريش على سائر العرب بأن محمداً منها ، هم في هذه الدنيا غرباء . . .

هذا الأمر يذكرنا بغربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتحدثنا بعض المصادر بأن أمير المؤمنين عليه السلام كان يسير مع رسول الله صلى الله عليه

---

(١) مقتل الحسين / ٣٦٠ .

وآله وسلم في أزقّة المدينة إلى أن وصلا إلى مكان ليس فيه أحد ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه على كتف علي وأجهش بالبكاء ، سأله أمير المؤمنين عليه السلام عن السبب ، فقال : ضغائن في صدور قوم لا يبدونها لك إلا بعد وفاتي .

لا شك أن ما كان يجول في ذهن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كثير ولكن في طليعته كربلاء وامتداداتها ، خصوصاً موكب السبايا .

ينبغي أن يدرك المؤمن بعمق ، أن هذه الدنيا التي تجرع فيها المصطفى وأهل البيت الآلام والغصص ، لن يرتاح فيها المجاهدون السائرون على طريقهم . هذه الدنيا التي طورد فيها المصطفى ورمي بالحجارة حتى أدموا رجليه وهُجِّر . . . لا يمكن أن تتعامل مع المحمديين بطريقة أخرى . . . إذن . . . تارة نواجه الغربة بروح التراجع والهزيمة . . . وتارة أخرى نعتبر أن الغربة في الأجواء التي لا تنسجم مع رضا الله عزَّ وجلَّ هي علامة صحة .

كل مجاهد ينبغي أن يتذكّر هذه الحقيقة خصوصاً عندما يدلهّم الأفق وتزداد المشاكل والمصائب . وفي أجواء الغربة يحلو الجهاد . . . ويتضاعف الثواب . . .

عندما تعلو كل الأصوات مرددة الموت لأمريكا . . . ويصبح الجو العام مؤاتياً للعمل ضد الشيطان الأكبر فإن من السهل أن يقف الإنسان في هذا الزحام . . .

إلا أن المهم أن يبقى الإنسان يردد بأعلى الصوت الموت لأمريكا . . . عندما يخيم صمت الأموات على الناس . . . ويصبح المجاهد يشعر بأنه وحيد وغريب . . .

يسجل الإمام السجاد عليه السلام للناس جميعاً أن المسلمين يفتخرون برسول الله وأن قريش تتولى الخلافة لقرابتها من المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهم يتصرّفون مع أهل البيت بهذه الطريقة .

* هنا أيضاً أريد أن أقف حول نقطة أن الإمام السجاد عليه السلام يخاطب الجانب العاطفي ، كذلك في نصوص كربلاء بشكل عام نجد أن الجانب العاطفي

حاضر وبقوة كما سنجد عند دخول أهل البيت إلى المدينة ، كيف يختار الإمام شاعراً ليخبر الناس ، التركيز على الجانب العاطفي أمر مهمّ وينبغي أن لا يغفل .

* إذن هذا الجو الذي تقدمت الإشارة إليه والذي نشأ بعد خطبة الإمام وخطبة السيدة زينب وبعد مواقف بعض أصحاب رسول الله وما شابه هذا الوضع جعل يزيد يشعر بفتنة ما : « **ولما خشي الفتنة وانقلاب الأمر عليه عجل بإخراج السجادِ والعيال من الشام إلى وطنهم ومقّرهم ومكنّهم ممّا يريدون وأمر النعمان بن بشير وجماعة معه أن يسيروا معهم إلى المدينة مع الرفق** »[1] .

تحدد النصوص إذن وجهة السفر . . . وأنها المدينة ، ثم نجد : « **فلما وصلوا العراق قالوا للدليل مرّ بنا على طريق كربلاء ، فوصلوا إلى مصرع الحسين فوجدوا جابر بن عبد الله الأنصاري** »[2] . . .

هنا تطرح مسألة ، هل مرّ موكب السبايا في طريقه إلى المدينة بكربلاء أم لم يمر ؟ وهنا رأيان ، رأي يقول بأن الموكب لم يمر بكربلاء على الاطلاق ، والرأي الآخر أنهم مرّوا بكربلاء . . . إذا لاحظنا طبيعة الأجواء في الشام عندما كان الإمام وسائر أهل البيت فيها . . . نجد أنها كانت أجواء مؤاتية يمكن أن يلبى فيها طلبهم المرور بكربلاء . . . خاصة إذا أدخلنا في حسابنا أن النقطة المركزية التي كانت تشغل بال أهل البيت عليهم السلام هي دفن رأس سيد الشهداء وسائر الرؤوس مع الأجساد الطاهرة في كربلاء . . .

من جهة أخرى كان يزيد قد أشبع حقده الدفين بما فيه الكفاية . . . وأصبحت مصلحته الشخصية تنسجم مع دفن الرؤوس . . . خصوصاً إذا صح أنه تظاهر بالبراءة من دم الإمام الحسين عليه السلام وأنه أنحى باللائمة على ابن زياد ، علماً بأن ابن زياد نفسه يصرح على ما نقل عن الكامل لابن الأثير بأنه أقدم على قتل الحسين لأن يزيد خيره بين أن يفعل ذلك أو يقتل[3] .

ويظهر هذا التبدل في موقف يزيد بوضوح لدى التأمل في النصوص التي

---

(١) نفس المصدر /٣٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ونفس المهموم /٤٦٧ .

(٣) نفس المهموم /٤٦٣ .

تتحدث عن فترة إقامة السبايا في الشام . . . يقول المحدث القمي :

يظهر لمن تأمل في أفعال يزيد وأقواله ، أنه لما جيء برأس الحسين عليه السلام وأهل بيته سر بذلك غاية السرور ، ففعل ما فعل مع الرأس الشريف وقال ما قال ، وحبس علياً بن الحسين وسائر أهل بيته في محبس لا يكنهم من حر ولا قر حتى تقشرت وجوههم ، فلما عرفهم الناس ، وأطلعوا على جلالتهم وأنهم مظلومون ، ومن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كرهوا فعل يزيد بل لعنوه وسبوه وأقبلوا على أهل البيت . . . فلما اطلع يزيد على ذلك أراد أن يفرغ ذمته من دم الحسين فنسب قتله إلى ابن زياد ولعنه بفعله ذلك وأظهر الندم على قتله عليه السلام ، وغيَّر حاله مع علي بن الحسين عليه السلام وسائر أهل بيته ، فأنزلهم في داره الخاصة حفظاً للملك والسلطنة وجلباً لقلوب العامة[1] . . .

في هذا الجو . . . يصبح من المعقول والقريب أن يطلب الإمام السجاد دفن الرؤوس مع الأجساد . . . في الطريق إلى المدينة . . . ويؤيد ذلك . . . ما نجده من آراء للعلماء في هذا المجال . . .

وقد أورد السيد المقرم قائمة بآرائهم . . . أقف عند بعضها :

١ ـ في روضة الواعظين وغيره أن المعوَّل عليه عند الإمامية هو رجوع الإمام السجاد عليه السلام بالرؤوس إلى كربلاء . . . وروضة الواعظين من مصادرنا المهمة . . . ألفه الشهيد الفتال النيسابوري من أعلام القرنين الخامس والسادس ونجد فيه كذلك : ولم يرفع ببيت المقدس حجر على وجه الأرض إلا وجد تحته دم عبيط ، وأبصر الناس الشمس على الحيطان حمراء كأنها الملاحف المعصفرة إلى أن خرج علي بن الحسين عليهما السلام بالنسوة ورد رأس الحسين بن علي عليه السلام إلى كربلاء[2] .

٢ ـ في بحار الأنوار ، وإعلام الورى للطبرسي ، وغيرهما أن إرجاع الإمام السجاد للرؤوس إلى كربلاء هو المشهور بين العلماء . . .

---

(١) نفس المصدر /٤٦٢ .

(٢) روضة الواعظين /١٩٢ .

٣ ـ في شرح همزية البوصيري لابن حجر : أعيد رأس الحسين بعد أربعين يوماً من قتله .

٤ ـ قال سبط ابن الجوزي : الأشهر أنه رد إلى كربلاء فدفن مع الجسد .

٥ ـ وفي الكواكب الدرية نقل اتفاق الإمامية على أنه أعيد إلى كربلاء ونُسب إلى بعض أهل الكشف والشهود أنه حصل له اطلاع على أن الرأس الشريف أعيد إلى كربلاء .

٦ ـ وفي مناقب ابن شهر آشوب : ذكر المرتضى في بعض رسائله ، أن رأس الحسين عليه السلام أعيد إلى بدنه في كربلاء ، وقال الطوسي : ومنه زيارة الأربعين[1] .

والملاحظ أن بعض هذه النصوص يكتفي بالحديث عن رد الرأس إلى كربلاء . . . فيما يصرح البعض الآخر بأن ذلك كان في الأربعين أو لدى رجوع الإمام السجاد والسبايا من الشام .

ولا يمكنني الجزم بمرور موكب أهل البيت إلى كربلاء . . . ولست بصدد ذلك . . . إلا أني ذكرت ما يرجح ذلك . . . والله تعالى العالم وتبرز أهمية المرور بكربلاء ودفن الرؤوس الطاهرة . . . في أن التعامل مع زيارة الأربعين ـ بناء على ذلك ـ يكون بمخزون شعوري أقوى . . .

* ومن الأمور التي ينبغي الوقوف عندها لإستلهامها ، ما ورد من أن جابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه زار كربلاء في العشرين من صفر ـ زيارة الأربعين ـ وكان فيها حين وصل موكب الإمام السجاد وأهل البيت عليهم السلام . . . جابر من أصحاب رسول الله . . . وهو الذي تقدم أنه سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن منادياً ينادي يوم القيامة ليقم سيد العابدين . . . فيقوم الإمام السجاد . . . ويولد له ولد هو الإمام الباقر الذي حمله المصطفى أمانة السلام عليه . . .

كان جابر في كربلاء . . . ومعه غلامه عطية . . . والتفاصيل هنا كثيرة

---

١) المقرم /٣٦٣ .

وكلام جابر كلام مهم جدّاً، من جملته . . . « وقف جابر الأنصاري على القبر فأجهش بالبكاء وقال : يا حسين . يا حسين يا حسين حبيب لا يجيب حبيبه ، وأنّى لك بالجواب ، وقد شحطت أوداجك على أثباجك ، وفرّق بين رأسك وبدنك ، فأشهد أنك ابن خاتم النبيين وابن سيد المؤمنين وابن حليف التقوى وسليل الهدى . . . الخ » .

كلام جابر رضوان الله عليه مؤثر جدّاً ، أريد أن أقف عند جانب منه ، يخاطب شهداء كربلاء فيقول : « والذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالحق نبيّاً ، لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه » . . . فقال له عطية : « كيف ولم نهبط وادياً ولم نعلُ جبلاً ولم نضرب بسيف والقوم قد فرّق بين رؤوسهم وأبدانهم وأؤتمت أولادهم وأرملت الأزواج » .

فقال له تلميذ مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أني سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من أحب قوماً كان معهم ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم والذي بعث محمداً بالحق نبيّاً إن نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه »[1] . فجابر رضوان الله عليه مطمئن أنه لو كان مع الحسين عليه السلام لحارب معه ـ إذا استطاع ـ لذلك يرى نفسه شريكاً في الأجر .

ما أريد أن أؤكد عليه أن أحدنا عندما يجد في نفسه حب الإمام الحسين سلام الله عليه ويقول يا ليتني كنت معك سيدي فأفوز فوزاً عظيماً ، هذه المسألة يجب أن يقف عندها ملياً ، ويتفحص مقدار حبه للإمام الحسين عليه السلام فيسأل نفسه : هل أني حقيقة لو كنت في كربلاء لقاتلت مع الإمام الحسين ؟

ولا يصح الجواب على هذا السؤال بمعزل عن ملاحظة موقفه الآن من الجهاد والمجاهدين . . . الوقوف عند هذه النقطة والوصول إلى الحب الحقيقي للإمام الحسين سلام الله عليه يجعل الإنسان يحصل على خير كثير ، يجعله يصل إلى مرحلة شهداء كربلاء ومستواهم ، أصل الإقتناع بهذه الحقيقة مهم ، فضلاً عن الوصول إلى مستواها . . .

---

(١) نفس المصدر/ ٣٦١ - ٣٦٢ .

بعد حرب الجمل ، جاء شخص إلى أمير المؤمنين عليه السلام يقول : يا أمير المؤمنين ، وددت أن أخي شهد معنا هذا المشهد ، حرب الجمل ، فقال عليه السلام : « **أهَوَى أخيك معنا ؟ فقال : نعم . . . قال : فقد شهدنا . . . ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان** »[1] .

والروايات في هذا المعنى كثيرة تدل على أن الراضي بفعل قوم فهو معهم . . . وهذا باب كبير جداً . . . يمكن المسلم أن ينفتح على مجالات للثواب العظيم لا تتناهى . . .

فإذا فكر أحدنا بالصعوبات التي واجهت انطلاقة الإسلام الأولى . . . والأذى الذي تحمله المسلمون آنذاك من جبابرة قريش . . . ووجد من نفسه أنه مستعد لتحمل هذه الشدائد فيما لو كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . فإنه شريك في الثواب الذي فاز به ياسر ، وسمية ، وعمار وبلال وغيرهم . . .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الهجرة ومضاعفاتها ، والوقوف مع المصطفى ببدر رغم قلة الإمكانات المادية . . . إلى غير ذلك من مواقف الإسلام في مختلف المراحل والعصور . . .

ويتوقف ذلك على أن لا نكتفي بالعلاقة العاطفية غير الواعية برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو العلاقة بأهل بيته الأطهار . . . بل نتجاوز هذه العلاقة ونعمقها لتصبح حباً صادقاً لا ينفصل عن الإستعداد للتضحية . . .

ليسأل أحدنا نفسه . . . لو كنت في حرب الجمل . . . فأين كنت أقف . . . ولو كنت في عصر الإمام الحسن عليه السلام هل كنت أقف معه وأنا أرى الناس يتفرقون . . .

كذلك . . . في كربلاء . . .

ومن أراد أن يعرف من نفسه مدى صدق الإستعداد للمواقف البدرية ،

---

(١) نهج البلاغة خ ١٢ .

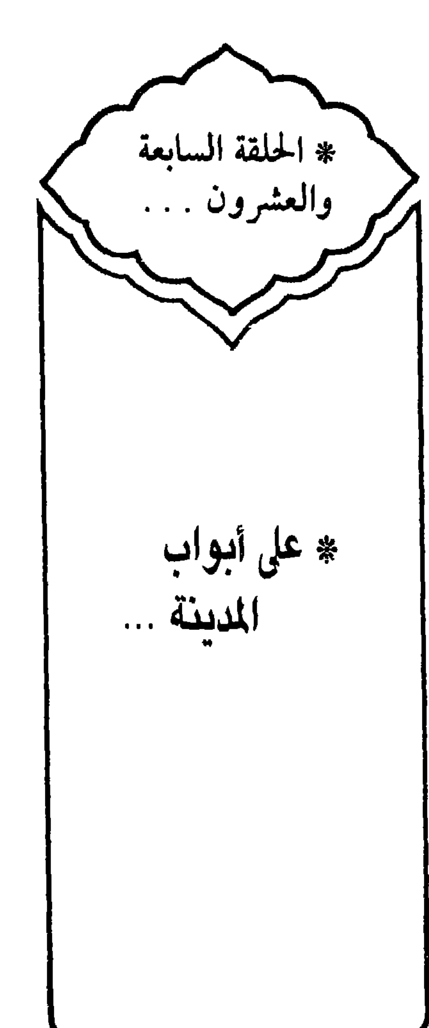
الكربلائية فهذه مواقع المجاهدين في هـذا الزمـان أفضل مكـان للإختبـار العملي البعيد عن خيالات التنظير وأوهامه . . .

إن مجرد التعاطف مع المجاهدين في المقاومة الإسلامية ، والإنتفاضـة . . . ومع حركة الإسلام المجاهد عموماً بقيادة ولي أمر المسلمين . . . ليس دليلاً عـلى الإستعداد للشهادة . . . ولا بد من الإختبار . . .

بهذا يعرف أحدنا هل سيقف مع الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه . . . أم أنه سيرتد كوفياً شعاره « ما لنا وللدخـول بين السـلاطين » ويبحث عن لقمـة العيش مثل ذلك الجصاص !

* * *





* **على أبواب المدينة** :

قبل أن أتحدث عن دخول موكب السبايا إلى المدينة المنورة ، أشير إلى أمرين :

* **الأمر الأول** : هو تأكيد علمائنا على استحباب زيارة الأربعين ، بحيث يمكن القول أن هذا الأمر منفصل عن مسألة رجوع الرؤوس ومرور السبايا بكربلاء أو عدم حصول ذلك . . . باعتبار أن هناك رواية عن الإمام العسكري عليه السلام عن علامات المؤمن وأنها خمس منها زيارة الأربعين ، وقد نص على ذلك كبار العلماء الأجلاء منهم : الشيخ الطوسي ، العلامة الحلي ، والعلامة المجلسي ، والشيخ المفيد والملا فيض الكاشاني ، والشيخ البهائي وغيرهم .

* **الأمر الآخر** : نص يحدّثنا عن سبب تعجيل الإمام السجاد عليه السلام بالسفر من كربلاء إلى المدينة ، يقول

السيد المقرّم : « لم يجد السجاد عليه السلام بدّاً من الرحيل من كربلاء إلى المدينة بعد أن أقام ثلاثة أيام لأنه رأى عمّاته ونساءه وصبيته نائحات الليل والنهار يقمن من قبر ويجلسن عند آخر »[1] . فلو أن شخصاً زار كربلاء ولم يكن شهدها حين مقتل الشهداء فإنه سيكون في وضع نفسي معين فكيف بمن عاش تفاصيلها وأحداثها ، من الطبيعي أن لا يقر له قرار عند زيارته للقبور وطبيعي أن بقاء النساء عند القبور سوف يعرّضهن للتلف . . .

* المهم أن موكب السبايا الغريب مضى إلى أن وصل قريباً من المدينة : « قال بشير بن حذلم : لمّا قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين سلام الله عليهما وحطّ رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال يا بشير (أو بشر) رحم الله أباك فقد كان شاعراً ، فهل تقدر على شيء منه ، قلت : بلى يابن رسول الله إني لشاعر قال عليه السلام : أدخل المدينة وأنعَ أبا عبد الله عليه السلام قال بشر : فركبت فرسي حتى دخلت المدينة ، فلما بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، رفعت صوتي بالبكاء وأنشأت :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج ... والرأس منه على القناة يدار[2]

الملفت هنا أن الإمام السجاد سلام الله عليه لا يريد أن يدخل المدينة بشكل عادي وطبيعي ، فموكب السبايا أحدث ضجّة في الكوفة ، وأحدث ضجّة في الشام ، يريد الإمام أن يحدث ضجة أيضاً في المدينة المنورة . . . هذه المدينة التي لم تنصف الإمام الحسين عليه السلام عندما خرج منها ، ولم تتعامل معه كما ينبغي .

ربما كان هذا السبب الذي جعل الإمام السجاد عليه السلام يضرب خيامه خارج المدينة ، ليدخل المدينة عبر استقبال أهلها له وللسبايا ، طبعاً المسألة ليست شخصية ، بل مسألة استشهاد الإمام الحسين الذي يجب أن تهزّ دماؤه كيان الأمة .

يقول بشر بن حذلم مضيفاً إلى بيتي الشعر : هذا علي بن الحسين مع عمّاته

---

(١) المقرم /٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٢) نفس المصدر .

وأخواته قد حلُّوا بساحتكم ، وأنا رسوله إليكم ، أعرّفكم مكانه ، فخرج الناس يهرعون ، ولم تبق مخدرة إلا برزت تدعو بالويل والثبور وضجّت المدينة بالبكاء فلم ير باك أكثر من ذلك اليوم . . . واجتمعوا على زين العابدين يعزّونه ، فخرج من الفسطاط وبيده خرقة يمسح بها دموعه وخلفه مولى معه كرسي ، فجلس عليه وهو لا يتمالك من العبرة ، وارتفعت الأصوات بالبكاء والحنين فأومأ إلى الناس أن اسكتوا فلما سكتت فورتهم قال عليه السلام : الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، باري الخلائق أجمعين ، الذي بعد ، فارتفع في السماوات العلى ، وقرب فشهد النجوى نحمده على عظائم الأمور ، وفجائع الدهور ، وألم الفجائع ، ومضاضة اللواذع ، وجليل الرزء وعظيم المصائب الفاظعة الكاظة الفادحة الجائحة .

أيها القوم ، إن الله تعالى وله الحمد ابتلانا بمصائب جليلة وثلمة في الإسلام عظيمة ، قتل أبو عبد الله الحسين عليه السلام وعترته ، وسبيت نساؤه وصبيته ، وداروا برأسه في البلدان ، من فوق عامل السنان ، وهذه الرزية التي لا مثلها رزية .

أيها الناس، فأي رجالات منكم يسرّون بعد قتله ، أم أي فؤاد لا يحزن من أجله ، أم أية عين فيكم تحبس دمعها ، وتضنّ عن أنْهمالها ، فلقد بكت السبع الشداد لقتله ، وبكت البحار بأمواجها ، والسماوات بأركانها ، والأرض بأرجائها ، والأشجار بأغصانها ، والحيتان في لجج البحار ، والملائكة المقربون ، وأهل السماوات أجمعون .

أيها الناس ، أي قلب لا ينصدع لقتله ، أم أي فؤاد لا يحن إليه أم أي سمع يسمع بهذه الثلمة التي ثلمت في الإسلام ولا يصمّ .

أيها الناس ، أصبحنا مشردين ، مطرودين ، مذودين ، شاسعين عن الأمصار كأننا أولاد ترك وكابل ، من غير جرم اجترمناه ، ولا مكروه ارتكبناه ولا ثلمة في الإسلام ثلمناها ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هذا إلا اختلاق ، والله لو أن النبي تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون من مصيبة ما أعظمها وأفجعها وأكظّها وأفظّها

وأمرّها وأفدحها ، فعند الله نحتسب ما أصابنا وما بلغ بنا ، فإنه عزيز ذو انتقام[1] .

* ولا بد هنا من وقفة مع خطبته عليه السلام ، والجو العام الذي أراد أن يثيره قبل الدخول إلى المدينة المنورة .

المدينة هي إحدى الحواضر الإسلامية الثلاث التي ظهرت فيها آثار شهادة الإمام الحسين عليه السلام بشكل واضح . . .

وكان من الواضح أن الإمام السجاد ومن معه من أهل البيت . . . سيرجعون إلى المدينة . . . لذلك كان من الطبيعي أن يركز الطاغية يزيد عبر والي المدينة على التضييق على أهل البيت فيها ومراقبتهم . . . وتأليب الناس ضدهم . . .

وإذا لاحظنا أن والي يزيد على المدينة كان أموياً حاقداً . . . استطعنا أن نعرف ـ من خلال ذلك كله ـ الفرق بين دخول الإمام السجاد وأهل البيت كسبايا عائدين إلى بيوتهم وبين دخولهم كأبناء رسول الله المظلومين العائدين إلى مدينة جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أراد الإمام السجاد أن يكون دخولهم إلى المدينة عبر هذه التظاهرة الجماهيرية الحاشدة التي شرح فيها الإمام مجريات كربلاء . . . وعبأها بالإتجاه الذي يحصنها من تضليل الأمويون استطاع الإمام عليه السلام أن ينتزع من والي المدينة إمكانية استثمار النصر العسكري ليحاصر به الإمام وأهل البيت ويتعامل معهم على أساس أنهم أبناء وآل الخارج على خليفة المسلمين . . . لقد أصبح جمهور المدينة جمهور الإمام الحسين والإمام السجاد وإذا بالوالي هو المحاصر رغم سلطته الظاهرية . . .

يدلنا على كثافة تجمهر أهل المدينة ما يحدث به بشر نفسه حيث يقول : « ثم إن أهل المدينة تبادروا مسرعين إلى نحو زين العابدين ، وأنا معهم ، فوجدت الناس قد ملأوا الطرق والأمكنة ، فنزلت عن فرسي ، وبقيت أتخطى رقاب الناس ، حتى قربت من الخيمة »[2] .

---

(١) نفس المصدر / ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

(٢) المنتخب للطريحي / ٤٩٨ .

لاحظ قوله : ملأوا الطرق والأمكنة ، ولاحظ كذلك قوله : حتى قربت من الخيمة ولم يقل وصلت إلى الخيمة .

* أقف أيضاً عند عبارة الإمام سلام الله عليه : « والله لو أن النبي تقدّم إليهم في قتالنا كما تقدّم إليهم في الوصية بنا لما زادوا على ما فعلوا بنا » إن هذا يكشف عن عمق الفجائع والمصائب التي قاسوها عليهم السلام في كربلاء . . . ويكشف كذلك عن مدى بعد الأمة آنذاك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . .

* هنا نجد نصّين يتحدثان عن نمطين من الناس في المدينة : نمط الذين يحبون الإمام الحسين عليه السلام ويتمنون لو كانوا يقدرون على نصرته ونمط يكره الإمام الحسين . . .

النمط الأول يعبّر عنه نص يقول : فقام إليه (إلى الإمام السجاد عليه السلام) صوحان بن صعصعة بن صوحان العبدي وكان زَمِناً ، واعتذر بما عنده من زمانة رجليه .

فأجابه عليه السلام بقبول عذره وحسن الظن فيه وشكر له وترحّم على أبيه . . . وصوحان هو من عائلة مباركة ، أبوه وعماه شاركوا في حرب الجمل تحت راية أمير المؤمنين ، فقتل الأول وكان يحمل الراية ، فحملها الثاني ثم حمل الراية صعصعة وكان من خواص أمير المؤمنين سلام الله عليه . دخل صعصعة على معاوية بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام ، وكان الإمام الحسن عليه السلام قد أخذ أماناً لأشخاص بأسمائهم وأسماء آباهم منهم صعصعة فقال له معاوية : أما والله إني كنت لأبغض أن تدخل في أماني فقال صعصعة : وأنا والله أكره أن أسميك بهذا الاسم[1] (أي أمير المؤمنين) ومن هذه التفاصيل نستطيع أن نعرف مدى الحسرة التي كابدها ابنهم صوحان وهو يرى أنه مقعد لم يستطع نصرة الإمام الحسين .

* نموذج النمط الذي يكره الإمام الحسين عليه السلام نجده في النص التالي :

---

(١) سفينة البحار /٢/٣٠ ـ ٣١ .

« ثم دخل زين العابدين المدينة بأهله وعياله وجاء إليه إبراهيم بن طلحة ابن عبيد الله وقال : من الغالب ؟ فقال عليه السلام : إذا دخل وقت الصلاة فأذن وأقم تعرف الغالب »[1] .

إبراهيم بن طلحة ، أبوه طلحة الذي خرج مع الزبير وعائشة في حرب الجمل وقتل في حرب الجمل لذلك جاء ابنه إلى الإمام السجاد شامتاً ويقول من الغالب ؟ ولكن الإمام السجاد سلام الله عليه أجابه بما يدل على أن مسألة أهل البيت ليست مسألة أشخاص وإنما مسألة دين ورسالة وحق فما دام المسلمون يشهدون الشهادتين فمعنى ذلك أن الغالب هو الحق . . . والذي سجل هذه الغلبة وأحرز هذا النصر هو دم الإمام الحسين عليه السلام هكذا يعرف من هو الغالب . . .

ثم تتحدث النصوص عن خطاب بعض أهل البيت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عند دخولهم إلى المدينة : **« ثم أخذت زينب بنت أمير المؤمنين بعضادتي باب المسجد وصاحت : يا جدّاه إني ناعية إليك أخي الحسين »**[2] .

هذه الكلمات قد تبدو عادية ولكن بملاحظة الجو الذي قيلت فيه فلا شك أنها تفتت القلوب . ثم تقدم سكينة وباختصار تقريراً بكل المجريات المفجعة وصاحت سكينة : **يا جدّاه إليك المشتكى مما جرى علينا ، فوالله ما رأيت أقسى من يزيد ولا رأيت كافراً ولا مشركاً شرّاً منه ولا أجفى وأغلظ فلقد كان يقرع ثغر أبي بمخصرته وهو يقول : كيف رأيت الضرب يا حسين . . .**

وأقمن حرائر الرسالة المأتم على سيد الشهداء ولبسن المسوح والسواد نائحات الليل والنهار[3] طيلة رحلة السبي لم يكن باستطاعة أهل البيت أن يبكوا على سيد الشهداء إلا وهم يعيشون القلق والترقب ، أما في المدينة فقد أصبح باستطاعتهم أن يبكوا من الأعماق . . . حتى يجف الدمع . . . وهل يجف ؟ . . .

ولعل في النصوص التالية ما يكشف لنا عن أن عمق الفاجعة في الواقع وفي نفس الإمام السجاد عليه السلام وأهل البيت . . . أكثر مما نتصور بكثير . . .

---

(١) مقتل الحسين /٣٧٥ .

(٢) (٣) نفس المصدر /٣٧٦ .

* روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : « إن زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه أربعين سنة صائماً نهاره قائماً ليله ، فإذا حضر الإفطار جاءه غلامه بطعامه وشرابه ، فيضعه بين يديه ويقول : كل يا مولاي ، فيقول : قتل ابن رسول الله جائعاً ، قتل ابن رسول الله عطشاناً ، فلا يزال يكرر ذلك ويبكي حتى يبل طعامه من دموعه ثم يمزج شرابه بدموعه ، فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عزَّ وجلَّ »[1] .

* وحدث مولى له عليه السلام أنه برز يوماً إلى الصحراء ، قال : « فتبعته فوجدته قد سجد على حجارة خشنة ، وأنا أسمع شهيقه وبكاءه وأحصيت عليه ألف مرة « لا إله إلا الله حقاً حقاً ، لا إله إلا الله تعبداً ورقاً ، لا إله إلا الله إيماناً وصدقاً » ثم رفع رأسه من السجود وإن لحيته ووجهه قد غمرا بالماء من دموع عينيه . . . فقلت : « يا سيدي ، أما آن لحزنك أن ينقضي ، ولبكائك أن يقل . . . فقال لي : ويحك إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام كان نبياً ابن نبي ، كان له اثني عشر ابناً فغيَّب الله سبحانه واحداً منهم ، فشاب رأسه من الحزن واحدودب ظهره من الغم وذهب بصره من البكاء ، وابنه حي في دار الدنيا ، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين ، فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي »[2] .

* وروي عن الصادق عليه السلام : « ما اكتحلت هاشمية ، ولا اختضبت ، ولا رؤي في دار هاشمي دخان خمس حجج حتى قتل عبيد الله بن زياد لعنه الله تعالى »[3] ويبدو أن المراد بعدم رؤية الدخان هو عدم الولائم التي يتصاعد دخانها من الدور بشكل غير مألوف فعلى الأطائب من أهل بيت محمد وعلي صلى الله عليهما وآلهما فليبك الباكون ، وإياهم فليندب النادبون ، ولمثلهم فلتذرف الدموع[4] . . .

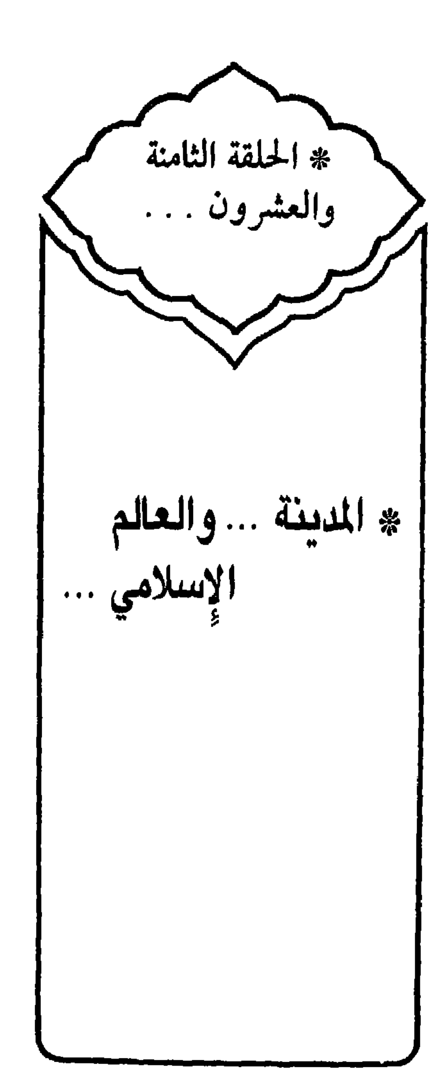
* * *

---

(١) (٢) و(٣) نفس المهموم /٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٤) من دعاء الندبة .





* كيف كانت أجواء المدينة عندما حل فيها الإمام السجاد . . . وكيف كان الوضع السياسي العام في العالم الإسلامي عندما قام عليه السلام بأعباء الإمامة . . .

من الضروري في هذا السياق أن نتذكّر أن الإمام السجاد عليه السلام عاش ظروفاً سياسية ، يبدو أنها أحلك الظروف التي واجهها إمام من الأئمة المعصومين ، فليس سهلاً أن يتولى الإمام السجاد الإمامة بعد شهادة أبيه الإمام الحسين عليه السلام ، الذي تلته حادثتان مروعتان هزتا العالم الإسلامي . . . وقعة الحَرة في المدينة ، ورمي الكعبة بالمنجنيق وتتالت الأحداث حتى كان الإضطراب الكبير على مستوى الحكم في العالم الإسلامي بعد معاوية بن يزيد . . . وقد كان الإمام السجاد عليه السلام الطود الشامخ في مهبّ الرياح العاتية .

* هنا من المفيد جدّاً أن يقف

أحدنا عند بعض الأمور التي جرت في المدينة المنورة وكذلك بعض ما جرى في العالم الإسلامي آنذاك بشكل عام ويحاول التعرّف على مواقف الإمام السجاد سلام الله عليه ليكّون فكرة دقيقة عن عصر الإمام سلام الله عليه .

* من المفيد في ذلك أن نقرأ نصّاً للمسعودي ، صاحب مروج الذهب ، يتحدّث عن فسق يزيد ، وانتقال هذا الفسق والفجور إلى العمّال ، باعتبار أن هذا العنصر كان الطابع العام للناس الذين تولى الإمام السجاد عليه السلام بينهم أعباء الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . يقول المسعودي : « وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد وذلك بعد قتل الحسين فأقبل على ساقيه فقال :

إسقني شربة تروي مشاشي ثم مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنّوا به .

يضيف المسعودي : « وغلب على أصحاب يزيد ، وعماله ، ما كان يفعله من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة ، والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكنى بأبي قيس ، يُحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأً ، وكان قرداً خبيثاً وكان يحمله على أتان وحشية . . . الخ »[1] .

هذا هو الطابع العام للفترة التي تولى فيها الإمام السجاد مهام الإمامة وإذا أردنا أن نكوّن فكرة أدق فلا بد من الوقوف عند نقطتين :

* **الأولى** : كيف كان وضع المدينة التي رجع إليها الإمام السجاد وموكب السبايا .

* **الثانية** : كيف كان وضع الخلافة الإسلامية عموماً ، والمدن الأساسية لتلك الخلافة خصوصاً .

ينبغي استعراض ذلك أثر مقتل سيد الشهداء مباشرة وبعد ذلك بفترة عقد

---

(١) مروج الذهب /٣/٦٧ .

من الـزمن أو أكثر لكي نستـطيـع أن نكـوّن فكـرة عن مـواقف الإمـام السجـاد عليه السلام .

أما المدينة المنورة ، فنجد أن الحاكم عليها من قبل يزيد كان عمرو بن سعيد الأشدق ، وهو من جبابرة بني أميّة ، وقد حاول فيما بعد أن يستأثر بالخلافة .

يبدو أن والي المدينة الذي لم يقدم على أخذ البيعة من الإمـام عليه السـلام بالإجبار كما أشار عليه مروان بن الحكم قد عزل ، لذلك ، أو لأسباب أخرى ، وتولى المدينة عمرو بن سعيد الأشدق .

لكي نستطيع أن نعرف أجواء المدينة عند عودة السبايا إليها لا بد وأن نقف عنـد شخصية هـذا الأموي (عمـرو بن سعيد الأشـدق) . نجـد هنـا في بعض المصادر السنيّة على ما نقل عن مجمع الـزوائد لابن حجـر الهيثمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ليرعفنّ على منبري جبار من جبابرة بني أمية فيسيل رعافه » ، وقد رعف عمرو بن سعيد وهو على منبره صلى الله عليه وآله وسلم حتى سال رعافه[1] .

هذا الذي وصف على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه جبار من جبابرة بني أمية خرج يطلب الخلافة لنفسه بعد موت معاوية بن يـزيد وكـان يشكل خطراً ، بحيث أن مروان بن الحكم استعمل الدهاء في التغلّب عليه ووعده أن تكون الخلافة له بعد مروان وبعد خالد بن يزيد فقبل ، ثم عندما تنكّر مروان لخالد بن يزيد ولعمرو بن سعيد الأشدق وولّى ابنه عبـد الملك بن مروان ، اغتنم عمرو الفرصة وسيطر على الشام وكان عبد الملك خارج الشام ، فرجع واستعمل الدهاء أيضاً مع عمرو بن سعيد ، أرسل إليه « إنك بهذا تفرّق كلمتنا » ، ووعده بأن يجعله ولياً للعهد ثم قتله عبد الملك[2] .

إذن كان عمرو بن سعيد الجبار الأموي مشروعاً سياسياً . . . ومعرفتنا به ـ ولو إجمالاً ـ تجعلنا نقدّر الجو الذي كان يواجهه الإمام في المدينة من هذا الطاغوت الذي سينتقم انتقاماً شديداً من أهل البيت بمجرّد أن يصله خبر استشهـاد الإمام

---

(١) مقتل الحسين للمقرم / ٣٣٤ (الهامش) .

(٢) مروج الذهب /٣/ ٨٦ و١٠٢ .

الحسين عليه السلام ، لأنه سيتصرّف بنشوة النصر والشماتة .

وفعلاً هذا ما نجده « تلقّى عمرو بن سعيد الأشدق والي المدينة خبر استشهاد الإمام الحسين مباشرة عبر رسول أرسله إليه ابن زياد وأمر ابن زياد الرسول أن يغذّ السير ويوصل الخبر بأسرع ما يمكن » . . . ربما كان السرّ في هذه السرعة بإخبار ابن زياد لعمرو بن سعيد أنه كان مطلوباً من سعيد أن يحاصر أي ردّة فعل قد تحدث في المدينة المنوّرة .

عندما وصل الخبر إلى عمرو بن سعيد فرح فرحاً كبيراً « ولما أعلم والي المدينة بقتل الحسين فرح واهتز بشراً وشماتة وأمر المنادي أن يعلن بقتله في أزقّة المدينة ، فلم يسمع ذلك اليوم واعية مثل واعية نساء بني هاشم في دورهن على سيد شباب أهل الجنة واتصلت الصيحة بدار الأشدق ، فضحك وتمثل بقول عمرو بن معدي كرب :

عجت نساء بني زياد عجّة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب

ثم قال : واعية بواعية عثمان . والتفت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يوم بيوم بدر يا رسول الله فأنكر عليه قوم من الأنصار »(١) .

كل هذه التفاصيل من الضروري أن نعرفها باعتبار أنها تبيّن الوسط الذي استقر فيه الإمام السجاد عليه السلام ، كذلك توضح السبب الذي جعل الإمام يصرّ على أن يرسل شاعراً يرثي الإمام الحسين في المدينة ، ثم يخرج الناس لإستقباله ، في حشد جماهيري كما تقدم .

ثم يتحدث النص كيف صعد عمرو المنبر وقال : « **أيها الناس إنها لدمة بلدمة وصدمة بصدمة** » ، فقام إليه عبد الله بن السائب وقال : « **لو كانت فاطمة حيّة ورأت رأس الحسين لبكت عليه ، فزجره عمرو بن سعيد وقال : نحن أحق بفاطمة منك ، أبوها عمّنا وزوجها أخونا وأمها ابنتنا ولو كانت فاطمة حيّة لبكت عينها وما لامت من قتله ودفعه عن نفسه**(٢) .

---

(١) مقتل الحسين / ٣٣٤ .

(٢) نفس المصدر / ٣٣٥ .

يلاحظ هنا عمق الحقد الدفين عند هـذا الطاغيـة ، كما يـلاحظ دهاؤه في مواجهة من احتج عليه بالزهراء . . . فعبر بما يوحي باحترامـه لها . . . ثم وظف احترام الزهراء لصالحه ودعم موقفه . . .

يتابع النص أيضاً : « **وكان عمرو فظاً غليظاً قاسياً أمر صاحب شرطته على المدينة عمرو بن الزبير بن العوام بعد قتل الحسين أن يهدم دور بني هـاشم ففعل وبلغ منهم كل مبلغ** »[1] .

وما بقي من محلة بني هاشم بـالمدينـة بين مـرقد المصـطفى صلى الله عليـه وآله وسلم والبقيع أكمـل هدمـه في هذا العصر بئس السلف لبئس الخلف . . . وعمرو بن الزبير هو أخو عبد الله بن الزبير ولكنه لم يكن مع أخيه بل كان يـوالي الأمويين ويكفي لتصوّر شدّة عمرو بن الزبير وقسوته على أهل البيت في تنفيذ الأمر الأمـوي ، أن نعـرف أنـه خـرج عـلى رأس جيش أمـوي لمـواجهـة جيش أخيـه عبد الله بن الزبير . . . فإذا كـان موقفه من أخيـه كذلـك فكيف هو مـوقفه ممن يعتبرهم السبب في مقتل أبيه الزبير . . .

من ذلك نستطيع أن نقدّر أن المدينة جرى فيها ظلم كبير على أهـل البيت قبل دخول الإمام السجاد ونستطيع أن نقدِّر كيف كان الوضع بعد دخول الإمـام وندرك بذلك أهمية ما فعله الإمام سلام الله عليه عندما أرسل بشر بن حذلم لينعي الإمام الحسين ، ويدخل المدينة عبر تظاهرة جماهيرية غاضبة . . . ويضيف النص عن عمـرو بن الزبـير : « **وهدم دار ابن مـطيع ، وضرب النـاس ضرباً شـديداً فهربوا منه إلى ابن الزبير** »[2] . . . وابن مطيع هذا كان قد التحق بعبـد الله بن الزبير في مكة . . .

يبقى المحرّك للوضع في المدينة الجبار عمرو بن سعيد الأشدق الذي سمي بالأشدق كما يقول النص لأنه « **أصابه اعوجاج في حلقه إلى الجانب الآخر لإغراقه في شتم علي بن أبي طالب عليه السلام** »[3] .

* ثم جاءت وقعة الحرة والحرة اسم مكـان في المدينـة ، حيث وقعت فيها

---

(١) نفس المصدر .

(٢) (٣) نفس المصدر .

معركة طاحنة بين جيش أرسله يزيد وبين أهل المدينـة يقول المسعـودي في مروج الذهب « **ولما شمل الناس جور يزيد وعمّاله ، وعمّهم ظلمه ، وما ظهر من فسقه بقتله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنصـاره ، وما أظهـر من شرب الخمـور وسيره سيرة فرعـون ، بل كـان فرعـون أعدل منـه في رعيّته ، وأنصف منه لخاصته ، وعامّته ، أخرج أهل المدينة عامله عليهم** »[1] . . .

بعد ذلك أرسل يزيد جيشاً لحربهم ، ولست هنا بصدد استعراض تفاصيل وقعة الحرّة ولكن أقف عند ما يتعلق بموقف الإمام السجـاد عليه السـلام خلالها وبعدها .

« بعـد أن وصل جيش يـزيد دارت معـركة ، وكـان أهـل المـدينـة بقيـادة عبد الله بن مطيع العدوي وعبد الله بن حنظلة (غسيل الملائكة) « **وكانت وقعـة عظيمة قتـل فيها خلق كثير من الناس من بني هـاشم وسائـر قريش والأنصـار وغيرهم من سائر الناس ، فممّن قتل من آل أبي طالب ، عبـد الله بن جعفر بن أبي طالب وجعفر بن محمد بن الحنفية (. . .) وبضع وتسعون رجلاً من قريش ومثلهم من الأنصار وأربعة آلاف من سائر الناس ممّن أدركه الإحصاء دون من لم يُعرف** » ، وبايع الناس على أنهم عبيد ليـزيد ، ومن أبى ذلـك أمرّه مسرف عـلى السيف ، غير علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب السجاد ، وعلي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ومسرف هو مسلم بن عقبـة قائـد جيش يزيـد لكن سمّاه الناس مسرفاً لأنه أسرف في القتل وسمّوه مجرماً ولم تطل أيامه لأنه عندما خرج من المدينة بعد أن فعل ما فعل ، مات في الطريق إلى مكة . . .

هنا نجد أن الإمام السجاد سلام الله عليه لم يقتل رغم أن قائد الحملة هو هذا المجرم ورغم أن كل ما حدث في المدينة كان ردّة فعل على أمور أساسها وفي طليعتها استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وذلك الجو الغاضب على يزيد وابن زياد وابن الأشدق الذي فجره الإمام السجاد على أعتاب المدينة .

* ونجد أيضاً في هذا المجال نصاً عن المسعودي في مروج الذهب : « ونظر

---

(١) مروج الذهب /٣/٦٨ - ٦٩ .

الناس إلى علي بن الحسين السجاد ، وقد لاذ بالقبر وهو يدعو ، فأُتي به إلى مسرف ، وهو مغتاظ عليه ، فتبرأ منه ومن آبائه فلما رآه وقد أشرف عليه ارتعد ، وقام له ، وأقعده إلى جانبه ، وقال له سلني حوائجك ، فلم يسأله في أحد من قُدّم إلى السيف إلا شفّعه فيه ، ثم انصرف عنه ، فقيل لعلي : رأيناك تحرّك شفتيك فما الذي قلت ، قال : قلت : اللهم رب السماوات السبع وما أظللن والأرضين السبع وما أقللن رب العرش العظيم رب محمد وآله الطاهرين ، أعوذ بك من شرّه وأدرأ بك في نحره أسألك أن تؤتيني خيره وتكفيني شرّه » وقيل لمسلم رأيناك تسبّ هذا الغلام وسلفه فلما أُتي به إليك رفعت منزلته ، فقال : ما كان ذلك لرأي منّي لقد مليء قلبي منه رعباً »[1] .

فالإمام السجاد عليه السلام حتى في هذا الظرف الحالك لم يتصرّف مع هذا المجرم بطريقة ضعيفة ، وإنما نجد أن هذا المجرم يضعف أمامه إلى هذا الحد ! إنه السرّ الإلهي في وحي رسول الله ، زين العابدين . . . وسيد الساجدين . . .

ثم إذا نظرنا إلى خارج المدينة وهو ما يرتبط بالنقطة الثانية لنعرف الظرف الذي عاصره الإمام سلام الله عليه وعلى أساسه يمكن أن نتحدّث عن الموقف أو التحرّك الذي كان متاحاً للإمام عليه السلام .

نجد أن المنطقة الإسلامية الهامة والحيوية (الحجاز ـ العراق ـ الشام) كانت تتنازعها الإتجاهات التالية :

١ ـ إتجاه الأمويين .

٢ ـ إتجاه ابن الزبير .

٣ ـ المختار .

٤ ـ التوابون .

ولم يكن المختار تياراً مستقلاً إلا في مرحلة متأخرة جداً ، عند انفصاله عن ابن الزبير كما يحدث المسعودي .

وكان الصراع على أشده بين الأمويين والزبيريين . . . فتارة يقوى تيار ابن

(١) مروج الذهب ٣/٧٠ ـ ٧١ .

الزبير ويصبح الإتجاه الأقوى . . . إلى حد أن تؤخذ له البيعة ويخطب باسمه حتى على منبر دمشق .

وتارة نجد الأمر يختلف فيقوى التيار الأموي . . . ويضعف تيار ابن الزبير . . .

فماذا كان موقف هذه الإتجاهات من أهل البيت عليهم السلام ؟ أما بنو أمية فموقفهم العدائي واضح تماماً . . . كان مشروعهم السياسي يقوم على بغض أهل البيت والقضاء عليهم . . .

وأما عبد الله بن الزبير . . . فلم يكن أقل من الأمويين عداء لأهل البيت . . . إذا لم أقل إنه بلغ ما لم يبلغه الأمويون . . .

فقد خطب أربعين يوماً لا يصلي على النبي وآله صلى الله عليه وآله وسلم وقال في تبرير ذلك : « لا يمنعني أن أصلي عليه إلا أن تشمخ رجال بآنافها » طبعاً ، يقصد أهل البيت عليهم السلام . . .

كما ينقل عنه قوله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن له أُهَيْلَ سوء » وفي حديث بين عبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس قال ابن الزبير : « إني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة »[1] .

وكيف لا يكون كذلك ، وهو الذي يقول فيه أمير المؤمنين عليه السلام : « ما زال الزبير منا إلى أن شب ابنه المشؤوم عبد الله » .

وفي هذا الجو المضطرب لم يكن خط المختار الذي أخذ يبرز تدريجياً يشكل ذلك الخط الإسلامي المبدئي الذي يلبي طموح المؤمنين . . .

فقد بدأ المختار عمله السياسي مع ابن الزبير موالياً ومبايعاً . . . ثم جاء إلى الكوفة من قبل ابن الزبير لإستمالة الشيعة فيها لصالح ابن الزبير ، يقول المسعودي : فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير : إني لأعرف قوماً لو أن لهم رجلاً له رفق وعلم بما يأتي لأستخرج لك منهم جنداً تغلب أهل الشام ، فقال : من هم ؟ قال : شيعة بني هاشم بالكوفة . . . قال : كن أنت ذلك

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٨٠ .

الرجل ، فبعثه إلى الكوفة ، فنزل ناحية منها وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم ويظهر الحنين والجزع لهم ، ويحث على أخذ الثأر لهم والمطالبة بدمائهم ، فمالت الشيعة إليه[1] . . .

كان المختار إذن في هذه المرحلة الأولى من انطلاقته يوالي ابن الزبير ، وعندما قتل إبراهيم بن الأشتر عبيد الله بن زياد بعث المختار برأسه إلى ابن الزبير بمكة[2] . هذه المواقف من المختار تجعل من الطبيعي أنْ يحذر منه الإمام السجاد عليه السلام ويوضح أمره للناس كما نص على ذلك المسعودي[3] .

ولا أريد هنا أن أجزم بشيء من أمر المختار الذي يبدو أن موقفه تطور إيجاباً فيما بعد إلى الحد الذي يجعله من أهل المراتب السامية كما صرح بذلك المحقق الأردبيلي رحمه الله في « حديقة الشيعة » ولعل هذا السبب في مقتله على يد جيش ابن الزبير بقيادة أخيه مصعب . . . ما أريده هو إيضاح جانب من تشابك الخطوط والإتجاهات . . . واضطراب الوضع السياسي في هذه الفترة من إمامة السجاد عليه السلام . . .

رغم هذه الظروف . . . وقسوتها . . . تمكن الإمام السجاد عليه السلام من اعتماد النهج الذي يبقي ظلامة أهل بيت الرسول بما تمثله من ظلامة للإسلام ، الرافد الشعوري الأقوى الذي كانت الأمة تحاكم على أساسه سائر الإتجاهات والخطوط . . .

لقد رأينا كيف أن ابن الزبير رغم عدائه المزمن لأهل البيت يضطر إلى استثمار حب الناس لهم ليتمكن من الصمود في وجه الأمويين . . . وجيش الشام . . . وما ذلك إلا لأنه كان يعلم قدرة شعار ظلامة أهل البيت على تعبئة الناس ضد الأمويين . ومن الجدير بالذكر في هذا المجال تلك الحركة الثورية الملفتة ـ حركة التوابين ـ التي تنضح نصوصها بالتوبة والولاء وروح الشهادة في سبيل الله . . . والتي لم تستطع كل ضبابية الظرف السياسي أن تحجب رؤيتها فلم

---

(١) نفس المصدر /٧٤ .

(٢) نفس المصدر /٩٧ وتذكر بعض المصادر الأخرى أنه بعث به إلى الإمام السجاد عليه السلام .

(٣) نفس المصدر /٧٤ .

تـوال ابن الزبـير ولا خافت بـطش الأمويـين . . . ولا استطاع المختـار رغم كل محـاولاته التي بـذلها لتثبيط النـاس عنها[1] . . . أن يثنيهـا عن طرح نفسهـا خطاً مستقلاً يخوض معركة ضروساً مع عبيد الله بن زياد في عين الوردة . . . ورغم أنه لم يكتب لهذه الحركة النجاح فـإن سجلها يـطفح أصـالة ووفـاءً ببيع النفـوس لله تعالى . . .

* * *

(١) نفس المصدر /٩٣ .

* الحلقة التاسعة والعشرون . . .

* سمو منزلة العباس عليه السلام ...

* العباس عليه السلام كما هو واضح من نصوص كربلاء كان الشخصية الثانية بعد الإمام الحسين عليه السلام ، ومن مجمل النصوص التي تتحدّث عن العباس عليه السلام نكتشف أننا أمام شخصية فريدة ، ينبغي أن نعرفها وندرك أبعاد العظمة فيها حتى لا نحرم من بركات العباس عليه السلام في الدنيا والآخرة .

* عندما يكون شخص منّا يعرف عالماً من العلماء إلا أنه لا يدرك أبعاد شخصيّته ولا يعرف سرّ عظمته . . . وبعد وفاته مثلاً يكتشف عظمة هذه الشخصية ، يندم لأنه كان يعرفه لفترة طويلة من الزمن ولم يكن يعرف خصوصياته كي يستفيد من هذه الخصوصيات ، مثلاً شخص يعرف أن هذا العالم الذي يعرفه مجتهد ، مفسّر ، فيلسوف ، إلا أنه لا يعرف أنه من حيث الكرامات وصل إلى مرتبة رأى فيها الجنة

أو بعض مظاهرها إلى غير ذلك من الخصوصيات التي تكشف عن أن هذا العالم كان من الأبدال والأقطاب والأوتاد ، كم يندم لأنه لم يقدّر هذا العالم حقّ التقدير ، لم يكثر من الذهاب إليه مع أنه كان باستطاعته ذلك ، لم يسأله عن أمور كثيرة كان سؤاله عنها ضرورياً ، لماذا لم يطلب ـ على الأقل ـ وبإلحاح مراراً أن يدعو له .

معرفتنا بالمعصومين عليهم السلام وبالعباس والسيدة زينب وعلي الأكبر عندما تكون معرفة باهتة ثم يدخل أحدنا عالم الآخرة ويرى أن الإمام الحسين مثلاً في موقع لم يكن يخطر له ببال رغم تفكيره بعظمة الإمام عليه السلام ، سيجد حينئذ أن علاقته به قياساً إلى ما ينبغي هي بمستوى الصفر . كم يتندّم لأن هذه المعرفة الإجمالية لم يعمّقها كم يتألم ويتحسر لأنه لم يعمق في الدنيا هذه المعرفة الباهتة ويحولها إلى معرفة حقيقية في نفسه في الدنيا ، لم يكثر من القراءة حول الإمام ، من استماع مجالس العزاء ، والبكاء ، من الإلتزام بنهج الإمام سلام الله عليه . عدم القيام بذلك يورثه حرماناً في الآخرة ، يبعده عن استحقاق شفاعة الإمام سلام الله عليه .

* بالنسبة للعباس عليه السلام كذلك عندما يدخل أحدنا عالم الآخرة ويرى مكانته الفريدة ومنزلته العظيمة التي يغبطه بها جميع الشهداء كما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام يقول : لَمِ لم أتعرف على العباس في الدنيا كما ينبغي ؟ لم لم أفهمه لأتعامل معه على هذا الأساس . لم حرمت نفسي في الدنيا والآخرة من بركات معرفته . . .

هنا أؤكد على ضرورة أن يدرس كل منّا بعمق ، مواقف العباس عليه السلام ، ويكوّن فكرة وافية عنه سلام الله عليه حتى لا يبتلى بما يبتلى به البعض .

* في هذا المجال أذكر قصة معبرة : كان أحد « العلماء » جالساً مع علماء آخرين في كربلاء فدار حديث عن العباس عليه السلام ومنزلته ، فقال هذا العالم المجتهد المعجب بعلمه : أنا أفضل من العباس لأن العباس لم يدرس ، أنا درست وتعبت حتى صرت مجتهداً . . . فبأي شيء يتميّز العباس . . . حاول الموجودون إقناعه بشتى الطرق والوسائل بخطورة هذا الكلام ولكن دون جدوى . . .

يقول أحد العلماء ـ وكان حاضراً في ذلك المجلس ـ : ذهبت إليه في الصباح لأعيد مناقشته في كلامه في الليلة السابقة ، فقيل : إنه ليس في المنزل ، لقد ذهب إلى حرم العباس ، دخلت الحرم فوجدته يبكي ، ويتوسل ، سألته ما الخبر؟ قال : بعد أن تفرق المجلس البارحة ونمت ، رأيت في منامي أني في مجلس يحضره عدد من العلماء ، وإذا بشخص يحمل بيده كرسياً ويضعه في صدر المجلس ويقول : أبو الفضل العباس قادم ، وفعلاً دخل العباس بهيبته وإطلالته ، وجلس على الكرسي في صدر المجلس وبدأ يسلّم على الحاضرين فرداً فرداً ويتحدّث معهم إلى أن وصل إلي قال : أنت الذي تقول أنا أفضل من العباس ؟ من هو أستاذك ، أليس هو فلان الذي مات على ضلال ثم ألستم تقولون إن علمكم هو علم الظاهر ، أما أنا فعلمي هو علم الباطن من خلال الإمام المعصوم وأنتم مهما حاولتم فلن تصلوا إلى الحكم الواقعي . . . أنا أساتذتي أمير المؤمنين والحسن والحسين . . . فاستيقظت فزعاً وجئت إلى حرم العباس عليه السلام[1] .

* ما يخشى منه أن تحصل لأحدنا شبهة نتيجة عدم معرفته بالعباس فيكوّن عنه فكرة لا تتناسب مع سمو منزلته عليه السلام . . . إن من الواضح جداً من الروايات عن المولى أبي الفضل أننا أمام شخصية عظيمة يحترمها أهل البيت عليهم السلام ، غاية الإحترام . . .

ويلاحظ في بعض مناطقنا الإسلامية أن المعرفة بالعباس عليه السلام تنسجم مع هذه المكانة التي تكشف عنها الروايات . . . إلا أن الوضع في بعض المناطق الأخرى ، ليس كذلك ، خصوصاً في أوساط المثقفين الذين يفكرون بطريقة هذا العالم الذي اكتشف جهله . . .

من الجهل إذن أن يسمح أحدنا لنفسه بالإعتقاد بأن الذين يعظمون العباس مخطؤون ، لأن أول من عظمه وتحدث عن سمو منزلته هم أهل البيت عليهم السلام . . . إننا مدعوون إلى إعادة النظر في التقييم الذي نحمله عن سيدنا أبي الفضل عليه السلام لننسجم مع مضمون الروايات وآراء كبار العلماء . . .

(١) العباس عليه السلام للمقرم / ٩٥ ـ ٩٧ باختلاف يسير ، وقد سمعتها مشافهة كما أثبتها .

*** ولادته عليه السلام :**

* من المعروف أن أمير المؤمنين عليه السلام طلب من أخيه عقيل أن يختار له فتاة من وسط مشهور بالشجاعة والحزم ، وهذا يدل على أهمية الخؤولة ، وأن صفات الخال تنتقل إلى الولد . . . إن الإسلام يدعو إلى اختيار الزوجة بروية وعمق لأن هذا يجعل رباط الحياة الزوجية أقوى . . . ونستطيع أن نعرف من هذا الطلب أيضاً ، أن أمير المؤمنين كان يحمل هم كربلاء إلى الحد الذي يجعله يختار عضد الإمام الحسين وحامل لوائه . . .

وقد اختار عقيل فاطمة بنت حزام ، أم البنين ، يقول عقيل الذي كان عالماً بالأنساب: ليس في العرب أشجع من آبائها وأفرس . ويقول السيد المقرّم في كتاب العباس : كانت أم البنين من النساء الفاضلات العارفات بحق أهل بيت العصمة مخلصة في ولائهم ممحضة في مودتهم ولها عندهم الجاه الوجيه والمحل الرفيع وقد زارتها زينب الكبرى بعد وصولها المدينة تعزّيها بأولادها الأربعة كما كانت تزورها أيام العيد . . .

* كانت ولادة العباس عليه السلام يوم الرابع من شعبان سنة ٢٦ للهجرة والملفت هنا أن الإمام الحسين عليه السلام كانت ولادته في الثالث من شعبان وولادة العباس في الرابع من شعبان سنة ٢٦ للهجرة .

*** مع أمير المؤمنين عليه السلام :**

عاش العباس مع أمير المؤمنين سلام الله عليه حوالي الأربعة عشر عاماً وسجل لنا التاريخ بعض الملامح عنه مع أبيه عليهما السلام .

* يذكر السيد المقرّم في كتابه عن العباس ما خلاصته : ليتصور أحدنا كيف جيء بالعباس عند ولادته إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وما هو شعور الإمام عند رؤيته يدي العباس وهو يعلم أنهما ستقطعان في كربلاء وما هو شعوره عند النظر إلى رأس العباس الطفل وهو يعلم أنه سيضرب بعمود الحديد ويدار به من بلد إلى بلد ، ويفهم من كلام السيد المقرم أن الإمام عليه السلام ردد هذا القول : ما لي وليزيد[1] . . .

---

(١) العباس عليه السلام للمقرم / ٧٥ .

* كذلك نجد : أن أم البنين رأت أمير المؤمنين في بعض الأيام أجلس أبا الفضل عليه السلام على فخذه وشمّر عن ساعديه وقبّلهما وبكى ، فأدهشها الحال لأنها لم تكن تعهد صبيّاً بتلك الشمائل العلوية فينظر إليه أبوه ويبكي دون سبب ظاهر فأخبرها بما يجري على ولده العباس فبكت وأعولت وشاركها من في الدار في الزفرة والحسرة غير أن سيد الأوصياء بشرّها بمكانة ولدها العزيز عند الله جل شأنه وما حباه بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة كما جعل ذلك لجعفر بن أبي طالب[1] .

* من صفات العباس عليه السلام أنه « كان وسيماً جميلاً ، يركب الفرس المطهّم ورجلاه تخطّان في الأرض ويقال له قمر بني هاشم »[2] .

* هل شارك العباس في الحرب في زمن أمير المؤمنين ؟ تقول بعض المصادر أنه حضر بعض الحروب مع أبيه ولم يحارب ـ وهو الأقرب ـ فيما تتحدث بعض المصادر أنه حارب في صفين .

يقول النص : « وممّا يروى : أنه في بعض أيام صفين خرج من جيش أمير المؤمنين عليه السلام شاب على وجهه نقاب تعلوه الهيبة وتظهر عليه الشجاعة يقدّر عمره بالسبع عشرة سنة يطلب المبارزة فهابه الناس وندب إليه معاوية أبا الشعثاء فقال : إن أهل الشام يعدونني بألف فارس ، ولكن أرسل إليه أحد أولادي وكانوا سبعة وكلما خرج أحد منهم قتله حتى أتى عليهم فساء ذلك أبا الشعثاء وأغضبه ولّما برز إليه ألحقه بهم فهابه الجمع ولم يجرؤ أحد على مبارزته وتعجب أصحاب أمير المؤمنين من هذه البسالة التي لا تعدو الهاشميين ولم يعرفوه لمكان نقابه ولما رجع إلى مقرّه دعاه أبوه أمير المؤمنين وأزال النقاب عنه فإذا هو قمر بني هاشم ولده العباس عليه السلام » .

وقد دافع المحقق السيد المقرم رحمه الله عن هذا الخبر وأيده ببعض الشواهد منها ما نقله عن صاحب كتاب الكبريت الأحمر وعن المناقب للخوارزمي[3] .

* يقول الإمام الصادق عليه السلام : كان عمّنا العباس بن علي نافذ

---

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر /٧٦ .
(٣) نفس المصدر /١٥٣ ـ ١٥٥ .

البصيرة صلب الإيمان جاهد مع أبي عبد الله عليه السلام وأبلى بلاءً حسناً ومضى شهيداً[1] .

*** ويقول الإمام السجاد عليه السلام : فلقد آثر وأبلى وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه فأبدله الله عزَّ وجلَّ منهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة ، كما جعل لجعفر بن أبي طالب وإن للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة[2] .**

وهذه الرواية الثانية تتحدث عن منزلة غير عادية للعباس عليه السلام وقد تناولها بالتحليل الشهيد آية الله القاضي في هامش الجزء الثالث من الأنوار النعمانية للمحدث الجزائري فتكلّم عن العلاقة بين استبدال اليدين بجناحين في الجنة وبين تجسّم الأعمال يقول الشهيد القاضي : « غير خفي على القارىء الخبير ، أن تبديل الله تعالى يدي جعفر الطيار ، وكذا يدي العباس عليهما السلام ، بجناحين يكشف عن تجسّم الأعمال ، كما هو الظاهر المحقق من الآيات الشريفة ، والأحاديث الكثيرة ، وأن لكل عمل في عالم المثال صورةً تناسب ذلك العمل ، وكذا الأمر في الآخرة وعالم الخلد ، وبما أن اليد من أعضاء البدن الإنساني في هذه النشأة الدنيوية ، آلة للقدرة ، والقوة ، والأخذ ، والإعطاء فقطعها في رضا الله تعالى وفي سبيله وخدمة الدين الإلهي وإحياء التوحيد وإماتة الكفر والزندقة يوجب عجز صاحبها في هذا العالم فالصورة المناسبة لهذا العمل في النشأة البرزخية هي أبدال الله تعالى بها جناحين يطير بهما جعفر الطيار وابن أخيه العباس عليهما السلام في العوالم البرزخية ، لا رادع لهما عن التجوال في تلك المراتب والمقامات العالية ، ولما كانت العوالم البرزخية أيضاً كهذه النشأة الفانية منصرمة لا محالة ، ففي جنة الخلد يكون الجناحان إشارة إلى القوتين العلمية والعملية ، والصعود فيهما إلى الدرجات السامية والمقامات العالية والمنازل الرفيعة ، ويكشف عن هذا قول السجاد : يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة ثم يقول : وغير خاف على القاريء الفطن أن لفظ «الشهداء» جمع معرف باللام يفيد العموم ، مضافاً إلى لفظ

---

(1) نفس المصدر / ١١٥ .

(2) نفس المصدر / ١٢٤ .

« جميع » الذي هو من ألفاظ العموم فيشمل مثل حمزة وجعفر[1] .

ومن الواضح أن هذا التحليل السليم يكشف عن سمو منزلة العباس عليه السلام وأن ذلك يرتبط بدرجة تقواه ويقينه وإخلاصه . . . إن تلك المنزلة هي الثمرة الطبيعية لملكاته السامية ومواقفه الخالدة . . .

ومن المهم أن ندرك هذا الترابط بين العمل في الدنيا وصورته في الآخرة ، فإن كل علمائنا عندما يتحدثون عن تجسّم الأعمال يقولون إن العمل في الدنيا يظهر في عالم البرزخ بصورة تناسب عالم البرزخ ، ويظهر في عالم القيامة بصورة تناسب ذلك العالم أيضاً .

إن الإنسان إذا اغتاب مثلاً فالصورة الظاهرية للغيبة هي التي نراها في هذا العالم ولهذا العمل تجسّم صورة « باطنية » تكون متناسبة مع حجم الغيبة وتمكنها من نفسه ، كذلك الخشوع في الصلاة مثلاً له صورة ظاهرية وصورة باطنية .

إخلاص العباس عليه السلام يتناسب مع كونه سيداً من سادة عوالم الآخرة . . . لأنه كان في الدنيا لقوة يقينه وشدة عبادته لله تعالى سيداً من السادة قارب منزلة أهل البيت عليهم السلام . ومن هنا نستطيع أن نفهم الترابط الجذري والوثيق بين العبادة والجهاد وحب الشهادة . .

وللإستدلال على صحة مفهوم تجسم الأعمال أذكر رأي الإمام الخميني رضوان الله عليه حول ذلك : يتحدّث الإمام عن تجسّم الأعمال في كتاب سرّ الصلاة ، ومن جملة ما يقوله : « فيا أيها العزيز تفكّر قليلاً في حالاتك وراجع أخبار أهل بيت العصمة وشمّر ذيل الهمّة عن ساقيك وأفهم النفس بالتفكير والتدبّر أن هذه المناسك وخصوصاً الصلاة وبالأخص الفرائض منها سبب للسعادة والحياة في عالم الآخرة . . . إن لكل من العبادات المقبولة صوراً غيبية بهيّة وتمثالاً ملكوتياً أخروياً يصاحب الإنسان ويرافقه في جميع النشآت الغيبية ويساعده في جميع الشدائد بل الجنة الجسمانية في الحقيقة هي الصور الغيبية الملكوتية للأعمال ومسألة تجسّم الأعمال من الأمور التي لا بدّ أن تعدّ من الواضحات والعقل والنقل يتوافقان عليها وتلك الصور الغيبية تابعة لحضور القلب وإقباله والعبادة التي لا يؤتى بها

---

(1) الأنوار النعمانية ٣/٢٢٨ .

بتوجه من القلب وإقباله ساقطة عن درجة الإعتبار وغير مقبولة لجناب الحق عزَّ وجلَّ »[1] .

بناءً على ذلك فمواقف مولانا أبي الفضل سلام الله عليه كانت قمماً عبادية حظيت بهذه الدرجة العالية من القبول لذلك استحق هذه المرتبة الكبيرة التي يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة .

*** ولاية العباس عليه السلام :**

أن تكون ولاية العباس واجباً من واجباتنا . . . هذا أمر طبيعي . . . إلا أن المهم أن نعرف درجة ولايته . . . للمؤمن العادي حق كبير على أخيه المؤمن حتى ورد في الروايات « المؤمن أعظم حرمة من الكعبة » ويتحدّث أحد علمائنا آية الله البهاري الهمداني رضوان الله عليه عن ثمرة الأخوة وفائدتها فيقول ما خلاصته : « فائدة الأخوة الإستعانة بها على أهوال وشدائد الآخرة » والأخوة مظهر من مظاهر التولي « والمؤمنون بعضهم أولياء بعض » وكلما ارتفعت درجة المؤمن كلما استحق الولاية بدرجة أكبر ، وارتفعت درجة نفع هذه الولاية في الآخرة إلى أن نصل إلى المؤمن المميز كالمقداد وسلمان وأبي ذر وعمّار رضوان الله عليهم وأصحاب أهل البيت عليهم السلام الذين ورد أن ولايتهم واجبة فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : **وتجب الولاية لأولياء آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين مضوا على منهاج نبيّهم ولم يغيّروا ولم يبدّلوا مثل سلمان الفارسي وأبي ذر والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبي الهيثم بن التيهان وسهل بن حنيف وعبادة بن الصامت وأبي أيوب الأنصاري وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وأبي سعيد الخدري وأمثالهم رضي الله عنهم والولاية لأتباعهم وأشياعهم والمهتدين بهداهم السالكين مناهجهم رضوان الله عليهم ورحمته**[2] .

هؤلاء العظماء تجب الولاية لهم ويجب أن تكون الولاية صادقة والمراد بالولاية لا ينفصل أبداً عن الحب والإقتداء ، عندما نحاول التعرّف على السبب في ذلك نجد في كلمات علمائنا ما يوضح الحقيقة . . . فالعلاقة بالمؤمن تجعل الطرفين

(١) سر الصلاة ـ ٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) القلب السليم ـ ٣٠٠ ، الهامش .

يستفيدان من أنوار بعضهما البعض ومن دعاء أحدهما للآخر ومن شفاعة أحدهما للآخر وتخليصه من شدائد القيامة كما تقدم وغير ذلك من الخيرات والبركات ، كل ذلك عن العلاقة بمن هم دون العباس عليه السلام . أما العباس سلام الله عليه فالحديث عنه هو الحديث عن أهل البيت عليهم السلام مع فارق أنه ليس معصوماً عصمة واجبة ، هنا أذكر ما ورد .

* في كتاب تنقيح المقال للعلامة الحجة المامقاني ، عندما يورد اسم العباس عليه السلام يورد إلى جانب الاسم عبارة بين الوثاقة والعصمة بمعنى أن الآخرين يحكى عن وثاقتهم وتعديلهم أما العباس فلا تستبعد عصمته .

* وقد توقف السيد المقرم ـ بحق ـ عند عدم سماح الإمام السجاد عليه السلام لبني أسد بمشاركته في دفن عمه العباس تماماً كما فعل عند دفن سيد الشهداء عليه السلام .

* ويقول أحد علمائنا الكبار الذين ورد التعبير عنهم في كتاب السيد المقرم بشيخ الطائفة وإمامها الشيخ محمد طه نجف في « إتقان المقال » عن العباس عليه السلام : هو أجل من أن يذكر في المقام (أي بين العلماء وفقهاء أهل البيت) بل المناسب أن يذكر عند ذكر أهل بيته المعصومين .

* ويشير الشيخ محمد علي الأوردوبادي إلى رأي الشيخ طه نجف ويبين أنه يتبنّاه فينظم عدّة أبيات فيقول فيها :

أجلُّ عباس الكتابِ والهدى ... والعلم والدين وأصحاب العبا
عن أن يطيش سهمه فينثني ... والإثم قد أُثقل منه منكبا
لم نشترط في ابن النبي عصمة ... ولا نقول إنه قد أذنبا

* ولآية الله الشيخ محمد حسن الأصفهاني وهو من كبار العلماء والفقهاء بالإضافة إلى أنه فيلسوف مشهور . . . أرجوزة طويلة يتحدّث فيها عن كربلاء والعباس عليه السلام بشكل خاص من جملة ما يقوله :

ذاك أبو الفضل أخو المعالي ... سلالة الجلال والجمال
شبل علي ليث غابة القدم ... «ومن يشابه أبه فما ظلم»

صنـو الكـريمـين سليـلي الهـدى ... علماً وحلماً شرفاً وسـؤددا
وهـو الـزكيُّ في مـدارج الكـرمْ ... هـو الشهيـد في معـارج الهـمـمْ

إلى أن يقول :

لـه من العـليـاء والمـآثـر ... مـا جـلّ أن يخـطر في الخـواطـر
وكـيـف وهـو في عـلّو المـنـزلـة ... كـالـروح من نقـطة بـاء البسملة

إلى غير ذلك من المعاني المهمة جدّاً التي تكشف عن درجة غير عادية لمولانا العباس عليه السلام ومنه قوله :

سرّ أبـيـه وهـو سرّ الـبـاري ... مـليـك عـرش عـالم الأسرار
أبـوه عـين الله وهـو نـورهـا ... بـه الهـدايـة استـنـار طـورهـا

ثم يقول :

لـيس يـد الله سـوى أبـيـه ... وقـدرة الله تجـلّت فـيـه
فـهـو يـد الله وهـذا سـاعـده ... تـغنيـك عن إثبـاتـه مشـاهـده
فـلا سـوى أبـيـه لله يـد ... ولا سـواه لأبـيـه عـضـد

وهكـذا نجد أن علماءنا الأعلام يتحدثـون عن العباس عليـه السلام بلغـة أخرى . . . هذه اللغة ينبغي أن تفهم وتعرف دلالتها .

* أشير هنا أيضاً إلى كلمة غاية في الأهمية وردت على لسان الإمام الحسين عليه السلام خـاطب بها العبـاس سلام الله عليـه ليلة العاشر من المحـرم يقـول « بنفسي أنت » أي أفديك بنفسي هذا النص الذي تأتي تتمته فيما بعد يكشف عن درجة غير عادية وكلام المعصوم حجّـة . . . السيد المقـرم عندمـا يعلق على هـذه العبارة يقول : في الزيارة التي يعلّمهـا الإمام الصـادق لصفوان يقـول له قـل في خطاب الشهداء بأبي أنتم وأمي أي أن الصادق لا يخاطبهم هو بهذه العبارة . . . وإنما يقول له : قل ذلك ، لم نجد إماماً يقـول عن الشهداء بـأبي أنتم وأمي لأن المعصوم أعظم، من هنا فإن قول الإمام الحسين عليه السـلام للعباس بنفسي أنت يدل على مرتبة عظيمة للعباس عليه السلام ينبغي إدراكها[1] . . .

* * *

(١) أقوال العلماء وما بعدها ، كتاب العباس عليه السلام للسيد المقرم رحمه الله .



* تقدم أن قيمة أي عمل تنبع من حقيقة هـذا العمل ، وصـورته البـاطنيـة ، أمـا الصورة الظاهرية فإنها لا تصلح أن تكون المحور الذي يقيِّم العمل على أساسه . . .

قد نرى شخصين يصليان في مكان واحـد بخشوع هـو في الـظاهـر بـدرجـة واحـدة . . . إلا أن الفارق الحقيقي بـين صـلاتيهما قـد يكون فـارق ما بـين السماء والأرض . . . وعلى هذا الأساس فإن من الخـطأ أن تـدرس مـواقـف العبـاس عليـه السـلام في كـربـلاء بمعـزل عن النصـوص التي وردت عن أهـل البيت عليهم السلام حول سمو منزلة أبي الفضل وقوة يقينه . . . وإيثاره . . .

إننـا إذا تـأملنـا مـواقف العبـاس عليـه السلام في كـربلاء بقـطع النظر عن روايـات أهل البيت نجـد أننا أمـام شخصيـة عظيمة . . . إلا أننا عندما نتأمل مضامين هـذه الروايـات نجد أنها تكشف لنـا عن

أبعـادٍ في هـذه العـظمـة لا يـرقى إليهـا إلا من اقـترب من مكـانـة المعصـومـين عليهم السلام . . .

والسبب في ذلك أننا عنـدما نحـاول معرفـة عظمـة أبي الفضل من خـلال مـواقفه في كـربلاء . . . نـراقب الصور الـظاهـريـة لننـتزع منهـا تقييـماً للبـاطن والحقيقة . . .

أمـا أهل البيت عليهم السـلام فإنهم يحـدثـوننـا عن حقيقـة شخصيـة أبي الفضل . . . ما أمكن ظهوره في مواقفه . . . وما لم يمكن . . . إنهم يتحدثون عن عمق علاقته بالله تعالى وعمق إخـلاصه . . . وشمـوخ روح الشهادة والفـداء في نفسه الطاهرة . . .

* ولدى الدخـول إلى نصوص كـربلاء ، نجـد أن أول نص يتحدّث عن العباس عليه السلام في كربلاء هو النصّ الذي يحدثنـا عن كتاب أمـان كتبه ابن زياد للعباس عليه السلام وورد النص في كتاب « أبصار العين في أنصار الحسين » كما يلي : « **لما كاتب عمر بن سعد عبيد الله بن زياد في أمـر الحسين عليـه السلام وكتب إليه على يدي شمر بن ذي الجوشن بمنازلة الحسين عليه السلام ونـزوله أو بعزله وتولية شمـر العمل ، قـام عبد الله بن أبي المحـل بن حـزام بن خـالد بن ربيعة بن عامر الوحيـد وكانت عمّته أم البنين فـطلب من عبيد الله كتـاباً بـأمان العباس وإخوته وقام معه شمر في ذلك فكتب أماناً وأعطاه لعبد الله** »[1] .

خلاصة ما يريد النص أن يتحدّث عنه أن الإمام الحسين عليه السلام كان في كربلاء ، ثم وصل عمر بن سعد وجيشه إلى كربلاء ، وجرت مداولات كتب ابن سعـد بعـدهـا إلى ابن زيـاد أن الجـو جـو صلح وبـالإمكـان التفـاهـم مـع الحسين . . . وينبغي أن يلاحظ هنا أن ابن سعد كـان يرغب بـذلك . . . لهـذا ينبغي التعامل بحذر مع ما ينقل عنه من ميل الإمـام إلى الموادعـة . . . المهم أنه كتب إلى ابن زياد بذلك . . . ويقال أن ابن زياد أعجب بالنتيجة ومال إلى الصلح إلا أن الشمر كان حاضراً فقال : الآن وقد علقت مخالبك به وحرّضـه على قتـل

---

(١) إبصار العين /٢٧ .

الإمام عليه السلام فوافق ابن زياد وكتب إلى ابن سعد ما خلاصته إما أن ينزل الحسين على طاعة يزيد وإما الحرب وإذا لم تلتزم بذلك فإن الشمر هو قائد الجيش وأنت معزول ، وقد تقدم أن عمر بن سعد كان يرى في الشمر منافساً ورقيباً . . .

عندما كتب ابن زياد هذا الكتاب إلى ابن سعد على يد الشمر قام أحد أخوال العباس عليه السلام (عبد الله بن أبي المحلّ) ـ أم البنين عمته ـ وطلب كتاب أمان من ابن زياد للعباس فوافق ابن زياد وأرسل الكتاب إلى العباس مع مولى لعبد الله يقال له كزمان . . .

ما أريد أن أقف عنده قبل استكمال النص ومعرفة ما كان جواب العباس وإخوته هو لماذا وافق ابن زياد على كتاب الأمان للعباس عليه السلام ولإخوته ؟

هل كتب ابن زياد هذا الكتاب لمجرد إكرام أخوال العباس وإخوته . . . أم أن هناك سبباً آخر ؟

الذين كانوا يعرفون العباس عليه السلام ـ وابن زياد منهم بحكم علاقة أبيه بأمير المؤمنين قبل أن ينحرف زياد ـ هؤلاء كانوا حريصين على فصل العباس عن الإمام الحسين نظراً إلى شجاعة العباس مما يعتبر توجيه ضربة كبيرة للإمام الحسين سلام الله عليه .

يتابع النص : « **أرسل عبد الله بن أبي المحل بالكتاب مع مولى له يقال له كزمان فأتى به إليهم ، فلمّا قرأوه قالوا له : أبلغ خالنا السلام وقل له أن لا حاجة لنا في الأمان ، أمان الله خير من أمان ابن سميّة ، فرجع** » . إن معرفتنا بعظمة العباس عليه السلام تجعلنا نرى أن من الطبيعي أن يرفض الأمان ولكن معرفتنا أيضاً بالجو الذي كان فيه العباس وإخوته يجعلنا ندرك أبعاد تلك العظمة ، فما يجب أن نقف عنده هو جو الجواب ودلالاته والمخزون الإيماني الذي يمكن أن يستوحى من كلام أبي الفضل وإخوته .

إن الجواب مبدئي « أمان الله خير من أمان ابن سمية » فالشيء الذي يحكم موقفهم هو الحفاظ على العلاقة مع الله تعالى وأمان الله لا يتنافى مع الشهادة في سبيله . . . المهم أن يكون المرء في أمان الله عزَّ وجلَّ وفي حفظه حتى إذا أدى به

ذلك إلى القتل . . . أذكر في هذا السياق أن أحد علمائنا الكبار الشهيد الشيخ فضل الله النوري رحمه الله ، الذي خاض الصراع المرير بين تياري المشروطة والإستبداد وحكم عليه بالإعدام وهو في منزله ، فبدأت السفارات الأجنبية تتصل به ، تعرض عليه اللجوء إليها فلا يتعرض إليه أحد . . . فلم يقبل عروضهم . . . عندها أرسلت إليه السفارة البريطانية صرّة كبيرة ، ففتح الصرة وإذا فيها علم بريطانيا ومعه رسالة تقول : « لا داعي لقدومك إلينا وبمجرّد أن ترفع هذا العلم فوق بيتك فإنك في أمان » .

فقال الشيخ النوري رحمه الله : لقد عشت طول عمري تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله . . . والآن أنا في آخر عمري يريدون مني أن أدخل في أمان بريطانيا وأعيش تحت رايتها ! إنه تلميذ هذه المدرسة التي كان العباس عليه السلام وما يزال الملهم لها والمعلم . . .

هذا الموقف من العباس عليه السلام وإخوته درس لكل محاصر ومضطهد يصبح في ظروف تضطره للتنازل عن مبدئيته والركون إلى الظالمين بحثاً عن السلامة . . . فلا سلامة ولا أمان إلا في طاعة الله تعالى .

* نجد أيضاً حديثاً عن أمان آخر وفيه أن الشمر خاطب العباس وإخوته في اليوم العاشر من محرم يعطيهم الأمان ! **« ووقف الشمر ناحية ونادى أين بنو أختنا أين العباس وإخوته ؟ فأعرضوا عنه فقال الحسين عليه السلام : أجيبوه ولو كان فاسقاً فأجابوه وقالوا : ما شأنك وما تريد ؟ قال : يا بني أختي أنتم آمنون لا تقتلوا أنفسكم مع الحسين ، والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد ، فقال العباس : لعنك الله ولعن أمانك أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له وتأمرنا أن ندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء »**[1] .

وإنما قال الشمر ما قال لأن جدّ أم البنين وجد الشمر إخوة وهو يريد إضعاف معسكر الإمام كما تقدم . . .

هنا أذكر موقفاً لزهير بن القين مع العباس صحيح أنه لا يتحدّث عن الأمان

(١) مقتل الحسين للمقرم / ٢٠٩ .

لكنه حدث بعد أن أجاب العباس وإخوته الشمر على أمانه يقول النص : « **ولما رجع العباس قام إليه زهير بن القين وقال أحدّثك بحديث وعيته ؟ قال : بلى فقال : لما أراد أبوك أن يتزوج طلب من أخيه عقيل وكان عارفاً بأنساب العرب أن يختار له امرأة (. . .) تلد غلاماً شجاعاً ينصر الحسين بكربلاء وقد أدخرك أبوك لمثل هذا اليوم فلا تقصّر عن نصرة أخيك وحماية أخواتك** »[1] .

ما يستوقفنا في هذا النص هو أن زهير كان لوقت قريب يكره رؤية الإمام الحسين وها هو الآن بمستوى تشجيع العباس عليه السلام وهذا يدل على مدى ارتقاء زهير رضوان الله عليه في فترة وجيزة مما يدل على أن الله تعالى يوفق الإنسان بسبب بعض طاعاته فيبلغ مراتب عالية جداً مما يجعلنا نفهم ما معنى الحديث « جذبة من جذبات الحق تعدل عبادة الثقلين » .

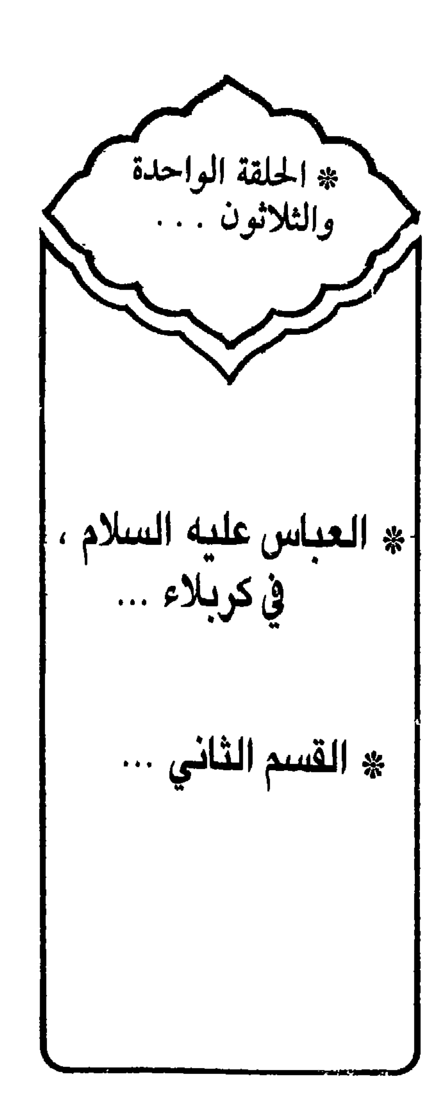
وهذا النص أيضاً يجعلنا ندرك أن زهير كان يعرف الكثير عن الإمام الحسين عليه السلام إلا أن المعرفة وحدها لا تكفي والهداية من الله تعالى . . .

فماذا كان جواب العباس عليه السلام . . . قال الزهير : **أتشجعني يا زهير في مثل هذا اليوم فوالله لأرينّك شيئاً ما رأيته** . . . وهذا الكلام من العباس عليه السلام يلقي بعض الضوء على أن شجاعته لم تكن عادية فهو يريد أن يُري زهير شيئاً لم يره رغم أن زهيراً كان فارساً شجاعاً خاض حروب الفتح يقول السيد المقرم هنا : **فجدّل أبطالاً ونكس رايات في حالة لم يكن من همّه القتال ولا مجالدة الأبطال بل همّه إيصال الماء إلى عيال أخيه** .

* * *

(١) نفس المصدر .





* أقف أولاً عندما ذكره العالم الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه نهضة الحسين ، حيث يحاول أن يرسم لنا صورة لساحة المعركة في كربلاء ، يستخرج هذه الصورة من بعض النصوص التاريخية أهمها النص الذي يتحدّث عن أن المتوكل العباسي أجرى الماء ليغمر قبر الإمام الحسين عليه السلام بالماء وكيف أن الماء استدار في مكان معين خلاصة ما يبيّنه السيد الشهرستاني عن ساحة معركة كربلاء أن مكان ضريح الإمام الحسين الآن هو وسط شبه دائرة كان يشكل شبه الدائرة هذه سلسلة من التلال كانت خيام الإمام الحسين عليه السلام داخل شبه الدائرة هذه وكان نهر العلقمي المتفرع من نهر الفرات يقع خارج هذه التلال بحيث أن من يريد أن يصل إلى الماء من معسكر الحسين عليه السلام لا بد وأن يخرج من القمة التي كانت بين تلك التلال ، وعندما

أمر ابن زياد بتشديد الحصار على الإمام الحسين ، أمر عمر بن سعد جيشه أن يعسكر في المنطقة التي تقع بين شبه الدائرة التي تحددها سلسلة التلال وبين النهر بحيث أن من يريد أن يخرج من المنطقة التي كان فيها الإمام الحسين لا بد وأن يجتاز الجيش كلّه حتى يصل إلى النهر .

هذه الصورة تنفعنا لدى الحديث عن مواقف العباس عليه السلام باعتبار أن المهمة التي أوكلت إلى العباس عليه السلام مراراً هي مهمة سقي الماء من جهة ثانية يشير السيد الشهرستاني إلى نقطة مهمة جدّاً وهي أن أمضى سلاح كان لجماعة ابن زياد وابن سعد ضد الإمام الحسين عليه السلام كان هو العطش والماء . . .

هذا السلاح مع مسألة موقع أرض كربلاء يجعلانا نكون فكرة عن عظمة المواقف التي وقفها العباس عليه السلام في كربلاء فقد كان عليه السلام يواجه أمضى سلاح مقابل الحسين عليه السلام ومن معه . وبعبارة ثانية كان العباس عليه السلام رجل المهمات الصعبة في كربلاء وسيأتي مزيد إيضاح . . .

* هناك حديث عن أمر الإمام الحسين للعباس بجلب الماء قبل اليوم العاشر من المحرم ، يقول نص في هذا السياق : « **لما منع الحسين عليه السلام وأصحابه من الماء وذلك قبل أن يجمَع على الحرب اشتد بالحسين وأصحابه العطش فدعا أخاه العباس فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً ليلاً فجاؤوا حتى دنوا من الماء[1] وتقدم نافع بن هلال الجملي باللواء فصاح عمرو بن الحجاج من الرجل قال : جئنا لنشرب من هذا الماء الذي حلأتمونا عنه . فقال : اشرب هنيئاً ولا تحمل إلى الحسين منه . قال نافع : لا والله لا أشرب منه قطرة والحسين ومن معه من آله وصحبه عطاشى ، وصاح نافع بأصحابه املأوا أسقيتكم ، فشدّ عليهم أصحاب ابن الحجاج فكان بعض القوم يملأ القرب وبعض يقاتل وحاميهم « العباس عليه السلام » فجاؤوا بالماء وليس أحد من أعدائهم تحدثهم نفسه بالدنو منهم فرقاً من ذلك البطل المغوار ، فبلت غلّة الحرائر والصبيَّة من ذلك الماء** »[2] .

وهناك نص أورده صاحب إبصار العين : « **وكان العباس ربّما ركز لواءه**

---

(١) إبصار العين /٢٧ .

(٢) مقتل الحسين /٢٠٣ بتصرف يسير .

أمام الحسين وحامى عن أصحابه ، أو استقى ماء فكان يلقّب السقّاء »[1] .

* كذلك نجد حديث أبي الفضل في نص يتحدث عن اليوم التاسع من محرم : **« كان الحسين عليه السلام جالساً أمام خيمته محتبياً بسيفه وخفق برأسه فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إنك صائر إلينا عن قريب ، وسمعت زينب أصوات الرجال وقالت لأخيها قد اقترب العدو منا ، فقال لأخيه العباس : اركب بنفسي أنت حتى تلقاهم واسألهم عمّا جاءهم وما الذي يريدون فركب العباس في عشرين فارساً فيهم زهير وحبيب وسألهم عن ذلك قالوا جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو ننازلكم الحرب » .**

الملاحظ هنا أن العباس عليه السلام ينوب عن الحسين وحبيب بن مظاهر وزهير ـ على جلالة قدرهما ـ ملحقان بالعباس وهو المكلف بالمهمة .

كذلك عندما التقى الإمام الحسين بعمر بن سعد بين الصفين في كربلاء وأراد الإمام أن يعظه يلاحظ أن الإمام أمر من معه بالإنصراف ولم يبق إلا العباس وعلي الأكبر ، كما بقي مع ابن سعد ابنه وأحد المقربين منه . . . أما قول الإمام الحسين للعباس « بنفسي أنت » فقد تقدم الكلام حول دلالته المهمة .

تقدم العباس عليه السلام وفاوض القوم ثم رجع إلى الإمام الذي طلب من العباس أن يستمهلهم هذه العشية قال عليه السلام : **إرجع إليهم واستمهلهم هذه العشية إلى غد لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره فهو يعلم أني أحب الصلاة له ، وتلاوة كتابه ، وكثرة الدعاء والإستغفار ، فرجع العباس واستمهلهم العشية**[2] . . .

* هناك موقف آخر للعباس ليلة العاشر يقول النص : إن الإمام الحسين عليه السلام جمع أصحابه قرب المساء قبل مقتله بليلة . . . ومن جملة ما قاله عليه السلام : « أما بعد ، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني جميعاً . . . فانطلقوا جميعاً

---

(١) إبصار العين /٢٩ .

(٢) مقتل الحسين /٢١١ .

في حلّ ليس عليكم مني ذمام وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي فجزاكم الله جميعاً خيراً وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يطلبونني ولو أصابوني لذهلوا عن طلب غيري، فقام العباس فقال: لِمَ نفعل ذلك ؟ لنبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبداً . . .

إذا أردنا أن نعرف أهمية موقف العباس عليه السلام فينبغي أن نلاحظ ما يلي :

١ ـ ليلة العاشر من المحرم ، كانت النتيجة قد اتضحت . . . وأدرك كلّ من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام أنهم يواجهون معركة ضروساً . . . لا مجال فيها إلا للإستشهاد ، سدت جميع السبل . . . لن يصلهم مدد ، أهل الكوفة لم يزدهم النصح والوعظ إلا عتواً وطغياناً . . . والإمام عليه السلام لن يتراجع . . .

٢ ـ في مثل هذا الجو كان من الطبيعي أن كل إنسان يرى نفسه على عتبة القتل وما هو إلا سواد هذه الليلة فمن يرغب بالحياة . . . فما عليه إلا أن يتخذ هذا الليل جملاً . . . وينجو بنفسه من القتل . . .

٣ ـ رغم حراجة الموقف . . . فإن سيد الشهداء لا يريد لكربلاء إلا الأبدال ولا يستحق الرعديد أن يقتل خطأً مع الكربلائيين . . . أراد عليه السلام أن يبين للأجيال معدن أصحابه وأهل بيته . . . فخيرهم . . . وجعلهم في حل من بيعته . . .

٤ ـ في مثل هذا الموقف . . . عندما يتكلم القائد وينتظر الجواب . . . فإن لأول متكلم الأثر الكبير في توجيه الجو والموقف الوجهة التي يريد وطبع مواقف الآخرين بطابعه . . .

فإذا كان المتكلم الأول في مثل هذا الجو متخاذلاً فإن ذلك سيترك آثاره السلبية حتى إذا كانت النتيجة العامة مخالفة لموقفه ورأيه أما إذا كان المتكلم الأول شجاعاً يفيض اليقين من قلبه على كلماته . . . فإنه سيهب القلوب عزيمة وقوة يقين . . . هكذا نستطيع أن ندرك بعض آثار كلمات أبي الفضل عليه السلام في هذا الموقف التاريخي . . .

« ولِمَ نفعل ، لنبقى بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبداً » .

ولو قالها غير العباس لكان لها الأثر السحري . . . لشدة زخم العاطفة فيها في موقف لا تحتاج العاطفة فيه لتهتز إلى أكثر من مجرد إثارة . . .

فكيف والقائل هو العباس بن علي . . . المدخر لمثل هذا اليوم . . . صاحب اليقين القوي بالله تعالى . . . يا ليت أن الأجيال تستطيع سماع هذه العبارات لترى أي مخزون شعوري وعقائدي هائل كانت تحتضن . . . وهل يستطيع النص أن يقدم لنا شيئاً من ذلك . . . من النبرة ودرجة الإخلاص . . . وقوة اليقين . . .

لذلك نجد أن كلمات الأصحاب كلّهم تأخذ هذا المنحى الذي نحاه العباس ووجّه الحديث نحوه ، قام بعدئذ مسلم بن عوسجة وتحدث ، كذلك سعيد بن عبد الله الحنفي ، زهير بن القين ، محمد بن بشير الحضرمي الكل كان حديثهم من وحي كلام العباس عليه السلام « لم نفعل ذلك لكي نبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبداً » .

* ومن الأمور التي لها دلالتها على مدى ثقة الإمام الحسين عليه السلام بأخيه أبي الفضل واعتماده عليه ، أن العباس كان حامل راية الإمام وللراية في الحروب آنذاك تأثير كبير على معنويات الجيش . . . فبمقدار ما تكون ثقة الجيش بجرأة حامل الراية وشجاعته يكون الجيش مطمئناً . . . وما دامت الراية مرفرفة خفاقة فالجيش ينظر إليها ويرى أن أمره على ما يرام أو ما يزال مقبولاً . في كل الحروب كانت تعطى الراية للرجل الشجاع الذي لا يتراجع بمجرّد أن يرى أن الدائرة قد تدور عليه وعلى من معه والذي لا يتراجع حتى إذا رأى أن الدائرة دارت عليه وعلى من معه لأنه ينبغي أن يتصرف على أساس أن بقاء الراية مرفرفة يتيح اجتماع الجيش المتفرق . . . في حروب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجد أن الراية بشكل عام كانت تعطى لأمير المؤمنين سلام الله عليه . أمير المؤمنين عليه السلام يتحدث عن الراية مع من ينبغي أن تكون ، يقول عليه السلام :

« ولا تميلوا براياتكم ولا تزيلوا ولا تجعلوها إلا مع شجعانكم فإن المانع للذمار ، والصابر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ ، واعلموا أن أهل الحفاظ هم الذين يحفّون براياتكم ويكتنفونها ويصيرون حفافها ، وأمامها ، ووراءها ، ولا

يضيعونها ، ولا يتأخرون عنها فيسلمون ولا يتقدمون عنها فيفردونها »[1] .

والإمام الحسين عليه السلام عندما يعطي الراية لأحد لا بد وأنه يختاره على هذا الأساس ، لذلك أعطاها لأبي الفضل عليه السلام . . .

هناك نصّ يتحدّث عن توزيع الإمام الحسين لجيشه ، يقول النص : « ثم صفهم للحرب وكانوا اثنين وثمانين فارساً وراجلاً ، فجعل زهير بن القين في الميمنة ، وحبيب بن مظاهر في الميسرة ، وثبت هو عليه السلام وأهل بيته في القلب ، وأعطى رايته أخاه العباس »[2] ، فبالإضافة إلى أن العباس عليه السلام كان موكلاً بمواجهة أمضى سلاح في كربلاء وهو العطش وذلك قبل بدء الحرب كان في الحرب أيضاً هو المحور لأن الراية كانت معه .

* وأذكر هنا موقفاً من مواقف العباس عليه السلام يكشف عن جانب من شجاعته ، يقول النص : « لما نشبت الحرب بين الفريقين تقدم عمر بن خالد ومولاه سعد ومجمع بن عبد الله وجنادة بن الحارث فشدوا مقدمين بأسيافهم على الناس فلما وغلوا فيهم عطف عليهم الناس فأخذوا يحوزونهم وقطعوهم من أصحابهم ، فندب الحسين عليه السلام لهم أخاه العباس ، فحمل على القوم وحده فضرب فيهم بسيفه حتى فرّقهم عن أصحابه وخلص إليهم فسلموا عليه فأتى بهم ولكنهم كانوا جرحى فأبوا عليه أن يستنقذهم سالمين فعاودوا القتال وهو يدفع عنهم حتى قتلوا في مكان واحد فعاد العباس إلى أخيه وأخبره بخبرهم »[3] .

* ومن مواقفه الكربلائية عليه سلام الله ، تقديمه إخوته للشهادة في سبيل الله تعالى . . . فعندما رأى العباس « كثرة القتلى من أهله قال لإخوته من أمه وأبيه ، عبد الله وعثمان وجعفر ، تقدموا يا بني أمي حتى أراكم نصحتم لله ولرسوله . . . والتفت إلى عبد الله وكان أكبر من عثمان وجعفر وقال : تقدم يا أخي حتى أراك قتيلاً وأحتسبك ، فقاتلوا بين يدي أبي الفضل حتى قتلوا

(١) العباس عليه السلام للمقرم / ١٥٠ .
(٢) مقتل الحسين / ٢٢٥ .
(٣) إبصار العين / ٢٩ .

بأجمعهم »[١] .

ولا يمكن أن ندرك بعض أبعاد هذا النص بمعزل عن معرفة رقة القلب ولينه لدى المستغرق في الله تعالى . . . بمقدار درجة العابد في العبادة وقربه من الله تعالى تكون رقة قلبه . . . الأمر الذي يجعل تفاعله مع الأمور العاطفية المنسجمة مع رضا الله تعالى أمراً لا يدركه أصحاب القلوب القاسية . . .

مهما حاولنا تصور حنان نبي الله إبراهيم وهو يمسك بابنه ليذبحه . . . فلن نستطيع إدراك كنهه . . . ومهما حاولنا تصور حالة أبي الفضل وهو يقدم إخوته للشهادة ، ليرى أنهم نصحوا لله ولرسوله . . . فلن نستطيع إلا أنه رغم ذلك لا يرضى لإخوته إلا ما يرضي الله تعالى . . . ويهوِّن مصابه بهم أنه بعين الله . . . لقد كان وقع ذبح الطفل الرضيع على سيد الشهداء كوقع الصاعقة ، إلا أنه مع ذلك كله كان مستعداً أتم الإستعداد لتحمله لأنه بعين الله « هوَّن علي ما نزل بي أنه بعين الله » .

*** شهادة أبي الفضل عليه السلام :**

لم يبق من أهل البيت ألا أبو الفضل . . . وأبو عبد الله . . . استشهد جميع الأصحاب . . . واستشهد كل القادرين على حمل السلاح من أهل البيت . . . وما يزال الإمام الحسين لا يطيق أن يأذن لأبي الفضل بالقتال . . . قتال من قرر أن لا يعود إلى معسكره . . .

وتختلف المصادر في تحديد مقدمات شهادة أبي الفضل فبعضها يذكر أن الإمام قصد المشرعة . . . فخاض مواجهة ضارية مع جيش ابن سعد والعباس بين يديه . . . إلى أن استشهد بينما تذكر المصادر الأخرى التي رأيت ما هو مشهور في كيفية شهادة أبي الفضل . . . وأنقل هنا رواية « إبصار العين » مشيراً إلى بعض ما ورد في النصوص الأخرى .

بعد استشهاد إخوته جاء العباس « إلى الحسين عليه السلام ، واستأذنه في القتال (الحرب) فقال عليه السلام : أنت حامل لوائي . . . فقال : لقد ضاق

---

(١) مقتل الحسين /٢٦٦ .

صدري ، وسئمت الحياة . . . فقال له الحسين عليه السلام : إن عزمت فاستسق لنا ماءً .

فأخذ قربته وحمل على القوم حتى ملأ القربة ، قالوا : واغترف من الماء غرفة ثم ذكر عطش الحسين عليه السلام فرمى بها وقال :

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده لا كنت أن تكوني
هذا الحسين وارد المنون ... وتشربين بارد المعين

ثم عاد فأخذ عليه الطريق ، فجعل يضربهم بسيفه وهو يقول :

لا أرهب الموت إذ الموت نزقا ... حتى أوارى في المصاليت لقى
إني أنا العباس أغدو بالسقا ... ولا أهاب الموت يوم الملتقى

فضربه حكيم بن طفيل الطائي السنبسي على يمينه فبراها فأخذ اللواء بشماله وهو يقول :

والله إن قطعتم يميني ... إني أحامي أبداً عن ديني

فضربه زيد بن ورقاء الجهني على شماله فبراها ، فضم اللواء إلى صدره (كما فعل عمه جعفر إذ قطعوا يمينه ويساره في مؤتة فضم اللواء إلى صدره) وهو يقول :

ألا ترون معشر الفجار ... قد قطعوا ببغيهم يساري

فحمل عليه رجل تميمي من أبناء أبان بن دارم فضربه بعمود على رأسه فخر صريعاً إلى الأرض ، ونادى بأعلى صوته : أدركني يا أخي . . . فانقض عليه أبو عبد الله كالصقر فرآه مقطوع اليمين واليسار مرضوخ الجبين مشكوك العين بسهم مرتثاً بالجراحة ، فوقف عليه منحنياً وجلس عند رأسه يبكي حتى فاضت نفسه ثم حمل على القوم فجعل يضرب فيهم يميناً وشمالاً فيفرون بين يديه كما تفر المعزى إذا شد فيها الذئب وهو يقول : أين تفرون وقد قتلتم أخي . . . أين تفرون وقد فتتم عضدي . . . ثم عاد إلى موقفه منفرداً »[1] .

* ولدى التأمل في هذا النص لا بد في محاولة فهمه من استحضار منزلة أبي

---

(١) إبصار العين / ٣٠ .

الفضل كما تبينها ـ بشكل خاص ـ الروايتان عن الإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام . . . فالعبرة كما تقدم باليقين الذي يصدر عنه الموقف . . .

يقول أحد العلماء الأعلام ما خلاصته : يمكن أن يقوم كثير من الناس ببعض الأعمال التي قام بها أهل البيت عليهم السلام إلا أنهم بالتأكيد لا يستحقون آنذاك المدح الذي استحقه أهل البيت بجدارة . . . قد يتصدق شخص بخاتمه أثناء ركوعه إلا أنه لا يصبح يستحق أن ينزل فيه قرآن . . . أو قد يتصدق شخص بإفطاره على مسكين ويتيم وأسير . . . إلا أنه لن يصبح ممن قال فيهم تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه . . . ﴾ إن درجة الإخلاص واليقين هي المحور[1] . . .

بهذه الرواية ـ التي مر الحديث عنها ـ ينبغي الدخول إلى مطاوي هذا النص واستلهام بعض دلالاته . . .

أولاً : قول أبي الفضل : لقد ضاق صدري وسئمت الحياة . . .

هل يمكننا أن ندرك أية معاناة كان يعاني مرارتها أبو الفضل . . . إنه ابن من قال عندما أغارت خيل معاوية على الأنبار فلو أن امرءاً مات من هذا كمداً لما كان عندي ملوماً . . .

إن التفاعل مع الحقائق لدى أهل الحقائق شأن لا تفقهه القلوب التي فتكت بها الذنوب فأمرضتها .

نحن نسمع مجريات كربلاء بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً فيضيق صدرنا . . . ويسأم الموالي الحياة . . . فما ظنك ممن عاش أحداثها في الصميم لحظة بلحظة . . . وهو يعيش بعمق ظلامة أهل البيت على امتداد مراحلها . . . بما لذلك من دلالات على التنكر لرسول الله والبعد عن الله تعالى وإعلان الحرب عليه . . .

وبيسر تستطيع أن تلمس من كلمات أبي الفضل كيف كان سيفه يفري رقاب المنافقين . . . دون أن يقيم لجموعهم الحاشدة أي وزن لفرط ما خفت

---

(١) هو آية الله السيد محمد حسين الطهراني في كتابه « معاد شناسي » .

موازينهم وباعوا أنفسهم للشيطان . . .

تتحدث بعض المصادر أن الذي أحاطوا بالعباس عليه السلام أربعة آلاف يرمونه بالنبال . . . ومع ذلك كشفهم ونزل إلى الفرات غير مبال ولا مكترث[1] . . .

ثانياً : يجد المتتبع لنصوص كربلاء أن أهل الكوفة كانوا يحسبون حساباً خاصاً لعدد من الأبطال لأنهم يعرفون شجاعتهم وخبرتهم القتالية . . .

في طليعة هذه الثلة كان سيد الشهداء عليه السلام . . . تكشف النصوص ذلك بوضوح . . . ولو لم يكن إلا قول عمر بن سعد « هذا ابن قتال العرب » لكفى . . .

يليه أبو الفضل العباس عليه السلام . . . الذي تفرغ الجيش لقتاله . . . فإن إحاطة أربعة آلاف به لا تعني غير ذلك . . . وحتى إذا لم يكن أهل الكوفة يعرفونه من قبل . . . فإنهم في كربلاء قد عرفوه . . . فكم مرة شق جموعهم ووصل إلى المشرعة . . . بالإضافة إلى أنه فرق صفوفهم وخاض غمارها ووصل إلى الأربعة المحاصرين ـ كما تقدم ـ فاستنقذهم . . .

ولا شك أن النصوص التي تتحدث عن شهادته غيلة تكشف عن خوف الكوفيين من بأسه الحيدري . . . « فكمن له زيد بن الرقاد الجهني فضربه على يمينه فبراها »[2] ورغم أن يده اليمنى قطعت فلم يجرؤ هؤلاء على مواجهته « فلم يعبأ بيمينه . . . ولكن حكيم بن الطفيل كمن له من وراء نخلة فلما مر به ضربه على شماله فقطعها وتكاثروا عليه وأتته السهام كالمطر . . . »[3] .

ثالثاً : الإيثار . . . « واغترف من الماء غرفة ثم ذكر عطش الحسين عليه السلام فرمى بها . . . » عندما حدد الإمام السجاد عليه السلام بعض معاني العظمة في شخصية أبي الفضل . . . وقف عند الإيثار فقال : « رحم الله العباس فلقد آثر وأبلى » .

---

(١) المقرم /٢٦٨ .

(٢) (٣) نفس المصدر .

ولعل من أهم مظاهر الإيثار هذا امتناعه عليه السلام عن شرب الماء لأنه ذكر عطش سيد الشهداء . . . والإيثار من مقومات الشخصية « المؤمنون يؤثرون على أنفسهم » وهو نتيجة طبيعية لجهاد النفس فمن جاهد نفسه لا بد وأن يوقى شحها . . . من هنا لا يمكن للعباس إلا أن يكون مؤثراً وبهذه الدرجة . . . ومن هنا نعرف أن من يقول : كان باستطاعته أن يشرب ويحاول إيصال الماء إلى الإمام . . . فعن نفسه يتحدث لا عن نفس العباس التي روضها عليه السلام فوقي شحها . . .

أرأيت من يعتب على أم لا تذوق الطعام لأن ابنها الوحيد مصاب بمرض عضال . . . فيقول عنها : لتأكل ولتبك على ابنها . . . إنه يقيس موقفها بموقفه . . . وقل كل يعمل على شاكلته . . .

كيف يستطيع أبو الفضل أن يذوق الماء الذي منع الحسين وأهل بيته من شربه . . . وهل يمكنه ذلك إلا عندما يصبح الإمتناع عن الشرب حراماً يؤدي به إلى التهلكة . . . وما دام لم يصل الأمر به إلى هذا الحد فإنه لن يشرب مهما استبد به العطش . . .

« يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني
هذا الحسين وارد المنون وتشربين بارد المعين »

ولا ريب في أن موقف أبي الفضل عليه السلام يرقى إلى مستوى تأسيس أصل في علاقة الموالي لأهل البيت بالماء . . . فكل موالٍ لهم حقاً لا بد وأن يتذكر عند رؤية الماء وشربه عطش سيد الشهداء . . . هذا الماء الذي منع الحسين شربه . . . كيف يمكنني أن أرتوي منه ولا أذكر عطش عزيز الزهراء . . . فألعن قاتله .

وهكذا يصبح شرب الماء رافداً من روافد تعميق الولاء والإيثار والثورة .

رابعاً : كان أبو الفضل عليه السلام رغم كثرة الأعداء لا يفكر بنفسه ولا يحمل همها . . . وإنما كان يحمل هماً واحداً . . . هم أبي عبد الله الحسين . . . وأنه عما قريب سيصبح وحيداً فريداً لا ناصر له من الناس ولا معين . . . وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيسي في ضيق صدر أبي الفضل سلام الله عليه . . .

صحيح أنه كان في الطريق إلى المشرعة ومنها يريد إيصال الماء إلى الحسين وأهل بيته . . . إلا أنه كان يعلم أن الحسين في النهاية ـ سيبقى وحيداً ـ . . .

ويستطيع أحدنا أن يدرك من خلال ذلك كم بكى أبو الفضل وهو يتصور ما يجري على أبي عبد الله من بعده . . .

كما يستطيع أن يدرك مدى لهفة أبي الفضل على سيد الشهداء واللهجة التي كانت تطبع حديثه معه على أعتاب شهادته . . . والجو النفسي الذي توجه فيه إلى المشرعة . . . وامتنع عن الشرب من بارد معينها . . . وفي طريق العودة . . .

كما نستطيع أن ندرك من ذلك الجو النفسي لسيدنا أبي الفضل عليه سلام الله تعالى عندما قطعت يمينه . . . فليس المهم أن يمينه قطعت . . . المهم أن حراجة الموقف تشتد . . . وعما قريب سيصبح أبو عبد الله وحيداً فريداً . . .

ألا يدل على ذلك قوله عليه السلام :

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

بحب الحسين يخفق القلب . . . وما اليمين . . . واليسار . . . وما النفس . . . « نفسي لسبط المصطفى الطهر وقا » .

حب الحسين وكفى . . . فهو مظهر حب المصطفى الطهر وحب الله تعالى « فأحلهم يا رب حر النار » وعندما تقبل الله أعظم قربان بعد « القربان » وتشرفت الأرض كلها باحتضان بقعة منها في كربلاء جسد أبي الفضل شهيداً . . . نادى يا أخي أدركني وفي رواية : عليك مني السلام أبا عبد الله . . .

ولكن كيف هوى ذلك الطود الإلهي الشامخ إلى الأرض ؟

* يحدث السيد المقرم عن أحد خطباء المنبر الحسيني الشيخ كاظم سبتي رحمه الله أنه قال : أتاني أحد العلماء الثقاة قائلاً :

أنا رسول العباس إليك . . . فقد رأيته في المنام عاتباً عليك . . . وهو يقول : لم لا يذكر الشيخ كاظم مصيبتي في مجالس العزاء التي يقرؤها ؟ . . .

فقلت له : سيدي إني أسمعه باستمرار وهو يذكر مصيبتك . . .

قال عليه السلام : قل له يذكر هذه المصيبة :

« إن الفارس إذا سقط عن فرسه يتلقى الأرض بيديه . . . فإذا كانت السهام في صدره ويداه مقطوعتان فبماذا يتلقى الأرض »[1] .

هونت يا ابن أخي مصارع فتيتي ... والجرح يسكنه الذي هو آلم
فأكب منحنياً عليه ودمعه ... صبغ البسيط كأنما هو عندم
قد رام يلثمه فلم ير موضعاً ... لم يدمه عض السلاح فيلثم

* * *

هذا آخر ما يسر الله تعالى إيراده . . . على أمل أن أوفق لمتابعة عرض سيرة شهداء كربلاء بحول الله تعالى . . .

أللهم تقبل هذا القليل بكرمك واجعله ذخراً ليوم العرض الأكبر . . . إنك نعم المولى ونعم النصير . . . وقد وقع الفراغ من إعادة النظر في هذه الحلقات ظهر يوم الاثنين ، العشرين من ذي الحجة العام ١٤١١ هـ . . . والحمد لله رب العالمين .

بيروت ـ حسين محمد كوراني

* * *

(١) مقتل الحسين /٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، الهامش .



الفهرس


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

